الدم المستباح بين المتاجرة والمفاجرة | كأس العالم لكرة القدم بجنوب أفريقيا أسرار وآثار

قراءات أفريقية

مجلة ثقافية فصلية متخصصة في شؤون القارة الأفريقية
العدد الخامس - جمادى الثاني ١٤٣١هـ - يونيو ٢٠١٠م

دور القوى الدولية في أفريقيا

- ندوة: بدائل لحل خلاف مصر مع دول منابع النيل
- آراء الشيخ إبراهيم إنياس السنغالي في الميزان

بسم الله الرحمن الرحيم

قراءات أفريقية

ثقافية فصلية متخصصة في شؤون القارة الأفريقية
تصدر عن المنتدى الإسلامي

العدد الخامس - جمادى الثاني ١٤٣١هـ - يونيو ٢٠١٠م

رئيس مجلس الإدارة
خالد بن عبد الله الفواز
fawaz@qiraaat.com

رئيس التحرير
د. إبراهيم العامر

الهيئة الاستشارية
المشير: عبدالرحمن سوار الذهب (السودان)
د. عبدالرحمن السميط (الكويت)
د. إبراهيم أبو عباة (السعودية)
د. حقار محمد أحمد (تشاد)
د. محمد أحمد لوح (السنغال)
د. محمد الثاني عمر (نيجيريا)
أ. د. عبدالغفور البوسعيدي (كينيا)
أ. د. حمدي عبد الرحمن حسن (مصر)
أ. إبراهيم كنتاو (مالي)

التحرير
editors@qiraaat.com

المراسلات
بريطانيا - لندن:
7 Bridges Place,
Parsons Green Fulham,
London SW6 4HW, UK
هاتف: 0044-207-4718261
فاكس: 0044-207-7364255
المملكة العربية السعودية - الرياض:
هاتف: 0096614944949
فاكس: 0096614942900

التسويق / التوزيع
marketing@qiraaat.com

المواد المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

المحتوى

افتتاحية	لماذا الاهتمام بأفريقيا؟ التحرير	٢
قراءات إسلامية	آراء الشيخ إبراهيم إنياس السنغالي في الميزان د. محمد عمر الثاني	٣٥
قراءات تاريخية	الثقافة الإسلامية في مملكة بورنو الإسلامية د. علي يعقوب	٢٢
قراءات تنموية	العولمة في إفريقيا سلطان فولي	٢٧
	المساعدات الغربية ودورها في التنمية الإفريقية د. سلوى درويش	٣٥
قراءات اجتماعية	الزواج في إفريقيا النسق القرابي وطريقة تكوين الأسرة محمد الهواري	٤٣
حوارات وندوات	كأس العالم لكرة القدم بجنوب إفريقيا .. أسرار وآثار هيئة التحرير	٥٠
	بدائل لحل خلاف مصر مع دول منابع النيل محمد الهواري	٦٣
قراءات سياسية	الدم المستباح بين المتاجرة والمفاجرة د. خالد أبو الفتوح	٦٨
	نيجيريا والبوصلة أمير سعيد	٧٣
	إفريقيا السمراء والرجل الأبيض - بين ماض أليم ومستقبل مجهول جميل زيد	٨٠
المشهد الأفريقي	إعداد: وائل عبدالغني	٨٨
قراءات ثقافية	اللغة العربية في إفريقيا الواقع و التطلعات د. أبو بكر شعيب	٩٥
خلاصات أفريقية	نشاط إيران في شرق إفريقيا (بوابة الشرق الأوسط والقارة الإفرقية) ترجمة قراءات	١٠٤

أسعار البيع:
أفريقيا: ١.٥ $ - أوروبا ودول الخليج: ١٠ ريال سعودي أو ما يعادلها
أسعار الاشتراك السنوي:
أفريقيا: ٨ $ - أوروبا ودول الخليج: ١٥ $ - المؤسسات الحكومية: ٢٥ $

لماذا الاهتمام بإفريقيا؟

عندما نتحدث عن إفريقيا يتبادر إلى الذهن مباشرة قصة المؤتمر الإفريقي- الآسيوي في الخمسينيات من القرن الماضي، وذلك حين اجتمع أكثر زعماء القارتين في «باندونغ» بغرض إيجاد تكتل كبير اقتصادي وسياسي بموازاة التكتل الغربي، ولكن المؤتمر لم يُعقد إلا مرة واحدة، وكان نصيبه الإخفاق لأنه لم يكن مبنياً على انسجام سياسي أو فكري، كانت كثير من دول إفريقيا قد استقلت حديثاً، وهو في الحقيقة لم يكن استقلالاً تاماً، لأن الذين جاؤوا بعد مرحلة الاستعمار لم يكونوا على قدر من المسؤولية في تنمية البلاد وعمارتها، وربما كان بعضهم أسوأ من الاستعمار، وكانت موجة اليسارية والاشتراكية قد طغت في الستينيات، وقد أخفقت كلها أيضاً في إدارة البلاد، وهكذا خرجت إفريقيا منهكة من الاستعمار وما بعد الاستعمار، ومن أوضح الأمثلة على ذلك التطهير العرقي الذي وقع في «رواندا» ، والتمزق القبلي الذي أنهك الصومال.

ولذلك فإنه ليس غريباً أن يزداد الاهتمام بهذه القارة من قبل المؤسسات الاجتماعية الخيرية ومن العلماء والدعاة المسلمين، والإسلام في إفريقيا ليس طارئاً أو جديداً (ولا نتكلم عن الدول العربية في الشمال الإفريقي)، فالإسلام دخل القرن الإفريقي منذ زمن البعثة النبوية، وهو منتشر في أكثر دول إفريقيا، وبعضها يشكل المسلمون فيها النسبة الغالبة.

ربما لا يعرف بعض الناس أنه قبل مجيء الاستعمار الغربي كانت هناك ممالك إسلامية في إفريقيا، ففي غرب إفريقيا كانت هناك مملكة (مالي) ومملكة (سنغي)، وفي المنطقة الوسطى مملكة (كانم) ثم (برنو)، وظهرت مراكز للثقافة الإسلامية نافست مراكز الدول الإسلامية في الشمال، أشهرها «تنبكت» التي ذاع صيتها وكثرت مدارسها وتخرج منها علماء من أمثال أحمد بابا التنبكتي، وتجري الآن محاولات لحفظ مخطوطات مكتوبة باللغة العربية، وتقوم حكومة جنوب إفريقيا بتمويل

المكتبة في «تمبكتو» لجمع ما يقرب من ثلاثين ألف كتاب لترميمها وحفظها.

وربما لا يعرف كثير من الناس حركة الشيخ عثمان بن فودي وتأسيس دولة إسلامية في شمال نيجيريا، أو حركة الشيخ عمر بن سعيد طال الفوتي في غرب إفريقيا، ثم جاء الفرنسيون والأوروبيون وقضوا على هذه الممالك الإسلامية في القرن التاسع عشر الميلادي.

ومع ذلك فإن انتشار الإسلام استمر بقوة، كما في أوغندا وليبيريا، وفي رواندا التي لم يكن المسلمون يمثلون أكثر من ٧٪، وهم اليوم زهاء ١٤٪، وذلك بعد الاضطرابات العرقية وعمليات الإغاثة التي قامت بها المنظمات الخيرية الإسلامية، وخصوصاً بعد أن تورطت الكنيسة هناك في المذابح العرقية، حتى إن بعض «التوتسي» الذين لجؤوا إلى الكنيسة رأوا من يصلي معهم فيها يفتك بهم لمجرد انتمائهم إلى عرق آخر.

إن إفريقيا مستهدفة في السنوات الأخيرة، وهي ضمن التنافس الأمريكي الفرنسي، فالبترول والماس وغيره من المعادن يثير شهية الشركات الكبرى، وهذا غير الأهداف الاستراتيجية السياسية.

والذي يفكر على أساس استراتيجي يعي أهمية إفريقيا والقرن الإفريقي خاصة، وهذا ما يقوم به الغربيون، ولكن الذي لا يفكر بهذه الطريقة فسيقول - وقد قيل -: ما الفائدة من هذه القارة؟ ولماذا تُستثمر أموالنا فيها وليس هناك اطمئنان عليها والأوضاع فيها غير مستقرة؟

أما صاحب النظرة الاستراتيجية الواسعة فإنه يعلم أهمية (السودان) مثلاً بوصفه بلداً كبيراً يمثل مدخلاً إلى إفريقيا كلها، ويعلم كذلك مدى أهمية القرن الإفريقي (إسلامياً).

إن من أعظم الأعمال التي يمكن أن تقوم بها الجمعيات الدعوية والخيرية وأكثرها فائدة هي التي تهتم بالتعليم، وبخاصة التعليم الديني الذي يخرّج أناساً يملكون ثقافة شرعية تؤهلهم لقيادة المجتمع، والاختلاط بالناس، وتعليمهم أمور دينهم وأمور دنياهم أيضاً، وكيف يكون المسلمون أعزاء أقوياء، ومما يؤكد أهمية هذا التعليم الديني أن غالب مسلمي القارة بسببه هم من أهل السنّة، ولم تستطع المذاهب الأخرى كالخوارج (سابقاً) والشيعة (حاضراً) التمدد والانتشار على الرغم من الجهود المكثفة التي يقوم بها الشيعة في هذه الأيام.

إن التمزق القبلي والنزاعات تأكل الأخضر واليابس في الصومال، وفي دولة كبيرة مثل نيجيريا على الرغم من كثرة سكانها واتساع أرضها ووفرة خيراتها؛ فإنها ما تزال تتخبط في الصراعات بين الشمال والجنوب، ولو كان للمسلمين في الشمال قيادة موحدة تطالب بحقوق المسلمين ويكون لهم نصيب في الحكم بنسبة عددهم؛ لما ستطاع أهل الجنوب أن يكون لهم هذه الهيمنة على البلاد وبخاصة الاقتصاد.

المسلمون هناك، وفي إفريقيا عامة، بحاجة شديدة إلى الوعي بدينهم وواقعهم، وتقوية مجتمعاتهم، ومعرفة واجباتهم، وأن يمتلك قادة الرأي وقادة العلم فيهم القدرة على الاتحاد، وتفعيل التجارب المشتركة، وترسيخ علاقات المودة، والتخطيط لطموحات المستقبل.

آراء الشّيخ إبراهيم إنياس السّنغالي في الميزان

د. محمّد الثّاني عُمر موسى*

إنّ الحمد لله نحمَدُه ونَستعينه ونَستغفره، ونَعوذ بالله من شُرور أَنْفُسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يَهده الله ، فلا مُضِلَّ لـه ، ومُن يُضلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمّداً عبدُه ورسولُه . أمّا بعد :

فلا جَرم أنّ النّاظر في تاريخ البلاد الإفريقية الشماليّة والغربيّة يُدرك بوضوح مَدى تأثير الطّرق الصوفيّة فيها، وكيف ضربت بجذروها في حياة المسلمين هناك، مما حدا ببعض المؤرّخين إلى تصوير الإسلام الذي دخل هذه البلاد إنّما هي الطّرق الصّوفيّة ذاتُها قدَّمها أصحابها إلى أهل البلاد على أنّها هي الإسلام الّذي جاء به محمّد ﷺ ، فقد كان المسلمون في تلك البلاد في حقبة من تاريخهم لا يكادُون يميِّزون بين الإسلام الصّحيح وبين تلك الطّرق الصوفيّة، كما أنّ كثيراً من المنتمين إلى هذه الطّرق لا يفقهون كثيراً مما تنطوي عليه من دَفين فكرٍ هجين، وعقائدَ خبيثة مستَكْرَهة، بل كلّ ما يُدركه أحدُهم عنها أنّها وسيلةٌ للتّقرب إلى الله تعالى بالذّكر، والاستغفار، والصّلاة على النّبي ﷺ ، ومحبَّة الأولياء...[1]

إن أكثر الطّرق الصّوفيّة انتشاراً الطّريقة التّجانيّة، التّي أسسها أحمد التجاني الجزائري (ت١٢٣٠هـ).

والمتحدِّثون عن هذه الطّريقة في العصر الحديث، وعن رُموزها الّذين ساعدوا على ازدياد انتشارها في إفريقيا لا بُدّ لهم من وضع الشّيخ إبراهيم إنياس السّنغاليّ على رأس القائمة، فالرّجل سَعَى سعياً حثيثاً في إرسَاء دعائم هذه الطَّريقة ونشرِ أفكارِهَا بَين المسلمين في هذه القَارة.

وتُعدّ نيجيريا الشّماليّة من أكثر المناطق تقَبّلاً لآرائه، وعملاً على نَشرها، كما أنّ ولاية كانو تُعدّ مركزاً رئيساً لنشر دعوته إلى سائر الولايات النّيجيريّة، بل إلى بعض الدّول المجاورة، مثل دولة نيجر، وغانا .

قد استطاع إنياس أن يَكسب ثقةَ مشايخ الطّريقة الصّوفيّة في نيجيريا، حَتّى سلّموا له زمامَ قيادتهم، واعتبروه قُطباً كبيراً من أقطاب الصّوفيّة، بحيث أصبحوا يرون القُرب منه مكانةً عظيمةً ومنزلةً رفيعةً، كما قَبلوا منه ادّعاءَه بأنّه صاحبُ الفيضة التّجانيّة ، الّتي بشرّ بها أحمد التّجاني أصحابَه.

*) مدير مركز الإمام البخاري للأبحاث والترجمة / كانو - نيجيريا.

١) انظر :((جذب الأحباب)) لإنياس (ص١٨-٢٠).

والزّائر لمدن الولايات الشّمالية شاهدٌ على تأثير هذا الرّجل حيث صورهَ معلّقة على أبواب بُيوتهم ومحالِّ تجاراتهم ، وعلى مراكبهم، وفي غُرف نومهم، معتقدين أنّها سببٌ جالبٌ للحظّ، ودافعٌ للمكروه، وربما يصل تقديس بعضهم له أحياناً درجة التّأليه.

إن ما تقدم ذكره وغيره مما لم يذكر يؤكّد إبراز حقيقة هذا الرَّجل للمسلمين، وإظهار ما في كتبه من الأكاذيب والأباطيل باتَ أمراً ضروريًّا وواجباً دينياً على العلماء والدّعاة والباحثين.

من المحاولات الناجحة للوفاء ببعض هذا الدّين ما قام به الدّكتور محمّد الطّاهر ميغري البرناويّ (ت١٩٩٥م) رحمه الله الذي كان محاضِراً في قسم الدّراسات الإسلاميّة، بجامعة بايرو، كانو، في رسالته العلميّة لنيل درجة الماجستير بعنوان :((الشّيخ إبراهيم إنياس السنغالي حياته وآراؤه وتعاليمه))، في عام ١٩٧٩م/١٣٩٩هـ، أي بعد وفاة الشّيخ إنياس بأربع سنين، وطُبعت في عام ١٩٨١م/١٤٠١هـ. وقد بذل فيها جُهداً مُضنياً إظهار هذا الرَّجل على حقيقته، وسافر إلى عديدٍ من الدّول الإفريقيّة لمقابلة من لهم صلةٌ بالرّجل، والوقوف على كثيرٍ من كتاباته وكتابات تلاميذه، فجاءت دراسته مرجعاً أصيلاً لدّراسة الرّجل وأفكاره.

■ ترجمة الشيخ إبراهيم إنياس[١]

ولادته:

ولد الشّيخ إبراهيم إنياس في قرية طيبة أنيسين بإقليم سين سالوم في جمهورية السّنغال في ١٧ أكتوبر ١٩٠٠م من أبٍ وأمٍّ سنغاليَّيْن[٢].

والدُه : هو الشّيخ عبد الله إنياس بن محمّد بن مدمب بن بكر بن محمّدالأمين. وهو أحد مشايخ التّجانيّة المشهورين[٣].

■ صلتُه الأولى بالطّريقة التّجانيّة:

كانت نشأةُ الشّيخ إنياس الأولى في حِجر والده الشّيخ عبد الله، قرأ عليه القرآن، ودرس عليه، وأخذ عنه الطّريقة التجانية[٤].

وكان والده يقوم بالتّدريس، بالإضافة إلى كونه أحدَ علماء الصّوفية الكبار ببلده، فصار بيتُ الشّيخ إبراهيم إنياس محطاً لرِجال الشَّناقطة الّذين كانُوا يَقومون بنشاطهم الدّائم في نشر الطّريقة التّجانيّة، وبثّ تعاليمها بجانب العلوم الصّوفيّة الأخرى، فوجد الشّيخ إبراهيم إنياس نفسَه بين هذا الوسط الصّوفيّ الّذي كان له أثرٌ أيَّما أثرٍ في تكوين ثقافته العلميّة والعقديّة[٥].

وقد أجازه علماءُ الصوفيّة من الموريتانيّين وغيرهم، بعد وفاة أبيه، منهم محمّد محمود الشّنقيطي الذي أجاز له إجازةً مطلقةً، ومَنَحه شُمولَ التّصرّف في أوراد الطّريقة التّجانيّة، وذلك بوصيَّةٍ من والده[٦]. ثُمّ قدّم له شيخُه عبدُ الله بن الحاج العلويّ الموريتاني إجازةً مطلقَةً أخرى حَوَّلتْه من مجرَّد كونه مقدَّماً لتلقين أوراد الطّريقة التّجانيّة إلى شيخ مُرشدٍ كاملِ الإذن، مما جعله يعتبر نفسَه كاملَ العصر، وأنّه خليفةُ الشّيخ التجاني الوارث لأسراره[٧]. ثُمّ ادّعى رؤيةَ الشّيخ أحمد التجاني مؤسّس الطّريقة التّجانية مراراً، في

١) الدّكتور / طاهر ميغري في ترجمةٍ مسهبةٍ بعنوان:((الشّيخ إبراهيم إنياس السّنغاليحياته وآراؤه وتعاليمه)).

٢) انظر :((أصل الفيضة)) لسيّد حمل الزكزكي (ص٩)، و((الشيخ إبراهيم إنياس)) للدكتور طاهر مغيري (ص٧٨)، و TakaitaccenTarihin Sheikh (ص٦).

٣) انظر : تصدير كتاب((كاشف الإلباس)) للشيخ علي سيس (ص١٨)

٤) انظر : تصدير((كاشف الإلباس)) (ص١٠)، و((أصل الفيضة التجانية)) (ص٤٢-٤٣)، و((الشيخ إبراهيم إنياس)) (ص٧٩).

٥) انظر :((الشيخ إبراهيم إنياس)) للدكتور ميغري (ص٧٩).

٦) ((كاشف الإلباس)) (ص١٥٨-١٥٩)، و((الشيخ إبراهيم إنياس)) (ص٨١).

٧) انظر :((كاشف الإلباس)) (ص١٥٩-١٦٠) . و((الشيخ إبراهيم إنياس)) (ص٨٢).

المنام كاليقظة، وتكرّرت له أيضاً رؤيةُ والده، وهو يقول له :((كلّ ما تركتُ فهو لك، فخذْه من غيرك)) [1].

■ الفيضة التّجانيّة والشّيخ إبراهيم إنياس:

ذكر مؤسِّس الطّريقة التِّجانيّة بأنّه :((ستأتي الفيضةَ في آخر الزّمان على يد أصحابنا والنّاس حينئذٍ في غاية الضِّيق، ويدخلون الطَّريقةَ أفواجاً)) [2].

وبَيَّن الشّيخ إبراهيم إنياس معنىَ الفيضة نقلاً عن صاحب ((الإفادة الأحمديّة)) فقال: ((وكان يعني بالفيضة: أن يَكثر الفتح على أصحابه)) [3].

ويقول عن نفسه:((قال لي الشّيخ الهمام، والعارف الإمام السّيد عبد الله بن بالحاج العلوي: تأتي الفيضةُ على يَدك حقيقةً لا مجازاً، وترى من الحسد مالم يَرَ أحدٌ قبلك، وقال لي: أنت كبير الطّريقة التجانيّة في زمنك. وأشياءَ كَلَّ قلمي عن كَتْبها حياءً)) [4].

ولقد كان تتابُعُ إجازات مشايخ الصّوفيّة بسلاسلهم الصّوفيّة، وأسرار الطّريقة التّجانية للشّيخ إبراهيم إنياس سبباً مهمًّا في ازدياد ظهوره يوماً بعد يوم، وانتشار ذكره في الآفاق، وقصده المتصوّفة من أقطار الأرض، حتى جاء عام ١٣٤٨هـ فأعلن فيه أنّه صاحب الفيضة التّجانية الّتي بشّر بها الشّيخ التجاني مؤسِّس التجانية، وهذه السنة هي السنة المعونة عندهم بـ:«عام الفيضة» .

وما كادت سنة ١٣٥٠هـ تنسلخ حَتّى استقرّ أمرُه استقراراً يكاد يكون تاماً، وامتدَّ نفوذُه إلى خارج السِّنغال، فأصبحت له مراكز في إفريقيا الغربيّة، وموريتانيا ، بل وحتى في المغرب الأقصى المهد الأوّل للطريقة التجانية، وصار الانتساب إليه يُعد فخراً عظيماً، والمريدون في كلّ قُطر صاروا يتزاحمون على باب منزله، يتبرّكون برؤيته، وسماع كلامه))[5].

وبعض هؤلاء الأتباع الّذين انضمّوا إليه وجدوا في الانتساب إليه والتمسك بتعاليمه ما يُعفيهم عن القيام بواجبات الدّين. ، فبدأت نتائجُ دعوته تَظهر بعوراتها، وقام بعض أولئك بدعوى المشيَخة، والانهماك في الشّهوات والملذّات والتشدّق بكلام أهل التّصوف الباطني المناقض لشرع الله، اعتماداً على تمسكهم بالفيضة التّجانية الّتي تضمن لهم الجنَّة بلا حِسابٍ ولا عقاب.

وعلى الرّغم مِما قام به الشّيخ إنياس من العمل لتخفيف بعض غُلوائهم والنّهي عنها إلاّ أنّ الدّعوة نفسَها والعقيدةَ ذاتَها ((تحمل في طيّاتها جذوراً وبذوراً لهذا السّلوك الفاسد، والتّصرفات الزّائفة التي تصدر من بعض الأتباع؛ لأن الذي لم يكن للدّين والمروءة وقعٌ في قلبه إذا فَهم أنّه بمجرّد كونه تجانياً ومن أهل الفيضة أفضلُ من أقطاب أولياء أمّة محمّد ﷺ كلّهم أجمعين، وأنّه قد وقع في دائرة تُسمّى بالدّائرة الفضلية الّتي تقع وراء دائرة الأمر والنّهي والجزاء، وهو ناجٍ على كلّ حال[6]، وأن النبي ﷺ قد ضمن للشّيخ التجاني أنّ حقوق الناس التي كانت على كواهل أهل طريقته سوف يتولّى الله تعالى قضاءها عنهم يوم القيامة من فضله لا من حسناتهم، وأن الله قد رفع عنهم الحساب، وأنهم آمنون من عذابه من حين موتهم إلى أن يدخلوا الجنّة بغير حساب ولا عقاب في الزمرة الأولى، وفي عليّين بجوار النّبي ﷺ، وهكذا، لا يتورّع عن

١) انظر :((كاشف الإلباس)) (ص١٥٩).
٢) ((كاشف الإلباس)) (ص٨٦).
٣) ((المصدر نفسه)) (في الموضع السابق).
٤) ((كاشف الإلباس)) (ص٩٢-٩٣).
٥) ((الشيخ إبراهيم إنياس)) (ص٨٧).
٦) انظر :((السر الأكبر)) (ص٤١٤-٤١٥).

اقتحـــام كلّ ما تملكه قوته مـــن الأعمال التي يشبع بها رغباته وشـــهواته وأهواءه وبالتالي لا يرى أيّ حاجة في إتعاب نفســـه بكثرة العبادة والمجاهـــدات والتحرج على نفســـه بكفّها عن المحرّمات، وهلم جرا))[1].

■ الشّيخ إبراهيم إنياس وداء العَظَمة :

كلّ من قرأ في دواوين قصائد الشّيخ إبراهيم إنيـــاس وما تركه من نَظم فيه دَلالةٌ واضحةٌ على إصابته بما يُســـمّى بـ(داء العَظمـــة)؛ فقد كان الرّجل طامعاً في السيادة والعلو في الأرض ، فلذا هو في غالب ابتهالاته وتوسّلاتّه البدعيّة لا يكاد يُنهي قصيدةً إلاّ وضمَّنها طلباً أن يَهبه الله مقاماً يفوق به أقرانَه ويســـود به الملوك ، وأن يظهره على أعدائـــه، ويمكّنه من الانتقام منهم، والرّجل بهذا الطّموح السّافر، وهذا الحرص الشّديد على السّيادة والعُلوّ في الأرض، لا يُستغرب منه أن يلجَ كلَّ بابٍ ويرتكب أيّ جُرم في سبيل تحقيق مآربه، والوُصـــول إلى مطامعـــه، إذا كان الأمرُ يتطلّب ذلك؛ إذ من يكون بهـــذه الصّفة لا يكون صادقاً مـــع الله تعالى، كما قال إبراهيمُ بنُ أدهم : ((مَا صَدَقَ اللهَ عَبْدٌ أحبَّ الشهرة))[2].

■ الشّيخ إبراهيم إنياس في نيجيريا ونشر فكرة «الفيضة» بين مشايخ التّجانية :

حجّ الشّيخ إبراهيم إنياس في عام ١٩٣٧م، وأتاحـــت لـــه رحلتُه هـــذه اللّقـــاءَ بجمع من مشـــايخ الصّوفيّة وغيرهم، ففيها التَقَى بأمير (كانـــو) الحاج عبد الله بايرو والحاج ســـليمان بن إســـماعيل، وغلاديما، وجددَّ لهما الطّريقة التّجانيّـــة، وقدَّمَهُمَا، وذلك في المدينة النّبويّة، ومن هناك رافقه أميرُ (كانو) إلى مكّة ، وطافوا معاً بالبيت العتيق.

وفي هذه الأثناء قدَّم إليه أميرُ (كانو) دعوةً لزيارة نيجيريا، وبالتّحديد إمارة (كانو)، فكانت زيارتُه الأولى إلى نيجيريا في عام ١٩٣٧م ، ولم يكن يعرف في (كانو) يومئذٍ إلاّ الأمير ومن كان معه عندما التقيا في الحج.[3].

وقد ســـكن في بيت ضيافة أمير (كسينا) لمدّة ســـتّة أيّام، ولم يَظهـــر للجماهير، ولكن التقـــى بطبقة من العلماء والتّجّار، وقدَّم الأمير نَفْسَـــه، وكافَّةَ أهـــلِ بيته، وكثيراً من شـــيوخ الطّريقة التجانية[4].

وقد اصطحب معه في هـــذه الرّحلة كتابَه (كاشف الإلباس عن فيضة الختم أبي العبّاس)، وهو الكتاب الّذي بَيَّـــن فيه فكرةَ الفيضة الّتي ادّعاها ، ووزّع خمس نُســـخ على بعض مشايخ الصّوفيّـــة الكنوييـــن، وقرأ بعضُهـــم ما صُدِّر الكتابُ به مـــن ترجمة الشّـــيخ إنياس، فأخذ بمجامع قلوبهم[5].

ثم عاد إلى (كانو) في عـــام ١٩٤٤م ليقابل أمير (كانو) مقابلةً وجيزةً وغيرَ مُعلَنة، وناقشـــا معاً مستَقبلَ العلاقات الرّوحية بَين كانو وكولخ[6].

وفـــي عام ١٩٥١م نزل الشّـــيخ أيضاً بكانو في طريقه إلى مكّـــة المكرّمة، وهذه هي أولى المرّات الّتي ظهر فيها إنياس للجماهير، ولقى قبولاً جماهرياً نتيجةَ مـــا كان قد حصل عليه من القبول سابقاً في أوساط مشايخ التجانيّة، ومنـــذ ذلك الحيـــن ازداد نشـــاطُه الدّيني في نيجيريا بصفة خاصّةٍ وفي غرب أفريقيا بصفة عامّة، وعَمِل فـــي توحيد صفّ زعماء الطّريقة التّجانيّة[7].

١) انظر : ((الشيخ إبراهيم إنياس السنغالي)) (ص٩٣).
٢) ((التاريخ الكبير)) (٣٦٣/٤).
٣) انظر :((الرّحلة الحجازيّة الأولى)) (ص٣٥). و «Religion and Political Culture in Kano»(ص٦٩، ٩٨-٩٩) . و((الشيخ إبراهيم إنياس)) (ص١١١-١١٢).
٤) انظر : «Religion and Political Culture in Kano»(ص٩٨-٩٩).
٥) انظر :((نيل الأماني)) للشيخ محمد ثاني الكافنغي (ص٣٢).
٦) انظر : «Religion and Political Culture in Kano»(ص١٠٦).
٧) انظر :((المصدر السابق)) (ص١٠٩).

وزار كانو في عام ١٩٥٢م، وفي عام ١٩٥٣م ، ولم تكَدْ سنةُ ١٩٥٣م تَأتي على نهايتها حَتّى استقرَّت البنية التحتيّة لقيادة الطّريقة التّجانيّة في كانو خصوصاً، وفي شمال نيجيريا عموماً، وبعد تَولِّي الأمير محمّد سنوسي إمارةَ كانو ازدادَ نفوذُ هذه الطريقة في إمارته[١].

وبعد اغتيال أحمد بللو سَرْدَوْنا رئيس وزراء الإقليم الشمالي لنيجيريا وَجَد الشَّيخ إبراهيمُ إنياس أمامَه فُرصةً سانحةً للعودة إلى نيجيريا للمرة الأخرى بعد أن كان ممنوعا من دخولها من قِبَل سَرْدَوْنا، ثُمّ تردَّد إليها مرّات بعد ذلك[٢].

وقد سارع مشايخُ الصّوفيّة في نيجيريا إلى تقبّل الشّيخ إنياس، واعتباره قائداً روحياً لهم،

وقد لَقيت دعوةُ الشّيخ إبراهيم إنياس– مع هذا النجاح –اعتراضاً قويًّا وإنكاراً شديداً داخلَ السِّنغال وخارجَه.

وأمّا في نيجيريا فلم يتصدَّ له بالإنكار مثل الشّيخ أبي بكر محمود جومي رئيس قضاة شمال نيجيريا آنذاك؛ فإنّه كان يصرّح في أكثر من مجلس من مجالسه، بأنّ الشيخ إنياس لم يأت إلى نيجيريا حاملاً معه النّفاق فحسب، بل جاء إليها حاملاً معه الكفر والإلحاد، في إشارة منه إلى (بدعة التّربية) الّتي أشاعها بين الطُّرُقِيِّين وبخاصَّة التجانيِّين، وأنّ من دخل فيها فقد نجح في الوصول إلى المقصود الّذي هو اعتقاد وحدة الوجود[٣].

ففي زيارة للدّكتور طاهر ميغري رحمه الله تعالى إلى الشَّيخ أبي بكر محمود جومي في كدونا يوم السّبت ١٩٧٨/٦/٢٧م استفسره عن رأيه في الشّيخ إبراهيم إنياس فأجابه بقوله:

((رأيي فيه أنه لم يدخل نيجيريا بنفاقٍ أبداً، وإنما دخلها بكفرٍ صريح مكشوف يُنادي به علناً وعلى رؤوس الأشهاد))، وقال له: ((ومِن عادتي أن أتّصل بكلّ من بلغني أنّه عالم لأستفيد منه ، وهذا هو سبب اتصالي بالشيخ إبراهيم، وعندما تبيّن لي أنّه كافر تبرأتُ منه، وابتعدت عنه))[٤].

ثم قال الشّيخ د. ميغري[٥]:((ما هو رأيك في قول الشّيخ إبراهيم : «إنّ الله تعالى قد ساق الوجود بأسره مسَاقَ الهلاك في هذا الزّمان ، فلا ينجو منه أحدٌ إلاّ من رَزقه الله محبّة الشّيخ التّجاني»؟[٦].

فقال:((إنّه يريد بذلك أن يقول: ومن يَبتغ غير التّجانيّة ديناً فلن يُقبَل منه وهو الآخرة من الخاسرين)).

■ مؤلّفات الشّيخ إبراهيم إنياس:

وللشّيخ كُتَيّبات ورسائلُ كثيرةٌ، فمن مؤلّفاته المطبوعة :

١ – كاشف الإلباس عن فيضة الختم أبي العبّاس.

٢ – البيان والتّبيين عن التّجانية والتّجانيّين.

٣ – نجوم الهدى في كون نبيّنا أفضلَ من دعا إلى الله وهدى.

٤ – تنبيه الأذكياء في كون الشّيخ التّجاني خاتم الأولياء.

٥ – الحجة البالغة في كون إذاعة القرآن سائغة.

٦ – السّر الأكبر والنّور الأبهر.

٧ – الدّواوين الستّ (نزهة الأسماع والأفكار في مديح الأمين ومعاني المختار)، و(إكسير السّعادات في مدح سيد السّادات)،

١) انظر :((االمصدر السابق)) (ص١١١).
٢) انظر :((المصدر السابق)) (ص٢٠٥).
٣) سوف يأتي الحديث عنها بالتفصيل.
٤) ((الشيخ إبراهيم إنياس)) (ص٢٣٨).
٥) ((الشيخ إبراهيم إنياس)) (ص٢٣٩).
٦) ((جواهر الرسائل)) (١٦/١).

و(سلوة الشّجون في مدح النّبي المأمون ﷺ)، و(أوثقُ العرى في مدح سيّد الورى)، و(شفاء الأسقام في مدح خير الأنام)، و(مناسك أهل الوداد في مدح خير العباد ﷺ).

٨ – ديوانه المسمَّى (الكبريت الأحمر في التّوسل بأوائل السّور وبحروف الآيات الغرر).

٩ – الفَيض الأحمدي في المولد المحمَّدي.

١٠ – تبصرة الأنام في أنَّ العلمَ هو الإمام.

وللشّيخ إبراهيم إنياس رسائل كثيرةٌ تبلغ قرابة خمسٍ وسبعين رسالةً، إلاّ أنّ هذه الكثرة لا تعني شيئاً ذا قيمةٍ إذا عرفتَ أنّ غالب تلك المؤلفات إنما هي((عبارة عن كراريس وكتيبات لا تتناول في الغالب إلاّ موضوعات تمسّ الطّريقة التّجانية، والدّعوة إليها، أو منشورات عامّة موجَّهة إلى الأتباع لغرضٍ أوآخر، أو لشرحِ وجهةِ النّظر التجانيّة في بعضِ المسائل، وقلَّما تجده يتناول موضوعاً علميًّا صِرفاً في مؤلّفاته كما فعل غيره من المشايخ))[١].

والمطالع في كُتُب الرّجل يجده مُلمًّا بالطّريقة التّجانية وأدبياتها، وفقيراً في العلوم الشرعيّة وأدواتها، من حديثٍ وفقهٍ وتفسيرٍ، وأصولها؛ فكتبه مليئةٌ بأحاديثَ واهيةٍ موضوعةٍ يعرفها أهل العلم بالحديث وطلاّبه، وقليلٌ من الرّسائل الّتي ألّفها في موضوعاتٍ فقهيةٍ تجدها جدَّ هزيلةٍ لا تحمل من العلم كبيرَ شيءٍ.

■ وفاتُه :

تُوفي الشّيخ إبراهيم نياس يومَ الأحد ٢٧ يوليو ١٩٧٥م في لُندن المملكة المتّحدة، وقبل أن يُنقل إلى هناك، قَضى ثلاثة أشهر أو يزيد في باريس للعلاج أيضاً، ودُفِن وراءَ مسجده حسب ما أمر به في وصيّته[٢].

■ آراءُ الشّيخ إنياس في ميزانِ الشَّريعة

الشّيخ إنياس وعقيدة وحدة الوجود:

عقيدة وحدة الوجود عقيدة ترجع إلى الفلسفات القديمة اليونانية والهنديّة، وعقائد الفِرق الباطنيّة، وتزعَّمها بين المسلمين حُفنةٌ من الملاحدة كالحلاّج، وابن عربي، والجلال الرّومي، وابن الفارض، وابن سَبعين، والقُونَوي، إلى عبد الكريم الجيلي.

وهي عَقيدة تَقوم على أساس أنّ وجود المخلوق هو عين وُجود الخالق، وأنّ كلّ المخلوقات إنما هي تجليّات إلهيّة، وبمعنىً أكثر وضوحاً: أنّ كلَّ شيءٍ موجودٍ هو الله تعالى الله عمّا يقول الظّالمون عُلواً كبيراً.

وظهرت هذه العقيدة في أوائل القرن الثّاني عشر الميلادي، وشاع أمرُها في بلاد الأندلس والمشرق، بعد أن اختلطت فيها أفكار التّصوّف بالفلسفة اختلاطاً كبيراً.

فالطّريقة التّجانية فرقةٌ صوفية باطنية، تؤمن بتعاليم الفرق الباطنيّة، ومؤسِّسُها الشيخ أحمد التجاني، كان مؤمناً بنظرية وحدة الوجود، ورسخّها في أتباعه، كما هو مبثوثٌ في أعظم معلَمةٍ لتعاليمه وهو كتابُ (جواهر المعاني)، بَل كان هو نفسُه حسب ما يقول إنياس مادحاً:((والشّيخ التّجاني مجذوبٌ فانٍ فناءً لا يَرى أشياءَه شيئًا، حتى إنّه هو أول من عَبّر بنفي الغَيريّة، وكانت الأولياء تعبِّر بالغير))[٣].

ولهذا كان الشيخ إبراهيم إنياس – الّذي يرى نفسَه مجدِّدا في الطّريقة – واحداً من الدّاعين بحماسٍ إلى هذه العقيدة الباطلة،

١) ((الشيخ إبراهيم إنياس)) (ص٣١٦-٣١٧).

٢) ((الشيخ إبراهيم إنياس)) (ص٣٤٤).

٣) ((مجموعة ثلاث مجالس سنية))مجلس مدينة كولخ لإبراهيم إنياس (ص٤٦).

وقد سَعى بكلِّ قوَّةٍ إلى تقريرها في رسائله وقصائده، ونشْرها بين أتباعه وتربيتهم عليها، ففي رسائله من النّصوص المقرِّرة لهذه العقيدة شيءٌ كثير جداً، ويكفي أن ننقل لك منها ما يكفي لإثبات دعوته إليها:

١ - قال في كتابه :((السر الأكبر والنور الأبهر))[١] :

((والجذْبُ هو الوصول والفناء، والفتح، تحقيقُه : أنّ الحقَّ جلَّ وعلا ما حَجبه عن المريد وجودُ موجودٍ معه تعالى عن ذلك عُلواً كبيراً بل ما حَجبه إلاّ توهّم وجودِ موجودٍ معه، فإذا أراد الله اصطفاء عَبده جعلنا الله من المصطفين الأخيار بمنّه وكرمه آمين رَفع عنه ذلك التّوهُّمَ، فلا يرى شيئاً يحجبه عن الحقِّ ، بل لا يرى شيئاً، وذلك فناءٌ في محوٍ ، قال تعالى : ﴿ يَمْحُو الله ما يَشاءُ ويُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أمّ الكِتَاب﴾، فحينئذٍ يأتيه صريحُ الحقّ، فلا يرى وجوداً إلاّ الله، ولا يرى نفسَه، ولا سواه، ولا يَرى فناءَه ، بل لا يَرى إلاّ هو الله أحد، ويرى أن لاَ كَوْنَ ، ولا أثَر، وَلا فعْلَ ، ولا اسْمَ ، ولا صفةَ، فهو أكمل حجابٍ عن وُجود موجودٍ سوى وجود الحقّ ، وفي هذا المقام يقول : أنا الله لا إله إلا أنا وحدي، بل لا إله إلا الله، وهو من غير حُلول ولا اتّحاد، ولا شيءَ من صفات الحوادث)).

٢ - ويقول في كتابه((كاشف الإلباس))[٢]وهو يتكلّم على رؤية الباري:

((وهذه الرّؤية الّتي تَنازع العلماءُ فيها في إمكانها وعدم إمكانها ليست هي الرّؤية التي يدّعيها أهلُ الفناء في ذات الحقّ جل وعلا، فإن رؤيتهم ليست بالبصر ولابالقلب، بل بعَين الحقِّ جل وعلا، وهذه الْعين تَرى من حَيث لا رؤيةَ ولا راء)).

يعني بهذا : أنّ رؤيةَ أهل الفناء ليست رؤيةً بعين بشريَّة، بل هي رؤية بعين إلهيّة، إذ الرّائي هو عين الله، وأما الرّائي البشري فلا وجود له، ولا وجود لرؤيته. سبحانك هذا بهتان عظيم.

واختتم حديثَه بوصف هذه العقيدة بأنها (التّوحيد الخاص) وأنّ منكرِها في ضلالٍ بعيد، فقال :((وغير ذلك من عبارات القوم التي مَدَدُها تيّار بحر التّوحيد الخاصّ، قال بعضهم :

عِباراتُنا شتّى ومعناك واحدٌ
وكلٌّ إلى ذاك الكمال يُشير

فمن كان فيه شيءٌ من قابليّة العلم يَعلم بالوقوف على ما سطّرنا أنّ كلام المجاذيب مبني على أساس مَتين، وكلٌّ عند ذي العرش مكين، ومعبِّرٌ عن نور قلب مبين، فالمنكر عليهم في ضلالٍ بعيد، وهو محروم)).

٣ - وقال أيضاً :((بَل رُبَّما يكون ربُ العالمين في صِفة رَجُل))[٣].

٤ - ويمدح شيخه أحمد التّجاني ويَصفه بأنّه مظهر ربّه، وأنّه عينه، فَله من مَقام مالم تصل إليه رُسل الله[٤]:

فإنّ الشّيخَ مظهرُ ذات ربِّي
وعينُ العَين عينُ أبي العبّاس
يَغوصُ ودون ذاكَ الْبحر رُسلٌ
وقوفاً إرثَ إرسٍ مثل آس

ومن العجيب أنّ الشّيخ إنياس يَعترف بكفر معتنق هذا المعتقد شرعاً، لكنّه يقول إيغالاً في الباطل إنّه هو المؤمن حقيقةً، على مبدأ الباطنيّة في تقسيم الإسلام إلى شريعة وحقيقة، فيقول:((وصاحب هذا المقام كافرٌ شرعاً لنفيه الأسماءَ والصفات وقتله الأنبياء، وهو المؤمن حقيقةً؛ لأنّه أثبتها حقيقةً، وقتلُه الأنبياءَ قتلٌ بالحقّ لا بغير الحقّ))[٥].

١) (ص٤٢٥-٤٢٦) تحقيق/د. ميغري مع دراستِه عن إنياس.
٢) (ص١٥٣-١٥٤).
٣) ((جواهر الرسائل)) (١٠/٢).
٤) ((ديوان تحفة أطايب الأنفاس)) (ص٨٦).
٥) ((المصدر نفسه)) (في الموضع السابق).

ويقول الشّيخ إنياس أيضاً :((إن الحقّ جلّ وعلا ما حجبه عن المريد وجودُ موجودٍ معه تعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل ما حجبه إلاّ توهم وجود معه)).

((معنى ذلك أنّ الله ماحجبه عنّا وجود شيءٍ يحجبه، وإنما حجبه توهّمنا أنّ هناك شيئاً غيرَه تَعالى)).

ولا شكّ أن هذا التقرير هو عين الوهم، بل عين الزّندقة، فمَن من الناس لا يشعر بوجود فرقٍ بينه وبين غيره من المخلوقات، فشعورُ كلِّ إنسان نحو أبَويْه، وأولاده وزوجته يختلف عن شعوره نحو الآخرين حوله، ولا يُساوي بين الشّعورين بدعوى أنّ كلَّ موجود واحد، وأنّ الكلَّ هو الله.

وقد بلغ إيمانُ الشّيخ إنياس بهذه العقيدة إلى حَدِّ اعتبار جبريل عليه السّلام مجازاً لا حقيقة له، وهذه هي النّتيجة الحتميّة لهذا الفكر المنحرف؛ إذْ لا يُتصوّر مع الإيمان به، أن يكون هناك وحيٌ، وهو القرآن، وموحًى إليه، وهو رسول الله ﷺ وواسطةُ الإبلاغ، وهو جبريل عليه السّلام؛ إذ الجميع وجودٌ واحدٌ وهو الله، فكيف صارت الأمور ثلاثةً بعد كونها واحدةً؛ فهذا إشكالٌ واجهَ أحدَ تلاميذه المؤمنين بهذه العقيدة، وهو الحاج محمّد الثّاني بن محمّد الأوّل، قد استشكل الأمر غايةَ الاستشكال فكتب إلى شيخه إنْياس يطلب منه حَلَّ هذا الإشكال، فبدلاً من إنقاذه دفعه إلى مستنقَع آخر أشدَّ تعقيداً على الفهم؛ فصرّح له بأنَّ الأمر مجازٌ لا حقيقةٌ .

ويبدو أنّ الشّيخ إنياس شَعر هو نفسُه بخطورة هذه الفكرة على العقيدة الصّحيحة، فصرّح بأنّ خطرَ هذا المقام عظيم جداً، لأنّه يمسّ العقيدةَ مساً مباشراً وَسَلْبياً ، وفيه يتحوّل المريد إلى يهوديٍّ أو نصرانيٍّ أو مجوسيٍّ، ما لم يوفِّقه الله بوجود شيخ واصلٍ عارفٍ ينتشله من هذه المهاوي[1]، فقالَ:

((وهذا المقام عظيمُ الغرر؛ لأنّ غَرره على العقائد أعظمُ ما لَمّ يلقَ عينَ الرّحمة، ففيه ما يهَوِّد ويُنصِّر ويمجِّس، فلذلك صاحبُه لا يفارق الشَّيخَ العارفَ الكامل))[2].

ومن قبائح فِعالِ الشّيخ إبراهيم إنياس أنه رَبّى أصحابَه وتلاميذَه على هذا المعتقد الخبيث الّذي يُسميه (التّوحيد الخاصّ)، وإن كان ينهاهم عن البَوح به أمامَ من يُسمّيهم بـ(المحجوبين) ويعني بهم من لا يقولون بعقيدة وَحدة الوجود. ومن وصاياهم لأتباعه بذلك قولُه :((وأوصي كلَّ من شمَّ رائحة التّوحيد الخاصّ بإدامة الصّمت، والاعتزال من مجالس الجماعة العوام الّتي لم تجتمع لطاعة الله تعالى، لا سيّما التكلّم في التّوحيد والأسرار أمامَهم، واعلموا أنّ كشف الأسرار الرّبوبية بين المحجوبين أشدّ عند الله من الحرام، ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَة لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب:٣١].

فانظر رعاك الله كيف يحثّ أتباعَه على كتم التّوحيد الخاصّ، ويعتبر نشرَه بين النّاس أشدَّ من الحرام، وهذا يدلّك على أنّه معتقدٌ خطيرٌ تأباه النّفوس الذّكيّة، وتَرفضه الفطَرُ السّليمة، ويُعرِّض حاملَه إلى انتقاد لاذع من قِبَل المؤمنين بالله ورسوله ﷺ، وإلاّ فإنّ التّوحيد الّذي جاءت به الرّسل، وأُنزلت من أجله الكتبُ والشّرائع إنما حَقّه أن يُذاع ويُنشر كما فَعلت جميعُ رسل الله، وظلَّ خاتمُ المرسلين ثلاثةَ عشر عاما يَدعو إليه، ولم يَدَعْ جانباً منه دون بَوْح وبيان، حَتَّى أكملَ الله هذا الدِّين، وتَمَّت نعمةُ الإسلام، وعلى هذا رَبَّى أصحابَه.

١) انظر : دارسة د/ميغري عن كتاب((السر الأكبر)) (ص٣٩).
٢) ((السر الأكبر)) (ص٤٢٦-٤٢٧).

ومن جانبٍ آخـــر ؛ نرَى أنَّه على الرَّغم من إنـــذاره المتكرّر وتحذيره الشّـــديد لأتباعه أن يكتموا هـــذا «التّوحيد الخـــاصّ»، دون إذاعته للنّاس، فإنّ بَعضهم لم ينصاعوا لهذا التّحذير، فصاروا يكتبون في قصائدهم ما يُوقف القارئَ على هذا السّـــرّ الخطير، فأصبحوا يصرّحون بمعتقدهم في الشّيخ إنياس بمثل ما صرَّح هو في الشّـــيخ أحمد التّجاني، فهذا تلميذه الشّيخ محمّد ثاني الكافنغـــي الكنويّ يقول في أبياتٍ يمدح بها شيخَه إنياس[1]:

خليفةُ ربِّ العالمين بخلْقـه
فَرَائيـه رَائيـه بِـدُونِ اتِّحَادَة
وَلا بِحُلول، بَل بإمداد وَصْفه
لَه فافْهَمُوا مِنِّي عُلُومَ الحقِيقَة
بأيديك تَصْريفُ العوالِم رَقِّني
إلى مُرتَقَى أسْـــمَى، وَنَوِّرْ بَصِيرتي

■ الشيخ إنياس وهرطقة (الحقيقة المحمدية)

يَرى الشّيخ إنياس أنّ المريد بعدَ أن يَشهد الفنـــاءَ عن وُجود السِّـــوَى، ويُشـــاهدَ حَضرَة (وحدة الوجـــود) وهي عدُم التمييز بين الخالق والمخلـــوق، بَل يرى الله ســـبحانه وتعالى في كلّ شـــيء بذاته، وأنّ الوجود شـــيءٌ واحد على السّـــواء، وهو : وجود اللـــه فقط عندما ينتهي من هـــذا يَأتي إلـــى مرتبة أخـــرى وهي الّتي يُســـمونها((الحقيقة المحمّديّة)) الّتي تمحق تلك المرتبة السّـــابقة، فيقـــول إنياس:((وإذا صحا المريدُ من الفناء يُشـــاهد حضرةَ وحدة الوجود يرى فيها الوجودَ قطعةً بارزةً من الذّات، بعدما كان لا يُشاهدإلاّ إيَّاها فيرى الأشياءَ على تعدُّدها وتَبايُن مراتبها على حدٍّ سواء، وبَعد ذلك تتجلَّى الحقيقة المحمديّة فتمحقها؛ لأنّه السيّد الكامل، الفاتح الخاتم، العبد المتّصف بصفات سـيِّده المتخلِّق بأخلاقه المتردِّي بكمالاته من أمَدِ بوسع الرّبوبية صاحب الرّياسة لولاك، ففي هذه الحضرة لا يَرى المشاهد إلاَّ محمَّداً رسول الله، قد استحال عنده وجود سوى الله ورسوله ، ولا مَطمع له في الله بغير رَسوله يُشاهد أنْ لا إله إلا الله محمّد رسول الله)).[2].

ففي هذا النّصّ يشـــرح إنياس هذه نظريّة (الحقيقـــة المحمديّة)، فالنّبـــي عنده متّصفٌ بصفات اللـــه تعالى متخلِّق بأخلاقه، لابســـاً رداءَ كمـــال ربّ العالميـــن، يعني بذلك: أنّه هو اللـــه ســـبحانه وتعالى، وقد صـــرّح بذلك في قوله:((والمشاهد في هذا المقام إذا طلب الله لا يجد إلاَّ رسولَ الله، ولا يجد سبيلاً إلى وجودِ سواه))[3].

ويعني بذلك : الفناءَ عن وجود سوى رسول الله !

ثم يُردف قائـــلاً :((وفي هذا المقام يقول : إنّ اللـــه ما أوجد إلاَّ محمَّداً، وما أرســـلَ إلاَّ محمَّداً، ولم يُرسَل من قُريش، ومحمَّد ما صلَّى قـــطّ، ولا صام ولا حجَّ ولا جاهد، ولا نَكح، ولا وَلد ولا وُلد)).

وهذه هي الحقيقـــة المحمديّة عنده وعند غيـــره من المتصوِّفـــة، ويعبِّرون عنهـــا بالنّور المحمَّدي، وتعنى : أنّ رســـول الله ﷺ جزءٌ من النّـــور الإلهي، فالفناءُ فيـــه، معناه : عدم رؤية الوجـــود غير وجوده؛ لأنّ وجوده هو وجود الله، وما دام أنّه هو الله ربّ العالمين، فجميع الرّسل إنّما هم تجسيداتٌ لشخصه ﷺ وتجليّات لذاته فـــي صورٍ متعـــدِّدة، كمـــا أنّ اتّصافه بصفات الله وتجلِّـــي الله في صفته تنفـــي عنه القيامَ بالتّكاليف الشّرعية والأعمال البشريّة حقيقةً؛

١) ((ديوان نيل الأماني)) (ص٣٩-٤٠).

٢) ((السر الأكبر)) (ص٤٣٠-٤٣١).

٣) ((السر الأكبر)) (ص٤٣١).

لمنافـــاة كلٍّ ذلك لكمال اللـــه جل وعلا، فعنده أنّ النبي ﷺ هو «عيـــن الحقّ الّذي تتجلّى فيه عروش الحقائـــق» كما في الصّلاة المسـمّاة عندهم بـ(جوهرة الكمال)، فلذلك رأى الشّـــيخ إنياس مناسبةً لذكرها بعد تقريره تلك العقيدة فقال:((ونُورد هنا الصَّلاة المســمَّاة بجوهرة الكمـــال في مدح ســـيد الرِّجال الّتـــي تلقاها سيدُنا الختم التّجاني من الحضرة المحمديَّة، لما تضمَّنت من أسرار «الحقيقة المحمديّة»)) ثُمّ ذكرها.

والنتيجة التي يريد القائلـــون بهذه النّظرية أن يصلوا إليها هي الكفـــر بالله وملائكته وكتبه ورســـله واليوم الآخر، فاتّخذوا في سبيل تحقيق ذلك الغلوَّ في رسول ﷺ بدرجةِ مساواته بالله عزّ وجل ، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوا كبيراً .

وقد يتوّهم بعضُ النّاس حين يظنّ أنّ معنى هذا الكلام أنّنا ننفى أن الرّســـول ﷺ نورٌ كما وصفه القـــرآن بذلك، والحقّ أنـــه ليس معنى وصف النبي ﷺ بأنه نورٌ أنّه مخلوقٌ من نور كما يزعم غُلاة الصّوفية، وإنما معناه : أنه ﷺ هاد لمن اتّبعه ، منيرٌ له طريقَ الهدَى وسبيلَ الرّشاد بـــإذن ربّه ، كما قال تعالى: ﴿يَـــا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَـــاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، وقوله تعالى : ﴿قَـــدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥].

يقول ابـــن جرير الطّبري رحمـــه الله في تفســـير هذه الآية:((يقول جلّ شـــأنه لهؤلاء الّذيـــن خاطبهم من أهل الكتاب : قد جاءكم يا أهل التّوراة والإنجيل من الله نورٌ، يعنى بالنّور: محمداً ﷺ الّذي أنار اللـــه به الحقّ وأظهر به الإسلام، ومَحَقَ به الشّرك فهو نورٌ لمن استنار به، يُبين الحقّ))[1].

ولـــو كان المرادُ من ذلك أن الرّســـول ﷺ مخلوقٌ من نور لصرّح القرآن بذلك أتمّ تصريح وأوضحـــه أوضح بيـــان، ولمـــا كان هناك داعٍ لوصفه بالبشـــريّة، ولكنّنا نجد نصوص الشّرعِ تؤكد على بشريّة الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠، وفصلت: ٦].

وأخرج الشّـــيخان[2] عن أمِّ سلمة أنّ رسول الله ﷺ قال:((إنما أنا بشـــر وإنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكـــون ألحنَ بحجَّته من بعـــض فأقضي لـــه على نحو ما أســـمع فمن قَضيتُ له من حق أخيه شـــيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعةً من النّار)).

فالنّبي ﷺ نور بالمعنـــى القرآني – لا كما تزعم الصّوفية – وهو بشـــر كغيره من الأنبياء السّـــابقين، وصلته بربّه صلـــة العبد المخلوق بمولاه كما قال تعالى : ﴿سُـــبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْـــجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّـــذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء: ١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَـــى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَـــى﴾ [النجم:١٠]، فوصفه الله بالعبودية في أشـــرف مقاماته ﷺ وهو مقام القرب من ربه.

■ غلوه بالإطراء في مدح النبي ﷺ :

ثبـــت عند الإمام البخـــاريّ[3] عن عمر رضي الله عنه أنّه قال: ســـمعت النّبي ﷺ يقول:((لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)).

هذا الحديث الشّريف لم يَلْقَ من الصوفيّة أُذناً صاغيةً، ولم يرووا في نهيه ﷺ عن إطرائه ما يمنعهم من الغلوّ في مدحه، ومن جملة هؤلاء

١) ((تفسير الطبري)) (٤ / ١٠٤).

٢) ((صحيح البخاري)) (رقم٦٩٦٧). و((صحيح مسلم)) (رقم١٧١٣).

٣) ((صحيح البخاري)) (رقم٦٨٣٠).

الشّـيخ إنياس فقصائدُه فـي مدحه ﷺ مليئةٌ بما لا يُرضي الله ورسـوله من الغلوّ والإطراء والمبالغة إلى حدّ إضافة أشـياء من خصائص الرّبوبية والألوهيـة إليه، والمطالع في دواوينه المخصَّصة بمدائح رسول الله ﷺ يجد من ذلك شـيئاً كثيراً، ويكفينا في هذه العُجالة أن نذكر أمثلـةً في ذلك لتدلّ على ما وراءَها، وعلى الله قصد السّبيل:

من ذلك :

١ – قوله[١] :

لولا النّبي الّذي أتيتَ ما خُلقت
شـمسٌ ولا قَمرٌ أو أصلُ ذي النّاس

٢ – دعواه – زوراً– أنّ كلّ ما ناله الأنبياء إنمـا هو من النّبـي ﷺ ، من ذلك : غفرانُ ذنب آدم لما أكل الشّجرة الّتي نهاه الله عنها، وما تعلّم من الأسـماء إنما تعلّمه من النّبي ﷺ وهو الّذي نجّى نوحاً عليه السّـلام من الطّوفان، ومنه صارت النيران برداً وسلاماً للخليل إبراهيم عليه السّـلام، وكذلك نجاة موسى وقومه من فرعون، وغَرق فرعون بعد ذلك، وكذلك تكليم الله إيّاه، ثم رفع عيسـى عليه السّـلام وتخليصه من محاولة اليهود لاغتياله، ثم أيّوب في محنته ويوسـف في ابتلائه وإسماعيل في اختباره كلّهم نالوا ما نالوه مـن النّبي ﷺ ، ادّعاؤه أن جميع علوم الرّسل إنما هي منه ﷺ ، فيقول[٢]:

هو الكلّ منه الكلّ بطناً وظاهراً
وبحر سواه ما لَنا منه مَشرَبُ
فَمِن نوره الكونان منه تفجَّرتْ
علومُ جميع الرسل والكلّ يشرب

وهـذا الزعـم أيضـاً مـردّه –كمـا هو ظاهـر عباراته– إلى عقيدته فـي ((الحقيقة المحمدية))، أي : أنّ جميع الأنبياء السّـابقين قد نالوا والتمسـوا من خاتم الأنبياء والرّسـل منه ﷺ ؛ ادّعاؤه زوراً وباطلاً أنّ الدّنيا والآخرة من جـوده ﷺ، وأنّ ما حـواه اللّوح المحفوظ بعـضٌ من علمه ﷺ ، وأن حُسـنَ الحور العِين إنما أُخذ من حُسـنه، وضوء البـدر تفرّع من ضوئه، يقول[٣]:

ومن جُوده الدّنيا وأخرى وعلمُه
أمَدّ قِلامَ اللّوح بعض الّذي وعا

٣ – استغاثته بالنّبي ﷺ :

من غُلوّ الشّيخ إنياس في مدائحه للنّبي ﷺ ما كان يُوجد في كثير من قصائده من استغاثته بالرّسول ﷺ ، ودعائه أن يَكشف ما به من ضرٍّ، ويَرفع ما يحل عليه من نوائبِ الدّهر.

■ عقيدة ختم الأولياء عند الشيخ إنياس:

أوّل من تكلّم بهـذه العقيدة، هو محمّد بن عليّ بن الحسـن المعروف بالحكيم التّرمذي، من شـيوخ القرن الثّالـث، ألّف كتاباً سَـمَّاه (ختم الولاية)، وادّعى فيـه أنّ للأولياء خاتماً كمـا كان للأنبياء خاتماً، وفضَّـل الولاية على النّبوّة، فأخرجه العلماء من ترمذ، وشهدوا عليه بالكفر، والزّندقة[٤].

وقد ذكر شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه اللـه عقيدة (ختم الأولياء) مـن جملة ما عند الحكيم التّرمذي من الضّلالات، فقال :((ومنها مـا ادّعاه من خاتم الأولياء الّذي يكون في آخر الزّمـان وتفضيله وتقديمه علـى من تقدّم من الأوليـاء، وأنّه يكون معهم كخاتـم الأنبياء مع الأنبياء، وهذا ضلالٌ واضحٌ، فإنّ أفضلَ أولياء الله من هذه الأمّة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وأمثالهم من السّـابقين الأوّلين من المهاجرين

١) ديوانه :((جبر الكسر)) (ص١٨).
٢) ديوانه :((إكسير السعادات)) (ص٣٩).
٣) ديوان :((تيسير الوصول)) (ص١٩).
٤) انظر :((سير أعلام النبلاء)) (٤٤١/١٣).

والأنصار، كما ثبت ذلك بالنّصوص المشهورة ...))[1].

وقد ادُّعي هذا المقام للشّيخ أحمد التجاني[2]، وجاء الشّيخ إنياس وبذل جهداً جَهيداً في سبيل إثبات هذا المنصب له، ونفيه عمّن عداه، حتىّ إنّه أفرد لذلك تأليفاً مستقلاً سمّاه:((تنبيه الأذكياء في كون الشّيخ التجاني خاتم الأولياء)) نفى فيه أن يكون ابن عربي الحاتمي هو صاحب هذا المقام، مستدلاً بدعاوي التجاني نفسه، وكراماته، وبأنّه شريف من أهل البيت، أخبره بذلك رسول الله ﷺ وأكدّ له ذلك ثلاثَ مرار[3].

والمؤدّى هذا التقرير تفضيلُ «خاتم الأولياء» على الأنبياء، لأنّ الأنبياء إنما هم أصحاب الولاية العامّة، من لدن آدم إلى عيسى عليه السّلام، والتّجاني هو صاحب الولاية الخاصّة، وينتزعون من هذا تفضيل الولاية على النّبوة، كما هو موجود من نصوص شيخهم الأكبر ابن عربي الحاتمي[4].

والقائلون بهذا لا شكّ في كفرهم، بل كُفرهم أقبح من كفر اليهود والنّصارى، يقول ابن تيمية رحمه الله:((وحالُ الجهمية الاتحاديّة الذين يفضّلون الوليّ أو خاتم الأولياء على الرّسل، ومعلومٌ أن هذا باطل وكفر عند المسلمين))[5].

((فهذه الأقوال ونحوها هي من الكفر المخالف لدين الإسلام باتّفاق أهل الإسلام، ومن قال منها شيئاً فإنّه يستتاب منه، كما يستتاب نظراؤُه ممن يتكلم بالكفر، كاستتابة المرتدّ إن كان مظهراً لذلك، وإلاّ كان داخلاً في مقالات أهل الزّندقة والنّفاق))[6].

وخلاصةُ القول: أنّ هذه العقيدة تخالف عقيدةَ أهل السنّة من جميع حيثياتها، ولو لم يكن فيها إلاّ تفضيل رجل متأخّر في زمانه وفضله، على أصحاب رسولِ الله ﷺ جميعهم بما فيهم الخلفاء الأربعة، والعشرة المبشَّرون بالجنّة وسائر السّابقين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار، والّذين قاتلوا مع رسول الله ﷺ بأموالهم وأنفسهم، وغير هؤلاء ممن ثبتت فضائلُهم في النّصوص المتواترة، وإجماع الأمة لكان ذلك غايةَ الافتراء والبهتان العظيم[7].

■ الدّائرة الفضلية والشّيخ إنياس:

من الأباطيل التي روّجها الشّيخ إنياس في كُتبه، وغرَّر أتباعَه بها لينسلخوا عن دينهم الحقّ ويتحلّلوا من أخلاقهم الإسلاميّة الشريفة، ويتابعوه في باطله الّذي استقاه من طريقته الإلحاديّة، فريةٌ سَمّاها:((الدّائرة الفضلية))، الّتي رسمها الشّيخ أحمد التجاني، وزعم أنّ أتباعه واقعون فيها بفضل تمسّكهم بطريقته ودينه، يقول أحمد التّجاني :

((فإنّ لله سبحانه وتعالى دائرةً من فضله، جعلَها مكنوزةً وراءَ خطوط الدّوائر، التي هي دوائرُ الأمر والنّهي والجزاء خيراً وشراً، والاعتبارات واللّوازم والمقتضيات، فإنّ هذه المراتب هي مراتب عموم الخلق، وتلك الدوائر الفضلية هي دائرة اختصاصه واصطفائه سبحانه وتعالى لمن شاء من خلقه، وهذه الدّوائر جعلها سبحانه وتعالى عنده فيضاً فائضاً من بحر الجود والكرم، لا يتوقّف فيضُها على وجودِ سببٍ ولا شرطٍ ولا زوالِ مانعٍ، بل

١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢٣/٢).

٢) من الإنصاف أن نُشير إلى أنّ الشّيخ أحمد التجّاني لم يدّع في حياته هذا المقام لنفسه. وإنما ألحقه به بعضُ متأخّري أتباعِه من بعد موته. انظر : مناقشة ذلك بالتّفصيل في كتاب((الرّدود المفيدة)) للدّكتور ميغري (الورقة/١٥٢-١٥٧).

٣) انظر :((تنبيه الأذكياء)) (ص١٥).

٤) انظر :((فصوص الحكم)) (٦٢/١). وانظر أيضا((تقديس الأشخاص)) للدكتور أحمد لوح (٨٠/١-٨٣).

٥) ((بغية المرتاد)) (ص٢٢٨).

٦) ((منهاج السنة)) (٥٩-٦٠).

٧) وانظر :((مجموع الفتاوى)) (٣٦٧/١١-٣٦٨).

الأمر فيها واقعٌ على اختصاص مشيئته فقط، ولا يُبالي بمن كان فيها أَوْفى بالعهود أم انتهج الصراط المستقيم، أم سقط من المعاصي في الطّريق الوخيم، لا يبالي لمن أعطى ولا على ماذا، ومن وقع في هذه الدّائرة من خلق الله كَمُلت له السّعادة في الآخرة، بلا شَوب أَلَم ولا ترويع))[1].

هذا النصّ المنقول عن الشّيخ التّجاني والمقرّر من الشّيخ إنياس يدلّ بوضوح على أنّ ما تدعو إليه عقائدُ هذه الفئة إنما هي إباحيّة محضة، وانحلالٌ كامل، وانسلاخٌ حقيقيٌّ من الشّريعة التي أنزل الله بها الكتُب وأرسل من أجلها الرّسل،((ومعنى كل هذا أنّ الطّريقة التجانيّة خارجةٌ عن جميع دوائر دين الإسلام وتقع بعيدةً عن جميع أحكامه ولا تتقيّد بشيءٍ من قيوده، وهذا هو السّعادة الأبدية عندهم))[2].

■ زعمه أن كل من لم يرزق محبة الشّيخ التجاني فهو هالك:

من أباطيل هذا الرجّل وأكاذيبه على الله ورسوله، زعمُه أنّ الله ساق هذا الوجودَ مساقَ الهلاك ولا يَنجو من ذلك إلاّ مَن رُزق محبَّةَ الشّيخ التّجاني، فقال في بعض رسائله مخاطباً أتباعَه:((واعلموا أنّ الله ساق الوجود في هذا الزّمان مسَاقَ الهلاك، ولا ينجو منه أحدٌ إلاّ من رزقه الله محبّة سيدنا الختم التّجّاني))[3].

وهذا الادعاء من إنياس هو كما قال الشّيخ أبو بكر محمود جومي رحمه الله:((إنّه يُريد بذلك أن يقول: ومن يَبتغ غير التّجانيّة ديناً فلن يُقبَل منه وهو الآخرة من الخاسرين))[4].

■ زعمُ إنياس أنّ محبتـه سعادةٌ و بغضَه شَقاءٌ:

لم يكتف الشّيخ إنياس بالإيمان بأنّ محبّة الشّيخ التّجاني هي السّبيل الوحيد لخلاص العالَم ونجاته، حتىّ زعم أنّ هذه الخصّيصةَ له هو أيضاً، وأنّ من أحبَّه فهو سعيدٌ، ومن أبغضه فهو شَقيٌّ، وأنّ كلّ من يريد أن يصل إلى الله ورسوله ﷺ فلا بُد له أن يتمسّك بحبله هو ، فقال في قصيدة له[5]:

حَلَفتُ يميناً إنّني لاَ يُحبُّني
سِوَى أسعَد والْعَكْسُ فِي حَالِ بُغْضِيَا
وقدْ عَلِم الأَقْوَامُ أَنّي خَدِيمه
فَوَصْلُ حَبِيبِ الله يُلفَى بِوَصْلِيَا
ومَا قُلتُ قَـوْلي شَاطحاً مُتبَجِّحاً
وَمـا مَسَّنى سُكْرٌ يُغَيِّبُ عَقْلِيَا

ويقول في قصيدة أخرى[6]، زاعماً أنّه رحمةٌ لمن يحبّه، ونارٌ لمن يُبغضه، فمحبّته رَوْحٌ لِمُحبِّه، وبُغْضُه سُمٌّ قاتل:

وإنّي رَحمانيّةُ الله عِنْدَ مَن
يُحبّ وَنَارٌ للطَّريدِ المجادِلِ
وإنِّيَ رَوْحُ الْحبِّ سُمُّ سِوَائِه
فطَوْراً يُحَيِّي تارةً عَيْنُ قَاتِلِ

والملاحَظُ في هذه الدّعوى العريضة: أنّ الشّيخ إنياس قد نَصَب نفسَه نظير رسول الله ﷺ الذي جعله الله رحمةً للعالمين، حيث قال ربُّ العزّة : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ويقول عليه الصَّلاةُ والسَّلام عن نفسه :((يا أيّها النّاس إنّما أنا رحمةٌ مُهدَاة))[7].

بل لم يكتف الرّجل بهذا الهرَاء ولم يقنع بتلك الأكاذيب حتى جَعل مجرَّدَ رُؤيته سبباً

١) ((جواهر المعاني)) (ج٢/١٩٩).
٢) ((التحفة السنية)) للدكتور طاهر ميغري (ص٩٩).
٣) ((جواهر الرسائل)) (١٦/١). وأعاده في موضع آخر (٣٩/١) ناسباً إيّاه إلى الشيخ التماسيني.
٤) ((الشيخ إبراهيم إنياس)) (ص٢٣٩).
٥) ((ديوان أوثق العرى)) (ص١٠٨ضمن مجموعة دواوين).
٦) ((ديوانه جبر الكسر)) (ص٩).
٧) صحيح عن أبي هريرة t انظر :((السلسلة الصحيحة)) (رقم٤٩٠).

لدخول الجنّــة، بل يَكفي لدخــول الجنة رؤيةُ خطِّه فقط، فقال[1]:

وإنّ خُطوطي للأنـام سعادةً
فَلم يَشْقَ يوماً مَن رآني وخَطيَّا
وما قُلتُ هذا دُون إذنٍ وإنَّني
لأكتمُ سـراً لا يُباحُ لِغيريَا

وكــذب أيضاً على أتباعه بأنّ كلّ من خَدمه ينال مُــراده ويحصل على أموالٍ وســعادةٍ في الدّنيــا، إن كُتب له الحيــاة، وإن مات قبل أن يتحقّــق له هذا الوعد، فإن له فوزاً في الآخرة؛ فيقول في بعض أبياته[2]:

إنّ الّذين خدموني نَالوا
مرادَهم سعادةٌ ومالُ
ومن يُحبّني ومن يَراني
في جنّة الخلْد بلا بُهتان
إذ إنني خليفة التجاني
موهبة من أحمد العدناني
من شَكّ في ذا فَأرَى وأسمعُ
من حيثُ لايرى الفتى ويَسمَع

وقد شــكّلت تلك الدعاوي العريضة عاملاً قويًّا للخوف والفزع لدى كثيرٍ من أتباعه .

■ ادّعاؤه أنّ له تصريفاً في الكون :

من أباطيل هــذا الرّجل وكُفــره بالله تعالى ادّعاؤه أنّ الله قد خصّه بالتّصريف في الكون، وأنّه إذا قال للشّيء : كن، يكن بلا تسويف، فيقول[3]:

حَملتُ سِرَّ خاتَم الولايَه
جَمَعْتُ بَيْن الذَّوْقِ والدِّرَايَه
قَد خصَّني بالعلْم والتَّصْريف
إن قُلْتُ : كُنْ يَكُنْ بلا تَسْويف
لَكِنَّني اتّخَذْتُــه وَكيــلاَ
تَأَدُّبــاً فَاخْـتَارَني خَليــلاَ

وهذا لا شكّ اعتداء على خصوصيّات الرّب سبحانه وتعالى وصفاته، فقد قال تَعالى: ﴿إِنَّما أَمْرُه إِذَا أَرَادَ شَــيْئاً أَن يَقُولَ لَــهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم:٨٢]، فكون الشّــيخ إنياس بهذه المثابة معنــاه أنّه ربّ غيــر الله، وقائل هــذا من آل فرعون وجنده، فهو القائل : ﴿أَنَا رَبُّكُم الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤].

■ ادّعاؤه المكث في أيام الله ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف عام:

من أســاطير هذا الرّجل، أو بالأحرى من فُنون جُنونه، ادّعاؤه أنّه مكث في أيّام الله ثلاثةَ ملايين وثلاثمائة ألف عام، وهي من أيّام الدنيا الفترةُ الواقعةُ بين صلاة الشّــفع والوتر، وهو في كلّ هذه الأعوام كان فــي الحديث مع الله وجهاً بوَجْه، وفي مصاحبة رسول الله والمشي معه، ثُمّ لقاء الشّــيخ أحمد التجاني، والظّهور في شخصه ، وغير ذلك من الأباطيل والأكاذيب الكبيرة، التي هى أشــبَه ما تكون بما يُســمّى بأفلام الخيــال العلمي الّتي تنتجها شــركات الهوليــود الأمريكيّــة، إنّ مثل هــذه الكذبات الكبيرة حتّى ولو لم تنطو على أمورٍ كفريّة كهذه فإنها لن تحظى بقبول لدى أي إنســان عاقل ، فضلاً أن يصدقها إنســانٌ مؤمن بربه، استنار بنور الوحيين، نســأل الله السّــلامة من الكفر والهذيان.

■ ادّعاؤه محاورة سرّه عن ربّه :

من الأكاذيب الكبيرة التــي بَرع فيها غلاةُ الصوفية دعواهــم أنهم يأخذون العلم عن الله بلا واســطة الرّســل، بل عن طريقِ واردٍ يَرد علي قُلوبهم، ويحدّثهم عــن ربّهم، فلا يُقيمون للعلم والعلماء وزناً، بل يرونهم علماء الرســوم، لا يفقهون من العلم شــيئا، وكون الشيخ إنياس مــن غلاة المتصوّفة الباطنيّة، فإنّه أيضا يؤمن

١) ((ديوان أوثق العرى)) (ص١٠٨ضمن مجموعة دواوين).
٢) ((الرحلة الكناكرية)) (ص١١٤-١١٥).
٣) ((الرحلة الكناكرية)) (ص١١٠ضمن مجموع رحلاته).

بهذه العقيدة، فهو عندما يكتب كتابَه الباطني ((السّرّ الأكبر)) كان يدّعي أنّه يكتبه عن واردٍ يُوحي إليه به، فجاء في موضع منه:((وبَقي من الوارد شيءٌ زجرني عن إثباته في هذا الوقت))[1].

ولما فسّر أوائلَ سورة البقرة تفسيراً باطنياً، قال في آخره:((انتهى ما أملاه عليّ الوارد))[2].

يقول: شيخ الإسلام ابن تيميةرحمه الله:((وأمّا ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : «حدّثني قلبي عن ربي»، فصحيحٌ أنّ قلبه حدَّثه، ولكن عمّن؛ عن شيطانه، أو عن ربّه؟ فإذا قال : «حدّثني قلبي عن ربّي» كان مُسنِداً الحديثَ إلى مَن لم يُعلَمْ أنّه حدّثه به، وذلك كَذِبٌ ... ومحدَّثُ الأمَّة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوَّه به يوماً من الدَّهر، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبُه يوماً : هذا ما أرى الله أميرَ المؤمنين عمرَ بن الخطاب، فقال : لا، امحه، واكتب هذا ما رأى عمر بن الخطّاب، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمن عُمَر، والله ورسولُه منه بريء))[3].

■ ادّعاؤه رؤية النّبي ﷺ يقظةً :

إنّ من أكاذيب الصّوفيّة دائماً دعواهم رؤيَة النّبي ﷺ يقظةً لا مناماً والتحدّث إليه، وسماع حديثِه، وتلقّي أوامرَ ونواهي منه .

وقد صرّح الشّيخ إنياس بتحديث رسول الله ﷺ إليه وجهاً لوجه؛ فقال:((فاعلموا أنّي ولا حول ولاّ قوة إلاّ بالله العلي العظيم سمعتُ من لسان من لا يَنطق عن الهوى ألاّ يضرّني مخلوقٌ أصلاً كائناً من كان))[4].

بل صرَّح بذلك عندما كان في المستشفى ببباريس في مرض موته، ذاكراً أنّه رآى رسولَ الله ﷺ هناك بفرنسا، واستغرب رؤيتَه بها حيثُ لا يدري إن كانت باريس أيضاً محلاً لإقامته، موهماً بذلك أنَّه رآه قبل ذلك في أماكنَ شتّى، فقال :

رأيتُ رسولَ الله جهراً ويقظة
ببباريس هلْ ذاك المحل محلُّه[5]

وهذه العقيدة مناقضةٌ لإجماع أهل السنّة والجماعة، فقد قال الحافظ ابن حزم:((واتّفقوا أنّ محمداً عليه السلام وجميعَ أصحابه لا يَرجعون إلى الدّنيا إلاّ حين يبعثون مع جميع النّاس))[6].

■ تسميتُه اللّه تعالى بأسماء لم ترد في الكتاب والسنة :

من سوءِ أدب الرَّجل مع الله، وعدم احترامه لنصوص الكتاب والسنّة والوقوف عندها، تسميتُه الله تعالى بأسماء لم تَرد في كلام الله ولا كلام رسوله ﷺ ، بل ليس فيها ما يقتضي الكمالَ والمدح والثناء، وهذا كثيرٌ فيما أحدثه من الأدعية والأذكار الّتي لم تَرد عن الله تعالى ولا عن رسوله ﷺ ، ولا تفوّه بها أحدٌ من سلف هذه الأمّة، من ذلك :

١ - قوله:((اللّهم يا ألف، صلّ وسلِّم على الباء، ونقطته وشكله صلاة تؤلّف لنا بها يا واحدُ يا أحد- القلوبَ، وتفتح لنا الأبواب المغلقة بسرِّ الألف والباء والنّقطة والشّكلة ...))[7].

٢ - وقوله:((ويا يَقينُ صلِّ وسلِّم على النّبي الحقّ اليقين ...))[8].

١) ((السر الأكبر)) (ص٤٤٢).
٢) ((جواهر الرسائل)) (١٠٧/٢).
٣) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٤٠/١).
٤) ((جواهر الرسائل)) (٨٧/٢).
٥) نقله د. محمد طاهر ميغريرحمه اللهمن قصيدة لإنياس وجدها عند السيد محمد الهيبة بن الطفيل بموريتانيا. انظر :((الشيخ إبراهيم إنياس)) (ص٣٤١).
٦) ((مراتب الإجماع)) (ص١٧٦).
٧) ((جواهر الرسائل)) (٧١/٢).
٨) ((المصدر نفسه)) (٧٣/٢).

٣ – وقوله:((وأســـالك يا ألف ، يا هاءُ ، ياميم، يا ســـينُ قاف، يـــا كاف ، يا حاء، يا لام، يـــا عين ، يا ياء، يا صـــاد أن تفعل لي كذا وكذا بســـرّ الحروف الرّقميّة والفكريّة والخياليّة والنّطقية....))[١].

٤ – وقوله :((وأســـألك يا هُو مَن هُو هُو ، وهُو هُو أن تهبَنَا بمقدار يديك....))[٢].

٥ – وقوله :((يا ســـريع ، يا كهيعص، يا حمعسق....))[٣].

وله مـــن هذا النّوع أشـــياء كثيرة، وهذا لا شـــكّ في أنّه من العبث والإلحاد في أســـمائه المنهـــيّ عنه في قوله تعالـــى : ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠] .

■ إشاعتُه فكرةَ الفرق بين الظّاهر والباطن:

وتكفـــي الإشـــارةُ إلى بعـــض النّماذج من التّحريفات الباطنيّة الـــواردة في كتب الرّجل، والتي تنطوي على إفراغ المصطلحات الشرعيّة من مدلولاته الخاصّة ومضامينها المعروفة لدى كافّة علماء المسلمين، ولَيٍّ أعناقها للاستدلال بها على عقيدة وحدة الوجود، من ذلك :

١ – يقـــول فـــي تفســـير أوائل ســـورة البقرة:((﴿أولَئـــكَ عَلـــى هُدًى مـــنْ رَبّهم وَأُولَئِكَ هُـــمُ الْمُفْلِحُـــون﴾ [البقرة:٥]، ذكر (هدًى) أي على كَشْـــف من كُشـــوفي، ونور من أنواري، وسرٍّ من أســـراري، ولُطف من ألطافي، لأنّ ما أنعم الله على جميع الأنبياء والأولياء بالنّسبة لما عندهم كقَطرة من بحر محيط، وبذلك الهدى تخلّصوا من الْحُجب، وحطّوا رحالهـــم بفنائه، وفازوا بالسّـــعادة العظمى، والمملكة الكبـــرى، وحقّقوا قوله تعالى: ﴿إِنّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق:٧].

ومختصرُ الجواب : أوّل الآية تَحقّق، وآخرُها تشـــرُّع، وأوّلها بداية ، وآخرها نهاية، وإن كانت النّهاية في البداية، والبداية في النهاية، ولذلك دخـــل العاطفُ في الآخرة دون الأولى، والمعنى أنّ النِّهاية في البقاء بعد ســـبق الفناء، وثَمّ رمزٌ دقيقٌ إلى أنّ جنّة العارف غير جنة العابد، حيثُ قـــال: ﴿أولَئِكَ عَلى هُدًى مِـــنْ رَبّهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فافهم جيِّداً .

والتّحقيق في اجتمـــاع الكتب في ﴿الم﴾: أنّ الحقائق ثلاثةٌ : الحقيقة الأزليّة، والحقيقة المحمديّـــة، والحقيقة الأحمديّة، تجلّت الأزليّة فـــي المحمديّـــة، والمحمّديّة فـــي الأحمديّة، فظهرت الحقائقُ الموجودات، فحصلت الكَثْرَةُ الّتي هي حقيقـــةُ عَين الوحدة، فوقـــع التّنَزّل فصدّق الأحمديّة بتنَزّل الأزليّة في ا لمحمديّة، آي آمنـــتْ بما نزل علـــى محمّد وهـــو الحقّ وذلـــك: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ فالتقتْ بالمحمديّة عن الأزليّة ، وذلك ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِين﴾ فآمَنَتْ تصديقاً بالغيب حيثُ هو المرآة ، وذلك قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ فاشتقّت إلى كشف الغيب ، فأقامت الصَّلاةَ بدوام مراقبة المحبـــوب ، لتعرُج بها إلى البداية، وذلك معنى ﴿يُقِيمُون الصَّلاَةَ﴾، وتلك الصّلاة دائمةٌ؛ سجدةٌ واحدة مـــن الأزل إلى الأبد، حيثُ لا مطمع في المطلوب بها ولا يـــأس، فأنفقتْ كليَّةَ وجودها في الأزل إلى الأبد، وهو معنى: ﴿مِمّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾، ولم تَجد من مطلبها إلاّ ما أنزل على محمّد فآمنت بما أنزل على محمّد طوعاً وكَرْها وهو معنى: ﴿والَّذِيـــنَ يُؤْمِنُون بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، وتحقّقت بتجلّيَيْن قبلَ ذلك التجلّي المعبَّر عنه بالتَّنَزّل لم يبرز أحدهما لا نســـبةَ فيها أصلاً، والأخرى لا نســـبةَ فيه إلاّ الأحدية، فآمنتْ بها

١) ((المصدر السابق)) (٢/٧٤).
٢) ((المصدر السابق)) (٢/٧٨).
٣) ((المصدر السابق)) (٢/٧٩).

وهو ﴿مَـا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، فتحقّقت بوجودها أدباً ، وهـو معنى ﴿وبالآخِرَةِ هُم يُوقِنُون أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ حيث تحقّقوا بالحقيقة وتمسّكوا بالحقّ ، وأولئك هـم المفلحون بالملك الكبير، حيث الملْك لله الواحـد القهار، وبهذه التّقوى والإيمـان والإقامة والإنفاق ظهـرت الحكمةُ والإحكامُ، وتظاهرت شـؤونُ الأحديّة، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَـأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. انتهى ما أملاهُ علي الوارد))[١].

٢ - فسّـر قولَه تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَـدَّ الظِّلَّ﴾ الآية [الفرقان:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿قُـلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، فسّر هذه الآيات بأنّها إشارةٌ إلى حضرة اللاهوت والأحديّة، وهو وجود النّبي ﷺ حيث كان الله ولا شيءَ معه، وإشارةٌ إلى حضرة اللّاهوت والواحديّة، حيث تعلّق الإرادة بوجوده قبل التّجلّي، ثم إلى حضرة الجبروت، وهو التّجلّي بالأحديّة في المحمديّة، يعني بذلـك تجلّي الله في نبيِّه محمّد ﷺ تعالى الله عن ذلك ثم هي إشارةٌ إلى حضرة الملكوت ، وهـو تجلّيه لحقائق الأنبياء وأسرار الكائنات، وقلوب الحيوانات الإنسـانيّة، ثم إلى عالم الملك والنّاسوت ، وهو نزوله في الصّورة الأدميّة...))[٢].

٣ - وفسّر قولَه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعـراف:٩٦]، بقوله:((يعني: أهلُ القرى لـو آمنوا الإيمانَ التامّ الحقيقيّ لفُتح عليهم بركات من السّماء، وهي الفُتوح والمعارف والأسـرار والواردات والإلهامات، الّتي هي بركاتُ السّـماء؛ أي العالَم العلويّ ، وبركاتُ الأرض الّتي هـي علوم الدّرايات والرِّوايـات والمعاملات، كما أنّ قوله تعالى : ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ إشـارةٌ إلى المعارف الإلهيّـة، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِـمْ﴾ إلى علوم الرِّوايَات والدِّرايات التي في أرض النّفوس[٣].

وله من هذا النّوع من التّأويلات الفاسـدة الباطنيّة شـيء كثير في كتبه، لا سيّما عندما يسعى للدّلالة على عقائده الباطنيّة الخبيثة.

■ تشريعه صلوات وأذكاراً لم يشرعها الإسلام:

إن من مَسـاوئ الرّجل أنّه أعطى نفسـه حقَّ التّشـريع كما فعل ساداتُه من قبلُ فاخترعَ صلواتٍ وأذكاراً ما أنزل الله بها من سـلطان، بل جاءته كما صرّح بذلك على حَسـب خواطره وأحواله، وأذن لأتباعه أن يتقرّبوا إلى الله بها، يقول:((ودُعائي على حَسَـب الوارد والأحوال، وهـذا لا بأس أن يكـون عـادةَ الأحباب بعد الوظيفـة، وقد أذنتُ فيه لـكلِّ من يحفظه أن يقرأه بعد الوظيفة، سـواءٌ فـي جماعةٍ أو في غيرها))[٤].

ومن نماذج هذه الأدعيّة والأذكار المخترعة ما يلي :

١ - قوله:((اللّهم يا ألف، صلِّ وسلِّم على الباء، ونقطته وشـكله صـلاةً تؤلِّف لنا بها يا واحد يا أحدالقلـوب، وتفتح لنا الأبواب المغلقة بسرِّ الألف والباء والنّقطة والشّكلة يا ذا الجلال والإكرام...))، في دعاءٍ طويلٍ علـى هذا النّمط اسـتغرق أكثـرَ من أربع صفحات، يقول في فاتحته :((دُعاءٌ وردَ من حضرة اللّطيف علـى العبد الضّعيف))[٥]، في إشـارة منه إلى أنه جاءه من الله تعالى عَبْرَ واردِه، فكأنّه وحيٌ جديدٌ إليه...

١) ((جواهر الرسائل)) (١٠٦/١-١٠٧)، وانظر أيضاً : (١١٩/١).
٢) انظر :((جواهر الرسائل)) (٩١/١).
٣) ((المصدر السابق)) (٩٤/١-٩٥).
٤) ((جواهر الرسائل)) (٨٥/٢).
٥) ((المصدر نفسه)) (في الموضع السابق).

٢ – ويقول في دعاءٍ لـــه آخر:((اللّهم يا ألله، يا هو، صلّ وســـلّم علـــى عين الرّحمة الرّبّانية، عين الحقّ، طلعة الحقّ، من هو هو، وعلى آله ، صلاةً تعرّفنا إيّاه، وأسألك يا هو بهو أن تَبســـط عليّ العلوم والأرزاق الحسيّة ....))[١].

ولاحظ كيف تضمّن هذه الصّلاة علاوةً على كونها مبتدعةً تسميةَ الله بما لم يسمّ به نفسَه ولا سَـــمّاه به رســـولُه ﷺ، كما تضمَّنت تسميةَ الرســـول ﷺ بأسماءٍ لم ترد في الكتاب ولا في الســـنّة، ولا نَطَق بها أحدٌ من علماء الإســـلام، مثل : (عَين الحقّ)، و(طلعة الحقّ) ونحوها .

١) ((المصدر السابق)) (٨٧/٢).

٣ – ويقول في هـــذا الدّعاء:((والصّلاة والسّـــلام على غرق في بحـــر جمع الجمع، عيـــنِ العيْن ، وعلـــى آله عينه حـــقّ قدره ومقداره العظيم))[٢]، في إشارةٍ إلى عقيدة وحدة الوُجود.

وبعـــد أن انتهى مـــن هذا الدّعـــاء، الذي استغرق صفحاتٍ كثيرةً، يقول الرّجل في جرأة متناهية :((وإنّي ضامنٌ لمن دعا بدعائي هذا غِنَى الدّارين ، وضمنتُ لمكروبٍ قرأه نيلَ الفرَج ، ومـــن قرأه فله ما لَنا، وعليه ما علينا ، والإذنُ معتبرٌ فيه، والاعتقاد، وفـــراغ القلب من أمور الكون....)).

٢) ((جواهر الرسائل)) (٩٤/٢).

الثقافة الإسلامية في مملكة برنو الإسلامية

يُعد السودان الغربي والأوسط من المناطق التي قامت فيها دول إسلامية، وازدهرت فيها اللغة العربية والثقافة والحضارة الإسلامية قبل الاحتلال الأوروبي لها، ومن هذه الدول مملكة البرنو الإسلامية، والتي قامت في السودان الأوسط في منطقة بحيرة تشاد الواقعة إلى الشرق من دول الهوسا، وتقع هذه البحيرة في قلب المملكة[1]، وقد جعلها موقعها مركزاً مهماً ونشطاً، وذلك لالتقاء طرق القوافل عندها، وقد انتشرت فيها عدة قبائل، ومن أهمها: قبائل شو العربية، وكانمبو KANIMBO، والكانوري KANORI، وتبو TOUBO، وبولالا BOLALA.

ومن الدول الإفريقية الحديثة التي قامت على أنقاض مملكة البرنو أو ضمت أجزاء منها:

١ - جمهورية تشاد: وشملت أغلب الأجزاء الشرقية من مملكة برنو، وتضم كانم كلها.

٢ - جمهورية إفريقيا الوسطى: وتضم الأطراف الجنوبية من المملكة.

٣ - جمهورية النيجر: وتضم أغلب الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من مملكة البرنو، وفيها مدينة بلما (BILMA)، كما تضم واحة كاوار، وكذلك تضم مدينة زندر العاصمة الثانية لجمهورية النيجر.

٤ - جمهورية نيجيريا: وتضم إقليم برنو الأصلية غرب بحيرة تشاد، وتضم من المدن البرنوية المشهورة العاصمة القديمة نجازارجامو، وكاكا ودكوا وميدغوري ونجورو.

٥ - جمهورية الكاميرون: وتضم بعض الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من مملكة البرنو.

نشأة مملكة برنو[2] وتاريخها:

ينقسم تاريخ البرنو إلى عصرين:

أ - العصر الكانمي: يبدأ من القرن الثامن الميلادي إلى الرابع عشر الميلادي.

٢ - العصر البرنوي: يبدأ من أواخر القرن الرابع عشر إلى نهاية سقوط مملكة البرنو على يدي الاحتلال الفرنسي والإنجليزي.

«قامت الحكومة الأولى لمملكة البرنو في إقليم كانم (KANEM)، ويرجع تاريخ ظهور مملكة كانم إلى الأزمنة السحيقة، وقد كثرت الروايات والأساطير حول ظهورها وأصولها،

١) إبراهيم طرخان. مملكة البرنو الإسلامية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. طبعة عام ١٩٧٥م. ص ١٨.

٢) وفي بعض المصادر تُسمى: كانم - برنم. وسوف نستعمل اصطلاح برنو.

ويُرجع بعضهم تاريخ ظهورها إلى ما قبل الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، وذلك حسب الروايات المحلية»[1]، ويُرجعه آخرون إلى القرن الثامن الميلادي بناء على ما توصِّل إليها نتائج أعمال الحفريات التي قام بها المؤرخ الإنجليزي كرودور (CROWDER)، وبعضهم يُرجع ذلك إلى القرن الخامس الميلادي، ومنهم من يدلل على وجودها قبل الميلاد على أساس التشابه في الآثار التي وجدت عندهم في قصورهم القديمة وبين آثار الفراعنة في مصر؛ خصوصاً في الصناعات النحاسية وصناعة الفخار والحديد[2]، غير أن التاريخ الثابت والمسجّل لظهور دولة ذات نظم إدارية وعسكرية وقضائية يرجع إلى القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، ثم نمت واتسعت خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد، وذلك بفضل دخول الإسلام ورسوخه بين سكانها.

تقول بعض المصادر إن أول من اعتنق الإسلام من ملوك كانم هو السلطان أومي جلمي، الملك الثاني عشر في عداد ملوكهم قبل الإسلام والأول بالنسبة لملوك الإسلام، كان حكمه فيما بين عامي ٤٧٩هـ - ٤٩٠هـ/ ١٠٨٥م - ١٠٩٧م، وذلك حسبما ورد في المحرم[3] الذي أصدره السلطان أومي جلمي، فقد بدأه بالبسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وأن أول بلد دخله الإسلام في السودان هو برنو، وأن ذلك كان على يد الداعية المسلم الفقيه محمد بن مافي، وكان معمّراً عاش مائة وعشرين سنة تقريباً، وعاصر خمسة مايات لبرنو؛ أولهم الماي بولو الذي كان يحكم عام ١٠٢٠م تقريباً، وآخرهم الملك أومي جلمي الذي كتب هذا المحرم عنه[4].

وقام الماي دونمه بن أومي ٤٩١هـ - ٥٤٥هـ / ١٠٩٨م - ١١٥٠م بالجهاد لنشر الإسلام في المملكة، ووسعها إلى بلاد النيجر والهوسا وباغرمي وشاري، وأدى فريضة الحج غير مرة، وهو أول من بنى مسجداً في مدينة بالاك (BALAK) شرقي كانم.

وبعد وفاته عام ٥٤٥هـ الموافق ١١٥٠م اعتلى عرش مملكة كانم برنو السلطان بري بن دونمه من عام ٥٤٦هـ - ٥٧٢هـ/ ١١٥٠م - ١١٧٦م، واشتهر بكونه فقيهاً مثقفاً، لكنه كما قيل كان متشدداً في أحكامه وعقوباته؛ حيث حكم بالقتل على السارق بدلاً من عقوبة قطع اليد، ولذا سجنته أمه مدة عام عقاباً له على هذا الحكم[5]، وقد وصفه بعض المؤرخين بالضعف لهذه الحادثة، ولكن هذا في الحقيقة إنما يدل على قوة الإسلام والتمسك به في عهده، ومدى طاعته لوالدته التي اشتهرت بالعلم والورع، وكانت وصيَّةً على ولدها تُشرف على شؤون المملكة[6] حينما كان صغيراً لم يبلغ الرشد، وظل يحكم بالعدل وإقامة الشريعة إلى وفاته في عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م.

وتولى العرش بعده عبد الله بن بكر بن بري من عام ١١٧٦م إلى ١١٩٤م، ثم تولى السلطان سالم بن بكر عام ١١٩٤م - ١٢٢٠م/٥٩٠هـ - ٦١٧هـ، وقد اشتهر عهده بنشر الإسلام وثقافته؛ عن طريق تشجيع العلماء وبناء المساجد والمدارس التي تعلّم القرآن الكريم، وقرأ بنفسه مائة وخمسين كتاباً تقريباً على يد العالم الجليل أبي عبد الله ديلي بن بدر

١) إبراهيم طرخان. مصدر سابق. ص٧٥ بتصرف.
٢) فضل كلود دكو. الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لمملكة كانم. طبعة كلية الدعوة الإسلامية. طرابلس. ليبيا. ١٩٩٨م. ص ٧٦.
٣) المحرم: هو المرسوم السلطاني الذي يصدره الملوك لصالح رعاياهم من العلماء وغيرهم.
٤) إبراهيم طرخان. مملكة البرنو الإسلامية. ص ٦٨ بتصرف. ولفظ (ماي) لقب لملوك كانم برنو.
٥) فضل كلود. مصدر سابق. ص١٠١ بتصرف.
٦) فضل كلود. المصدر السابق. ص١٠١

الكانمبو، وهو أول سلطان من سلاطين وملوك السودان بعث بكسوة إلى الكعبة، وتوفي في عام ١٢٢٠م / ٦١٧هـ[١].

وتولى بعده السلطان دونمه بن دابال ١٢٢١م - ١٢٥٩م / ٦١٨هـ - ٦٥٧هـ، وقد عُرف بالجد والحزم، ونجح في توسيع رقعة الدولة حتى وصل بها إلى منطقة فزان شمالاً، وضم إقليم دارفور في الشرق، وهو الذي حطّم المعبد الوثني الذي عُرف باسم ميون (MUNE)، فوضع بذلك حدًّا للأوهام والخرافات التي كان السكان يعتقدونها، وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين تأسياً بالسلطان الحفصي المنتصر في تونس (١٢٤٩م - ١٢٧٧م) والذي تلقب بأمير المؤمنين، وكانت هناك علاقات ودية بين كانم برنو وبلاط تونس.

وبعد وفاته تولى عرش كانم برنو عدة سلاطين، ومن أعظمهم على الإطلاق الماي إدريس ألوما (١٥٧٠م - ١٦٠٣م)، وقد وصفه مؤرخ بلاد كانم برنو أحمد بن فرتو[٢] في كتابه (تاريخ إدريس ألوما وغزواته) فقال: «وكان السلطان إدريس ألوما شديد التمسك بالكتاب والسُّنّة، شديد الكراهية لأهل البدع والمحدثات، ولقد حكم بالكتاب والسُّنّة في عهد ملكه...»[٣]، واعتنى بالأيتام والأرامل، ووجَّه اهتماماً بالغاً للإصلاح في الداخل والخارج، وازدهرت البلاد واستقرت، وقام بعدة غزوات ضد الوثنيين، وبخاصة سكان جزائر بحيرة تشاد، وكان يستخدم الأسلحة النارية التي كان يحصل عليها من الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على شمال إفريقيا، وذلك بمبادلتها بالعاج وريش النعام وجلود النمور والتماسيح، وقد توفي الماي إدريس ألوما في عام ١٦٠٣م تاركاً مملكة واسعة المساحة متمتعة بالأمن والاستقرار والازدهار.

وخَلَفَه في السلطة عدة مايات من عام ١٦٠٣م - ١٨٤٦م، حيث تمكن الشيخ محمد الأمين الكانمي أن يسيطر على مقاليد الحكم، «والشيخ محمد الأمين الكانمي من مواليد فزان - في ليبيا -، ومن العلماء البارزين الذين عملوا على نشر الإسلام وثقافته، وتثبيت قواعده وتطهيره من الشوائب الوثنية، وكان يحث دائماً على الجهاد والتمسك بالدين، وقد استقر في كانم حيث تزوج من ابنة أمير من أمراء البرنو، ورفض أن يغادر البلاد أمام الغزو الفلاني - جيوش الشيخ عثمان بن فوديو - ، ونظّم قوة صغيرة من أنصاره من قبائل الكانمبو، وقاوم الفلانيين حتى حال دون تقدمهم إلى شرقي بحيرة تشاد، ونجح في تحرير شرقي برنو بعد وقعة انتصر فيها على الفلانيين في نجورنو (N'GORNU)»[٤]، واستدعاه السلطان أحمد بن علي وطلب منه الاستشارة والعون في محنته لرد خطر الفلانيين، فكتب الشيخ الكانمي ثلاث رسائل؛ إحداها إلى قائد جيش الفلانيين الزاحف وهو غوني مختار، والرسالتان الأخريان إلى زعماء برنو المنافسين والمتصارعين من أجل السلطة، وطلب منهم أن يتَّحدوا ويضمّوا صفوفهم في مواجهة الخطر المشترك، لكنه لم يتلق منهم رداً[٥]، وواصل الفلانيون زحفهم نحو عاصمة كانم حتى سقطت في أيديهم في مارس عام ١٨٠٨م، «وهرب السلطان أحمد بن علي نحو الشمال حيث مات، وتولى السلطة بعده ابنه دونمه بن أحمد، واستطاع تنظيم صفوف جيشه

١) المصدر السابق، ص١٠٣.
٢) من أشهر علماء كانم برنو ومؤرخ البلاط في عهد السلطان إدريس ألوما، وقد اهتم بتسجيل غزوات إدريس ألوما وحروبه مع قبائل البلالا، وقد توفي في عام ١٥٨٣م.
٣) تاريخ إدريس ألوما، ترجمة ونشر بالمر عام ١٩٢٦م، بواسطة فضل كلود، الثقافة الإسلامية في تشاد، ص١٠٧.
٤) إبراهيم طرخان، مصدر سابق، ص ١٣٤.
٥) فضل كلود، مصدر سابق، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

بمساعدة الشيخ الكانمي والعودة إلى العاصمة واستردادها عنوة، وهزم جند الفلانيين وقتل قائدهم غوني مختار، وذلك في عام ١٨١١م.

وبعد هذه الوقائع رأى الشيخ أن يدخل في مفاوضة مع الفلانيين، وأن يستوضح منهم سبب حروبهم لبرنو الإسلامية، وتبودلت الرسائل بين الكانمي وزعماء الفلانيين»[١]، ولم تمنع هذه الرسائل من تقدم الفلانيين؛ حيث هاجم أميرهم إبراهيم زكي عاصمة برنو وهرب الماي منها، وقد أدت هذه الأحداث إلى ظهور قوة الشيخ محمد الأمين الكانمي؛ إذ أصبح الحاكم الفعلي في مملكة البرنو التي بدأت شمسها في الأفول، وذلك منذ عام ١٨٠٩م إلى وفاة الشيخ الكانمي عام ١٨٣٥م، وقد صار باستطاعة الكانمي أن يعزل ويولي من يشاء من رجال الدولة ولا يخالف السلطان له أمراً، واتخذ الكانمي من مدينة كاكا (KAKA) مركزاً له.

وبعد وفاة السلطان علي بن دلاتو صار الشيخ حاكماً فعلياً وشرعياً لبرنو، وصار الملوك يُعرفون بالشيوخ بدلاً من لقب (المايات)، وظل لقب (الشيخ) متداولاً في أبناء الشيخ الكانمي وأحفاده حتى القرن التاسع عشر الميلادي؛ حيث تفتت المملكة وتقاسمتها الدول الاستعمارية[٢] بريطانيا وفرنسا وألمانيا في عام ١٨٩٤م.

وهكذا تلاشت مملكة البرنو الإسلامية التي كانت الثقافة الإسلامية هي ثقافتها، واللغة العربية هي لغة التعليم ولغة الدولة الرسمية والمعاملات التجارية والمراسلات الدولية، ولقد بلغ الأسلوب العربي درجة كبيرة من التقدم في المملكة كما يبدو من مؤلفات علمائها، نلاحظ ذلك من خلال الرسائل التي تبودلت بينهم وبين جيرانهم، فمثلاً في رسالة الماي عثمان بن إدريس إلى السلطان أبي سعيد الظاهر برقوق سلطان مصر؛ يتضح مدى ما بلغه الأسلوب العربي من التقدم في تلك البلاد، وهي غنية بالشواهد من القرآن الكريم، مثل قوله في الرسالة بعد ذكر أنهم من بني سيف بن ذي يزن، وأنهم من العرب، وإفساد الأعراب في أرضهم، وقتلهم ملك برنو عمرو بن إدريس؛ قال: «فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى أسوان... فإن بعض الأعراب يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فإنهم جاهلون بكتاب الله وسنَّة رسولنا، فإنهم يزينون الباطل، فاتقوا الله واخشوه... قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ...﴾ [التوبة : ٧١]، وقال تعالى: ﴿... فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ...﴾ [المائدة : ٤٨]، وقال: ﴿... وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ...﴾ [البقرة : ٢٥١]»[٣]، وكذلك المحارم (المراسم) العربية التي أصدرها المايات، ومنها محرم الماي إدريس من الحاج علي (١٦٩٩م - ١٧١٧م)، والذي أصدره في عام ١٧٠٤م بتجديد الامتيازات التي كانت قد مُنحت لفريق من الفلانيين الذين ساعدوا المايات.

وقد ظهر في المملكة عدد من العلماء؛ مثل الشيخ محمد بن ماني الذي كان له فضل كبير في الدعوة إلى الإسلام ونشر تعاليمه، وقد درس بعض المايات القرآن وكتب الدين، مثل الماي بولو الذي حكم عام ١٠٢٠هـ تقريباً[٤]، ومن العلماء الذين اشتهروا في برنو إسحاق بن إبراهيم كانمي الأديب الشاعر الذي دخل على سلطان الموحدي المنصور - في المغرب-

١) إبراهيم طرخان. مصدر سابق. ص ١٣٤.
٢) فضل كلود. مصدر سابق. ص ٣١٠.
٣) فضل كلود الدكو . ص ص (١٧ . ٢٤٣)؛ نقلاً عن القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ج ٨ ص ١١٦ . ١١٧.
٤) إبراهيم طرخان. مصدر سابق. ص ٩٨.

وأنشده قائلاً:

أزال حجابه عني وعيني
تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن
بعد مهابة عند اقترابي[1]

والشيخ أحمد بن فرتو المعاصر لماي إدريس ألوما، والذي تُعد مؤلفاته المرجع الأساس لتاريخ برنو وبخاصة فترة إدريس ألوما. والشيخ أبو بكر الباركوم الذي وصفه الشيخ محمد بلو بقوله: «كان الشيخ عالماً بالمنقول والمعقول، صالحاً تقياً بارعاً، والحاصل أنه بلغ مبلغ الرجال»[2]، وله تآليف عدة؛ منها: نظمه على الكبرى وشرحه، ومنار الجامع في علم التصريف، وله عدة قصائد في نصح الأمراء والحكام والعتاب، ومنها قوله للسلطان عاتباً له لمّا أغلق دونه ومنعه من الدخول بسبب وشاية الحساد:

أتركت باباً لا يُحد مسافةً
وأتيتَ باباً سدَّه بواب
بابٌ يقول فلا تلج وتول من
بخل وكل ضم هذا الباب

والشيخ محمد البكري الذي وصفه محمد بلّو بقوله: «من علماء هذا البلد كانم الإمام العالم العلامة المتقن الفهامة شيخ الشيوخ... محمد البكري، أخذ العربية والبلاغة...»[3].

والشيخ عمر بن عثمان كان في زمن ماي علي بن الحاج (١٥٤٤م – ١٥٨٠م) الذي وصف في المحرم الذي كتبه بأنه عالم واسع الإطلاع غزير العلم والمعارف، أتقن اللغة العربية والمنطق والبلاغة والشريعة والتوحيد فضلاً عن القرآن والحديث[4].

وانتشرت فيها مدارس لتعليم الصغار والكبار، كما في عهد الشيخ محمد الكانمي وعهد خلفائه وبخاصة عهد عمر بن محمد الكانمي (١٨٣٥م – ١٨٨٠م)؛ حيث «نالت كوكه... المدرسة العليا الممتازة، ويدرس فيها حوالي مائتين إلى ثلاثمائة من الشباب الذين يتراوح عمرهم بين عشرين وخمسة وعشرين عاماً»[5].

«والخلاصة أن برنو كانت مليئة بالعلم والعلماء في شتى فنون المعرفة الإسلامية والعربية، فقد سطع في برنو نجم عدد من العلماء الكبار في العلوم الشرعية واللغوية، مثل الشيخ أبي بكر الباركوع الملقب بابن أجروم، ولعل ذلك راجع إلى إتقانه للنحو، والشيخ محمد بن إبراهيم البرناوي، وله كتاب في النحو عنوانه (الدرر اللوامع)، وفيه لفتات نحوية بديعة»[6].

١) آدم الألوري، الإسلام في نيجيريا، ص ٥٩.
٢) محمد بلو، إنفاق الميسور، ص ٣٧.
٣) محمد بلو، المصدر السابق، ص ٣٨.
٤) إبراهيم طرخان، مصدر سابق، ص ١٧٧.
٥) رحالة الألماني رولفس، رحلة عبر إفريقيا، ترجمة عماد الدين غانم، منشورة مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص ٤٥٠.
٦) حققه عبد الرازق حسن محمد، ونال به درجة الماجستير من قسم اللغات النيجرية والإفريقية - جامعة أحمد بلو زاريا عام ١٩٨٠م، انظر: دراسات إسلامية غرب إفريقية، عز الدين عمر موسى، ص ٣٢.

دور القوى الغربية والمؤسسات الدولية والعولمة في إفريقيا

أ.د. سلطان فولي حسن *

عانت القارة الإفريقية منذ الكشوف الجغرافية من التكالب الاستعماري عليها واستنزاف مواردها البشرية والطبيعية، وذلك بأساليب متعددة، كتقديم المساعدات والمنح والقروض المشروطة التي تمثل قيداً للدول الإفريقية، وبعد أن حصلت القارة على استقلالها وتغيرت موازين القوى العالمية بدأت القوى الكبرى تخطط من أجل السيطرة على مواردها وأسواقها؛ مما زاد من معاناتها وتخلفها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي مقارنة بباقي دول العالم الثالث.

■ أولاً: إفريقيا في زمن العولمة:

لا يوجد إقليم في العالم عانى آثار العولمة كما عانت القارة الإفريقية، حيث تتعدد وتتنوع المشكلات الناجمة عنها وبخاصة في الجوانب الاقتصادية، من مشكلة الديون الثقيلة إلى معاناة القارة من تحرير التجارة، والمنافسة والصراع بين الدول الكبرى على موارد القارة الإفريقية ولا سيما موارد الوقود والطاقة.

والعولمة Globalization هي عملية مستمرة تكشف كل يوم عن وجه جديد من وجوهها المتعددة، وهي سلسلة من الظواهر الاقتصادية بالدرجة الأولى، المتصلة في جوهرها، والتي تشتمل على تحرير الأسواق ورفع القيود عنها، وخصخصة الأصول، وتراجع وظائف الدولة، وانتشار استخدامات التكنولوجيا وأدوات الاتصال وتطبيقاتها، وتوزيع الإنتاج التصنيعي عبر الحدود، وتكامل أسواق رأس المال، حيث تقود العالم إلى التحول من الرأسمالية الصناعية إلى مفهوم العلاقات الاقتصادية لما بعد المرحلة الصناعية.

كما أن العولمة متعددة الأبعاد، فهي سياسية وأيديولوجية واقتصادية، والواقع يشير إلى إمكانية عولمة كثير من الأشياء كالسلع والخدمات والأموال والبشر والمعلومات والتأثيرات البيئية، وكذلك يمكن عولمة الأشياء المجردة كالأفكار والأعراف والممارسات السلوكية والأنماط الثقافية.

وهناك من يرى أن العولمة ما هي إلا فترة محددة من التاريخ، بدأت مع بدء الانفراج في علاقة القطبين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وتدعمت أكثر في نهاية الحرب الباردة وانهيار القطب السوفييتي.

*) أستاذ الجغرافيا ووكيل معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة.

وأن الظواهر والجوانب التي تعد الآن جزءاً من العولمة هي في الأساس ظواهر وجوانب موجودة في فترات سابقة، وكانت في حالة تطور إلى أن وصلت إلى هذا الطور من التطور في الفترة الحالية. وما يركز عليه أصحاب هذا الاتجاه هو أن العولمة جاءت مرحلة تاريخية في أعقاب مرحلة الحرب الباردة.

ويرى فريق آخر أن العولمة هي طريق العالم إلى الفوضى، والذي يؤدي بمن يسير عليه إلى ازدياد البطالة، وانعدام الزمن، وتدهور البيئة، وتفشي الأوبئة والأمراض، وتفشي الفساد، وتفجّر كثير من الصراعات العرقية والطائفية والعنف بشكل عام.

ويُقصد بالعولمة من الناحية الاقتصادية التوسع الكبير في التجارة الدولية والاستثمار والحركة السريعة لتدفق رؤوس الأموال وزيادة الديون. وهذه الظواهر كان من المفترض بها أن تقلل من الفساد وتعمل على زيادة التكامل الاقتصادي، إلا أن ما حدث كان العكس!

ومن الجوانب المهمة في اقتصاديات العولمة هيمنة بعض الشركات والمؤسسات الدولية على أنماط معينة من النشاطات الاقتصادية على مستوى العالم كله، وأغلبها مؤسسات وشركات غربية، ومن الأمثلة على ذلك هيمنة نحو ٥٠٠ شركة عملاقة عابرة للقارات على ٧٠٪ من حركة التجارة الدولية، وهيمنة نحو ٣٥٠ شركة على ٤٠٪ من التجارة العالمية.

أما عن العولمة السياسية فهي تدخّل القوى الكبرى في سياسات الدول الأقل حجماً منها باستخدام أساليب متعددة وحجج واهية أو زائفة، منها على سبيل المثال المطالبة بالديمقراطية والحريات وإعطاء مساحة للأحزاب وعدالة المحاكمات.

وتؤثر العولمة أيضاً في الجوانب والنواحي الثقافية من خلال نشر الثقافة الغربية والأمريكية، حتى إنها أدت إلى نشر كثير من المصطلحات مثل الأمركة، واتباع الأسلوب الغربي والثقافة الغربية، ومن الأمثلة على ذلك التوسع الكبير في دول العالم الثالث في نمط الغذاء وانتشار ثقافة الوجبات السريعة والمشروبات الغازية (ماكدونالد، بيتزا هت، كوكاكولا).

وقد اعتمدت العولمة بأشكالها المختلفة الاقتصادية والسياسية والثقافية في الانتشار على عدة عوامل، أهمها الصحافة الدولية، ومؤسسات النشر (المسموعة والمرئية)، والتقدم التكنولوجي ولا سيما تكنولوجيا المعلومات، والتوسع الكبير في استخدام الكمبيوتر والأقمار الصناعية والاتصالات.

وأصبحت العولمة ظاهرة واضحة المعالم وخصوصاً مع نهاية الحرب الباردة وإن كانت تعود في جذورها إلى قرون، ففي الفترة التالية للحرب العالمية الثانية قامت الولايات المتحدة وأتباعها من الدول الغربية المنتصرة في الحرب بوضع إطار جديد للسيطرة على اقتصاديات العالم، وكان من أهم أدواتها الأمم المتحدة، حلف الأطلسي، إنشاء صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، وكذلك إنشاء منظمة التجارة الدولية.

ويضاف إلى ما سبق استخدام كل المؤسسات العالمية في تعزيز العولمة المستدامة، مثل منظمة الصحة العالمية، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة، ومكتب الأمم المتحدة المعني بالجريمة والمخدرات.

وتميزت تلك المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية بسيطرة رؤوس أموال الدول الغربية، والهيمنة السياسية للدول الكبرى،

وعلى رأسها الولايات المتحدة ومجموعة الدول الثماني الكبرى «G8».

وواجهت إفريقيا زيادة كبيرة في ديون القارة ولا سيما خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي؛ مما دفع المؤسسات الدولية، وبخاصة البنك الدولي وصندوق النقد، إلى مطالبة دول القارة بضرورة إجراء برامج التهيئة الهيكلية (SAP)؛ بهدف مواجهة التضخم، وتنشيط النمو الاقتصادي، وخفض العجز في الميزان التجاري، وإعطاء مساحة للاستثمارات الأجنبية ورأس المال المحلي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وكان الهدف الرئيس من برامج التهيئة الهيكلية في إفريقيا هو الإصلاح الاقتصادي والاندماج في الاقتصاد العولمي؛ من خلال بعض الأدوات مثل الخصخصة، وتصحيح نظم التسويق الزراعي، والتسعير، ولكن ترتب على تطبيقها في التسعينيات في العديد من الدول الإفريقية ارتفاع معدلات البطالة وانخفاض الأجور الحقيقية، وتعد سيراليون نموذجاً للصراعات الأهلية التي اندلعت في التسعينيات على خلفية تدهور الأوضاع الاقتصادية.

كما أن سياسة الانفتاح والاندماج في ظل عدم التكافؤ تعطي نتائج سلبية كثيرة، وبالنسبة للإصلاح الهيكلي فإن الأزمة الهيكلية في المجتمع تؤثر في مؤسسات العولمة ومنظماتها بالقدر نفسه الذي تؤثر به في الدول؛ كافتقارها إلى كفاءة الإدارة، والمركزية الشديدة، وسيادة القيم الهرمية... إلخ. وتبرز علاقة مؤسسات العولمة بالدولة من جهة وبالمانحين من جهة أخرى.

■ ثانياً: الولايات المتحدة وإفريقيا:

كان لسقوط حائط برلين وما تبعه من وحدة الألمانيتين في عام ١٩٨٩م، وانهيار الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٩١م ومن ثم نهاية الحرب الباردة، والذي أطلق عليه بعض الكتاب نهاية التاريخ End of History ، تحول العالم إلى عالم أحادي القوى bi-polar world ، تسوده الهيمنة والسيطرة وعدم العدالة، حيث أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية القوة العظمى الأولى في العالم، سواء من الناحية الاقتصادية أو العسكرية، وانفردت بتبني سياسات تحرير التجارة وفتح الأسواق والديمقراطية وحقوق الإنسان كأسس لسياستها الخارجية التي لم يتم تطبيقها بنزاهة أو عدالة كاملة عن عمد منها.

وقد تحددت سياسات الولايات المتحدة الأمريكية تجاه إفريقيا عشية انفرادها كقوة عظمى في الترويج لفكرة نظرية وليست عملية، وذلك حول:

١ - الإصلاح الاقتصادي في إفريقيا، ودمج الاقتصاد الإفريقي في الاقتصاد العالمي.

٢ - زيادة التحول الديمقراطي والحريات الفردية.

٣ - العمل على زيادة الاستقرار السياسي الداخلي للدول الإفريقية.

أما مجال الإصلاح الاقتصادي فقد لوحظ أن بعض الدول الإفريقية استطاعت تحقيق معدل نمو اقتصادي مقبول، إلا أن النمو الاقتصادي في مثل هذه الدول لم يراع البعد الاجتماعي وكان له آثار جانبية، مثل التأثير في قطاع الصحة والتعليم، وهي من أكثر القطاعات التي تأثرت سلباً.

وكان من أدوات الإصلاح الاقتصادي - كما سبق أن ذكرنا - الخصخصة والتي تم إدارتها بأسلوب فاسد، حيث بيعت الوحدات المملوكة للدولة أو القطاع العام لأتباع الحكومات

وأقاربهم ومؤيديهم، وأخفقت الخصخصة في معظم الدول الإفريقية في تحقيق أهم أهدافها وهي جذب الاستثمارات الأجنبية وتوفير رأس المال.

أما الجانب الثاني في السياسة الخارجية الأمريكية تجاه إفريقيا، والذي تمثل في حقوق الإنسان والديمقراطية، فقد تم ربط المساعدات الأمريكية والغربية للدول الإفريقية بمدى الاتجاه نحو تحقيق الديمقراطية وإعطاء مساحة للأحزاب المعارضة ونزاهة الانتخابات وحريات الأشخاص، إلا أن هذه السياسة أيضاً لم تحقق الهدف الرئيس منها، فأثيوبيا على سبيل المثال أقل الدول الإفريقية في الاتجاه نحو الديمقراطية وحريات الأفراد، وهي في الوقت نفسه أكثرها تلقياً للدعم الغربي المادي والمعنوي في إفريقيا جنوب الصحراء باستثناء جمهورية جنوب إفريقيا، ويعد هذا دليلاً على أن القوى العظمى تعمل على تنفيذ استراتيجياتها السياسية واهتماماتها الاقتصادية بغضّ النظر عن النواحي الاجتماعية أو السياسية أو حتى الإيكولوجية.

ولم يتحقق الجانب الثالث من أركان السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية تجاه إفريقيا أيضاً، وهو الخاص بالاستقرار السياسي ونزاهة الحكومات والشفافية وتداول السلطة والقضاء على الفساد، فالفساد لا يزال منتشراً في أغلب الدول الإفريقية، ولا يزال الحكم الديكتاتوري قائماً في العديد من دولها، ومع ذلك تقوم الولايات المتحدة بتدريب القوات الحكومية وإمدادها بالأسلحة في مثل هذه الدول، كما حدث في أثيوبيا وإريتريا وأوغندا، ففي أوغندا هناك حركات تمرد في الشمال، ومع ذلك تقوم أوغندا ورواندا بمساعدة الجماعات المتمردة في الكنغو الديمقراطية.

■ ثالثاً: السياسة الأوروبية تجاه إفريقيا:

تاريخياً؛ كانت الدول الأوروبية في حاجة ماسة إلى الموارد المختلفة الزراعية والمعدنية والغابية، وكانت حاجتها الأكبر فتح أسواق لتصريف إنتاجها الصناعي.

وقد استفادت الدول الأوروبية من اكتشاف القارة الإفريقية في نقل أعداد كبيرة من الأفارقة الزنوج إلى أمريكا الشمالية للعمل في المزارع والمناجم، وذلك لتوفير المواد الأولية اللازمة للصناعة الأوروبية؛ مما أفقد القارة الإفريقية أعداداً كبيرة من سكانها.

واستفادت الدول الأوروبية من إفريقيا أيضاً بجعلها سوقاً كبيراً لإنتاجها، وبذلك اكتملت أضلاع المثلث المعروف: أيد عاملة من إفريقيا إلى أمريكا لتوفير المادة الأولية، والتي تنتقل إلى أوروبا، ثم إنتاج صناعي من أوروبا يسوّق في إفريقيا.

في المرحلة التالية حدث بين الدول الأوروبية نوع من الصراع الشديد كاد أن يؤدي إلى حروب كبيرة؛ لكنه أدى إلى عقد ما عُرف بمؤتمر برلين ١٨٨٤م - ١٨٨٥م لتقسيم القارة الإفريقية بين الدول الأوروبية واحتلالها كمستعمرات.

كان للقوى العظمى في ذلك الوقت فرنسا والمملكة المتحدة نصيب الأسد، حيث خرجت الأولى بمجموعة من المستعمرات امتدت على شكل حزام عرض شرقي غربي؛ من السنغال في أقصى الغرب إلى جيبوتي والصومال في أقصى الشرق فيما عرف بدول الأنجلوفون. أما المملكة المتحدة فكان لها هي الأخرى النصيب الأوفر، وكان مختلف الامتداد، حيث أخذ الاتجاه الشمالي الجنوبي؛ من جنوب إفريقيا جنوباً إلى مصر شمالاً.

وحصلت الدول الأوروبية الأخرى على نصيبها من المستعمرات وإن كان أقل من غيره، فمثلاً حصلت بلجيكا على الكنغو، والبرتغال على أنجولا وموزمبيق، وإيطاليا على ليبيا وإريتريا وهكذا.

وقد قامت الدول الأوروبية خلال مدة استعمارها للدول الإفريقية بربط اقتصادياتها بأوروبا بوصفها مصادر للمواد الأولية اللازمة لصناعاتها وأسواقاً لتصريف إنتاجها الصناعي، كما ربطتها بعملاتها، فأصبحت الدول التابعة لفرنسا تتعامل بالفرنك وتُعرف بدول الفرنكفون، بينما الدول التابعة للمملكة المتحدة تُعرف بدول الأنجلوفون.

وقد عملت الدول الغربية على وأد كل محاولة لتغيير نمط الاقتصاد الإفريقي في مستعمراتها أو كل بادرة نحو التصنيع، وذلك حتى تظل هذه المستعمرات تابعة لها ومموِّلاً لصناعاتها ودافعاً لتنميتها وزيادة ثرواتها.

في عقد الستينيات وما تلاه حصلت معظم الدول الإفريقية على استقلالها، واتجه بعضها نحو إحداث نوع من النمو الاقتصادي، إلا أن سياسة الدول الغربية كانت تجتهد في عدم تشجيع مثل هذا الاتجاه حتى تظل إفريقيا مصدراً للمواد الأولية رخيصة الثمن منخفضة القيمة، وتظل سوقاً للمنتجات الغربية.

فعلى سبيل المثال عندما ظهرت بوادر تنمية صناعية في مصر قبل الاستقلال، بقيادة الاقتصادي المصري العظيم (طلعت حرب)، وذلك من خلال إنشاء بنك مصر وقيام البنك بتمويل بعض الصناعات وعلى رأسها صناعة الغزل والنسيج؛ قامت بريطانيا بإحباط التجربة والادعاء بأن مصر بلد زراعي وليس صناعياً، وقد حدث الشيء نفسه مع العديد من الدول الإفريقية.

من المعلوم من الناحية الاقتصادية أن السلع الصناعية تكون أكثر قيمة وعائداً في حال تصديرها مصنعة بدلاً من تصديرها في شكل مواد أولية، ومن ثم فإن التصنيع هو الأداة الرئيسة الفاعلة والقادرة على تنمية الدول الإفريقية، وخصوصاً وهي تملك أدواته من أيد عاملة ومواد أولية وسوق واسع وكبير، إلا أن تحقيق ذلك ليس في مصلحة الدول الغربية.

وقد قامت سياسة الدول الغربية في المرحلة التالية على ضمان السوق الإفريقي والمواد الأولية المعدنية والزراعية والغابية ومصادر الوقود والطاقة وغيرها؛ من خلال الضغط على الدول الإفريقية من قبل منظمة التجارة العالمية لفتح الأسواق وتحرير التجارة.

وكان من نتائج ذلك التأثير السلبي في الاقتصاد الإفريقي، حيث انهارت الصناعات القليلة التي كانت قائمة، وانخفضت قيمة صادراته الأولية، وزادت بشكل واضح قيمة وارداته، وبمعنى أشمل أصبح الاقتصاد الإفريقي مهمشاً عن الاقتصاد العالمي.

من تحليل البيانات نلاحظ أن صادرات القارة الإفريقية انخفضت من ٤،١٪ في عام ١٩٨٠م من جملة التجارة الصادرة في العالم إلى نحو ١،٦٪ في عام ٢٠٠٥م، كما انخفض نصيب القارة الإفريقية من حجم الواردات العالمية من ٣،٢٪ إلى ١،٣٪ في الفترة نفسها، وكذلك انخفض نصيب القارة الإفريقية من التجارة الدولية خلال الفترة نفسها من ٨٪ إلى ٤،٤٪.

■ رابعاً: السياسة الصينية تجاه إفريقيا:

يمكن إرجاع الاهتمام الصيني بإفريقيا وبلوغ هذا الاهتمام ذروته في السنوات الأخيرة لسببين رئيسيين:

– أن الصين ترى توطيد العلاقات مع إفريقيا من العوامل الرئيسة في بلوغها مرحلة القوة العظمى.

– أنها تهتم بمنافسة الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية على مصادر الطاقة الإفريقية، ولا سيما البترول والغاز الطبيعي وغيرها من الموارد الطبيعية والمعدنية المهمة اللازمة للتنمية الصينية، ولا يمكن إغفال أهمية الأسواق الإفريقية لتسويق الإنتاج الصيني المنافس بقوة للإنتاج الأمريكي والغربي.

وقد أصبحت السياسة الصينية تجاه إفريقيا أكثر نشاطاً في السنوات الأخيرة، وقد اعتمدت الصين في تنفيذها على عاملين أساسيين؛ هما تكريس رؤية الدول الإفريقية للشركات الصينية العاملة في مجالات الطاقة بوصفها أفضل وأقل مخاطرة من الشركات الغربية متعددة الجنسيات.

وهناك الكثير من الدول الإفريقية التي ترى في السياسة الصينية نحو إفريقيا في مجال التنمية أنها الأفضل، وترى في النموذج الصيني في مجال التنمية الاقتصادية والسياسية مثلاً تحتاج الكثير من الدول الإفريقية إلى أن تقتدي به، وخصوصاً للهروب من السياسة الأمريكية والغربية تجاه إفريقيا، والتي لها شروط ضاغطة في مجال التنمية الاقتصادية وتقديم المساعدات، مثل الإصلاح السياسي والحريات وغيرها؛ مما دفع الكثير من الدول الإفريقية إلى قبول المساعدات الصينية التي تُقدم دون شروط.

ويمكن أن نلخص السياسة الصينية تجاه إفريقيا في:

١ – أن الصين بوصفها قوة عظيمة تختلف في الكثير من الأشياء عن الولايات المتحدة، وفي تفهمها لاحتياجات التنمية الاقتصادية لإفريقيا، ومن أهمها احتياج الأفارقة إلى مساند قوي ضد الغزو التجاري الغربي لإفريقيا من خلال تحرير التجارة.

٢ – اتجاه الصين نحو زيادة فاعلية الدول الإفريقية المهمشة، أو التي ليس لها دور مؤثر في المجتمع الدولي، أو الدول التي تعاني صراعات داخلية مثل السودان وزمبابوي وليبيريا.

٣ – عدم تدخل الصين في السياسات الداخلية للدول الإفريقية، وكذلك عدم التدخل في المنظمات والتجمعات الإقليمية الإفريقية، وإن كان ذلك لا ينفي تطوير علاقاتها بالأحزاب الاشتراكية، وامتداد نشاطاتها إلى برامج ومشروعات تتعلق بإيجاد وتكوين نخب تابعة لها، ووضعها شروطاً لتعاونها تمس السياسات الداخلية للدول المتعاونة معها.

٤ – زيادة زيارات قادة الصين للدول الإفريقية للتفاهم وتوقيع الاتفاقيات الاقتصادية والسياسية.

وتعتمد الصين في تنفيذ سياساتها تجاه القارة الإفريقية على مجموعة من الأدوات مثل المساعدات، حيث قررت الصين زيادة حجم المعونات المقدمة للدول الإفريقية، والتي زادت من ١٠٠ مليون دولار منذ نحو عقد من الزمان إلى نحو ٢،٧ مليار دولار في الوقت الراهن. كما تعتمد الصين على أن يكون تقديم المساعدات إلى الدول الإفريقية عن طريقها مباشرة بعيداً عن المنظمات الدولية أو الإقليمية.

وتتمثل الأداة الثانية التي تعتمد عليها السياسة الصينية تجاه إفريقيا في زيادة انتشار اللغة والثقافة الصينية، وذلك عن طريق توفير أعداد كبيرة من المنح الدراسية، حيث تم تخصيص نحو ١٢٠ ألف منحة دراسية لطلاب

أفارقة للدراسة في الصين في عام ٢٠٠٨م؛ بعد أن كانت لا تتجاوز نحو ثمانية آلاف قبل عشر سنوات.

وتعد زيادة التبادل التجاري بين الصين وإفريقيا وقيام الشراكة التجارية بينهما هي الأداة الثالثة في تنفيذ السياسة الصينية تجاه القارة الإفريقية، حيث أصبحت الصين في المرتبة الثالثة من حيث التبادل التجاري بين إفريقيا والعالم، ومن حيث حجم الاستثمار الأجنبي في القارة الإفريقية.

وتمثلت قمة السياسة الصينية الخارجية تجاه إفريقيا في نوفمبر ٢٠٠٦م؛ عندما استضافت الصين ٤١ رئيساً إفريقياً في لقاء التعاون الصيني الإفريقي، وكان اللقاء الثاني في مصر في عام ٢٠٠٩م.

■ خامساً: التكالب الدولي على البترول والغاز الإفريقي:

أصبحت القارة الإفريقية من أقاليم العالم المنتجة والمصدرة للبترول والغاز الطبيعي، ومن المأمول زيادة الإنتاج والصادرات في السنوات القليلة القادمة، مع تكثيف عمليات البحث والتنقيب عن البترول والغاز الطبيعي في أقاليم جديدة من القارة الإفريقية.

وكان لموقع القارة الإفريقية المتوسط والقريب من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية دور مهم في زيادة أهمية البترول الإفريقي في سد احتياجاتها من البترول والغاز الطبيعي، لا سيما مع ضعف الاستهلاك الإفريقي ووجود فائض كبير للتصدير.

وتعوّل الصين بدرجة كبيرة على البترول الإفريقي في سد العجز الكبير في إنتاجها من البترول والغاز الطبيعي، إلى جانب نمو وارداتها في السنوات القادمة مع زيادة معدلات النمو الاقتصادي، مما دفع بالصين إلى الدخول بقوة في السيطرة على بعض مناطق إنتاج البترول في إفريقيا، وذلك عن طريق الحصول على عقود امتياز للتنقيب والإنتاج في أقاليم متعددة من القارة الإفريقية، كما هو الحال في السودان ونيجيريا وأنجولا.

وكان السودان أهم مسارح المنافسة بين الشركات الأمريكية والغربية والصينية، حيث حصلت الشركات الأمريكية والغربية والكندية على مناطق امتياز للتنقيب وإنتاج البترول في السودان، إلا أنه في عام ١٩٩٢م عندما فرضت الحكومة الأمريكية عقوبات على السودان وقامت بإخراج شركاتها البترولية وعلى رأسها شركة شيفرون، وتبعتها الشركات الغربية والكندية؛ قامت الحكومة السودانية بإعطاء مناطق الامتياز السابقة لشركات صينية وآسيوية.

وكانت الشركات الأمريكية والغربية هي المهيمنة على إنتاج البترول في نيجيريا أكبر الدول الإفريقية المنتجة للبترول؛ إلا أن الصين استطاعت الحصول على بعض الامتيازات البترولية في نيجيريا؛ بعد أن قامت بتقديم بعض المساعدات لمد خطوط السكك الحديدية وعمل مشروعات تنمية زراعية. وكذلك الحال في أنجولا التي تعد من أكبر الدول الإفريقية المنتجة للبترول، فقد استطاعت الصين الحصول على بعض مناطق الامتياز للتنقيب والإنتاج بعد أن كان الإنتاج مقصوراً على الشركات الأمريكية والغربية، وذلك بعد أن رفضت الدول الغربية تقديم المساعدات لأنجولا، فحصلت عليها من الصين.

ويمكن القول بأن هناك ارتباطاً بين الدول الإفريقية المنتجة للبترول والدول الاستعمارية الغربية، ولا سيما في الدول التي بدأ إنتاج

البتـــرول بها خلال الحقبة الاســـتعمارية، ومن أوضح الأمثلـــة على ذلك الجزائر، حيث تهيمن الشـــركات الفرنســـية على النصيب الأكبر من إنتـــاج البتـــرول بها، وكذلك الحال في تشـــاد والسنغال.

ففي تشاد حيث تدار حرب أهلية وحركات تمـــرد ضد الحكومـــة، اســـتطاعت الحركات المتمردة فـــي عام ٢٠٠٨م الوصول إلى القصر الرئاســـي ومحاصرتـــه، وكادت الحكومـــة أن تســـقط لولا تدخل القوات الفرنســـية حفاظاً على مصالحها البترولية في تشاد، مما أدى إلى إحباط حركة التمرد.

■ المراجع العربية والأجنبية:

١ – الســـيد ياســـين: العالمية والعولمة. القاهرة. نهضة مصر للطباعة والنشـــر – ٢٠٠١م.

٢ – جمعية الدعوة الإســـلامية العالمية: ندوة العولمة. طرابلس – ليبيا – ١٩٩٨م.

٣ – حمـــدي عبـــد الرحمـــن: إفريقيا وتحديات عصـــر الهيمنة.. أي مســـتقبل. القاهرة – مكتبة مدبولي – ٢٠٠٦م.

٤ – السياسة الامريكية تجاه إفريقيا من العزلة إلى الشـــراكة. القاهرة – السياســـة الدولية – أبريل ٢٠٠٠م.

٥ – قاســـم حجاج: العالميـــة والعولمة.. نحو عالمية متعددة وعولمة إنسانية، دراسة تحليلية مقارنة للمفهومين. الجزائر – نشرة جمعية التراث ٣ – ٢٠٠٣م.

٦ – محمد عبد القـــادر حاتم – العولمة ما لها وما عليهـــا. القاهرة – الهيئة العامة للكتاب – ٢٠٠٥م.

٧ – محمد صفـــوت قابيل: الدول النامية والعولمـــة. القاهرة – دار الحكمة للنشـــر والتوزيع – ٢٠٠٣م.

٨ – معهد البحوث والدراسات الإفريقية: العولمة وأثرهـــا على إفريقيـــا. مجموعة بحوث مطبوعة – مارس ١٩٩٩م.

9. agwanja Peter(2009), China's Hard power in Africa , African Policy Institute, Pretoria, South Africa.
10. Munene Macharia(2005), Africa and Shifting Global Power Relationship, Fletcher Forum of World Affairs vol. 29, no.2, pp. 117-124.
11. Nkiwane, Tandeka C.(2001), Africa and International Relations: Regional Lessons For a Global Discourse, International Political Science Review, vol. 22, no. 3, pp. 279-290.
12. Obi, Cyril I., Scrambling for Oil in West Africa., Nordic Africa Institute, Uppsala at web site:www.esas.2007.aegis-eu.org Date/30/1/2010.
13. Subramanian, ARvind (2003), is Africa Integrated in the Global Economy, IMF Staff Papers, vol. 50, No.3, pp.352-372.

المساعدات الغربية
وأثرُها في التنمية في إفريقيا

أ . د . سلوى يوسف درويش (*)

يعود تاريخ المساعدات الغربية إلى يوليو من عام ١٩٩٤م مع تأسيس البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، كانت المساعدات في البدء محدودة، وتأتي من أوروبا نحو مستعمراتها الإفريقية.

أصبحت معظم المنح بعد استقلال الدول الإفريقية ذات هدف سياسي في الأساس، وهو إبعاد الدول الإفريقية عن الاتحاد السوفييتي والنظام الاشتراكي إجمالاً، وجذبها نحو الدول الغربية والنظام الرأسمالي.

ومع الارتفاع الكبير في أسعار البترول في السبعينيات عانت الدول الإفريقية أزمة اقتصادية، وأصبح هناك عجز شديد في ميزانياتها، دفعها نحو التوسع في الاقتراض من الدول المانحة ومن المؤسسات الدولية كالبنك الدولي وصندوق النقد، حتى صارت الدول الإفريقية مكبلة بالديون، وميزانياتها غير قادرة على سداد خدمة الدين لا الديون نفسها، بل إن هناك إحدى عشرة دولة أعلن صندوق النقد إفلاسها بعد مراجعة ميزانياتها في هذه المدة.

في الثمانينيات، ومع الاتجاه نحو تحرير التجارة والخصخصة، قام البنك الدولي وصندوق النقد بمنح القروض والمنح للعديد من الدول الإفريقية، وذلك من أجل تطبيق سياسات تحرير السوق والعمل لتنمية الصناعات المحلية.

في نهاية الثمانينيات أصبحت كثير من الدول الإفريقية عاجزة عن سداد فوائد الديون للدول الغنية، وظهرت مطالبات بإسقاط الديون Debt Relief ؛ مما دفع الدول الغربية والدول المانحة إلى استغلال هذا الوضع، فقامت بزيادة المساعدات من أجل إحياء الديون، وإغراق الدول الإفريقية في المزيد منها، لتكبيل إرادتها السياسية، ومن ثم ضمان تبعيتها للغرب واستغلالها اقتصادياً[١].

حصلت إفريقيا في الأعوام الخمسين الماضية على نحو تريليون دولار، وهو مبلغ كاف لإحداث كثير من النمو الاقتصادي لو أُحسن توظيفه، إلا أنه لم يتم الاستفادة منه بشكل كامل في مشروعات التنمية؛ نظراً

*) أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة.

١) موقف الدول الإفريقية وتذمر بعضها من شروط المساعدات والقروض الممنوحة لها من الغرب. وقد جاء ذلك على لسان بعض الرؤساء الأفارقة مثل رئيس السنغال.
وقد يعد ترحيب الدول الإفريقية وفتح أبوابها للصين تعبيراً عملياً عن الرفض، والبحث عن بدائل تجد فيها الاحترام المتبادل، وليس السعي لفرض الهيمنة والنفوذ وفرض الشروط والتدخلات. وفيما يتعلق بالتدخلات: فقد رأى معظم المشاركين في «مؤتمر دبرن» ٢٠٠٢/٠٧/١٤م أن يمنع «الاتحاد الإفريقي» الآخرين من التدخل في الشؤون الداخلية للقارة - (قراءات إفريقية).

لانتشار الفساد والرشـــوة والمحسوبية، وكانت ذروة الحصول على المســـاعدات في المدة من ١٩٧٧م – ١٩٩٨م، وعلى الرغم من ذلك لوحظ ارتفـــاع معدل الفقر فـــي إفريقيا من ١١٪ إلى ٦٦٪، وفـــي الوقت الحاضر يُقدّر عدد الفقراء في إفريقيا بنحـــو ٦٠٠ مليون فرد من إجمالي مليار نسمة تعداد إفريقيا في الوقت الحاضر، ومع ذلك لا يمكن إنكار أن المساعدات كان لها دور في تحســـين الأحوال الصحية والتعليمية، وفي بعض النواحي الخاصة بالبنية الأساســـية في إفريقيا.

وتشـــكّل المســـاعدات في بعـــض الدول الإفريقية جزءاً لا يُستهان به من ميزانيات هذه الدول، فعلى ســـبيل المثال تشكّل المساعدات في أثيوبيا ما يربو على ٩٧٪ من ميزانية الدولة، وتُقدّر بنحو ٥٦٪ في ليبيريا.

وهناك بعض الدراسات التي تمت حول دور المعونـــات في التنميـــة الاقتصادية في أقاليم مختلفة من العالم، ووجد أن المعونات كان لها دور إيجابي في رفع معدلات التنمية الاقتصادية والنمو، وخفض معدلات الفقر، ورفع مســـتوى المعيشـــة في العديـــد من الدول المســـتقبلة للمعونات في أمريكا اللاتينية وفي آسيا؛ بينما أخفقت المعونات المقدمة لإفريقيا في إحداث الأثر نفســـه بســـبب سياســـة الدول الغربية، ورغبتهـــا في عدم الســـماح للـــدول الإفريقية لإحراز تقـــدم اقتصادي، إلى جانب الفســـاد السياســـي والمالي والإداري، وغياب الشفافية والرقابة والمحاسبة، وغيرها من العوامل.

وتُعد العوامل الثقافية الممثلة في العادات والتقاليـــد والقيم الســـائدة، والتـــي لم تؤخذ في الحســـبان عند إقامة مشـــروعات التنمية، من أهم العوامل التـــي أدت إلى إخفاق معظم هذه المشـــروعات في القارة الإفريقية، بل إن الأضـــرار الناتجة عن المســـاعدات المقدمة لإفريقيا فاقت كثيراً ما أحدثته من تغيير ونمو، بل ســـاعدت على زيادة تبعية الدول الإفريقية أكثر مـــن تنميتها؛ مما جعـــل بعضهم يطالب بضرورة التخلص منهـــا وعدم الاعتماد عليها، وزيادة الاستفادة من الموارد المحلية حتى تكون الدول الإفريقية سادة قراراتها[1].

■ عوامل زيادة المساعدات لإفريقيا:

تضم إفريقيا فـــي منطقة جنوب الصحراء ١١٪ من ســـكان العالم، ولا تساهم إلا بنحو ١٪ من جملة الناتج العالمي، يضاف إلى ما ســـبق أن ٤٣٪ من ســـكان إفريقيا الذين يبلغ عددهم نحو مليار نسمة يعيشون بأقل من دولار يومياً، وتعانـــي ٢٣ دولة فـــي العالم نقـــص التغذية Mal nourish حســـب تصنيف منظمة الصحة العالمية؛ منهـــا نحو ١٧ دولة إفريقية، يضاف إلى ما سبق انتشار الملاريا والإيدز في العديد من الدول الإفريقية، إضافة إلى عدم الاستقرار السياسي والأمني بســـبب الصراعات القبلية والحروب الأهلية؛ كما هـــو الحال في كل من:

١) التدخلات الخارجية منطوية على عدد من الأخطار؛ منها:
- تكبيل اقتصاد دول القارة، وإبقاؤه تحت الوصاية والهيمنة الخارجية.
- استنـــزاف الثروات الداخلية والمواد الخام، أو على الأقل تعســـير طرق الاستفادة منها أمام أهل القارة أنفسهم؛ لأن الاتّكال الدائم على المساعدات والاستثمارات الخارجية يدفع الشعوب نحو التوجه الاستهلاكي ويزيد منه، ولا يسمح بظهور بوادر العمل الإنتاجي المعتمد على تلك الثروات الداخلية.
- تقليص التعاون التبادلي بين دول القارة، ولا سيما دول شمال الصحراء من جهة ودول جنوبها من جهة أخرى، وهذا واقع مترتب تلقائياً عن فتح أبواب دول القارة للمتدخلين من خارجها.
- إجبار الدول الإفريقية على إعادة صياغة العلاقة بين الدولة والسوق؛ بما يعطي الأسواق مساهمة ومزيداً من الحرية؛ بعد أن كانت الدولة حجر الزاوية في الحياة الاقتصادية والسياسية.
- النفاذ إلى المشروعات الاستراتيجية التي ترتبط بخصوصية الدولة وهوية المجتمع، وبخاصة مشروعات التعليم.
- التأثير في البعد الإسلامي لكونه المستهدف الرئيس، وذلك لطمس معالمه التي تمثل أبرز جوانب الهوية والتاريخ والحضارة في إفريقيا - (قراءات إفريقية).

السودان، أنجولا، تشاد، رواندا، بوروندي، الكونغو الديمقراطية.

كما تعاني القارة الإفريقية ارتفاعاً في معدل وفيات الأطفال الرضع، مع انخفاض أمد الحياة Life expectancy، مع إرتفاع معدل وفيات البالغين بسبب الإيدز.

لقد تمت مضاعفة المساعدات المقدمة لإفريقيا مرات عدة في الستينيات، وفي أعقاب الحرب الباردة، وفي ٢٠٠٥م عندما قررت مجموعة دول الثماني الكبرى مضاعفة المساعدات المقدمة لإفريقيا، ويعدّ خفض الديون الإفريقية من ضمن المساعدات المقدمة لإفريقيا، والتي بدأت في عام ١٩٧٩م عندما قرر «نادي باريس» تحويل جزء من الديون الإفريقية إلى منح.

■ دور المساعدات في خفض الفقر في إفريقيا:

يمكن القول بأن المساعدات الغربية المقدمة لإفريقيا؛ كان لها بعض الآثار الإيجابية المحدودة في النواحي الاقتصادية والاجتماعية، والتي يمكن رصدها فيما يأتي:

❖ حدث نوع من التحسّن في الحد من وفيات الأطفال، ولا سيما الوفيات بسبب الملاريا والعمى النهري، حيث لوحظ انخفاض معدلات وفيات الأطفال الرضّع على مدار العقود الأربعة الماضية، كما تشير إلى ذلك بيانات منظمة الصحة العالمية، وذلك نتيجة لانتشار التطعيم، وخفض أسعار الدواء، وتقديم مساعدات الأدوية وعلى رأسها المضادات الحيوية.

ويتضح أثر التحسّن في النواحي الصحية من انخفاض معدل وفيات الأطفال من ١٦٥ حالة وفاة / ألف مولود في عام ١٩٦٥م، إلى نحو ١٠٢ حالة وفاة / ألف مولود في عام ٢٠٠٥م.

❖ حدث أيضاً على المستوى الصحي نوع من التحسّن يمكن ملاحظته من زيادة أعداد المراكز الصحية والمستشفيات، وتحسين كفاءة القائمين على الرعاية الصحية، وعلى الرغم من ذلك لم يتم الوصول إلى المستوى المأمول، حيث تشير بعض الدراسات إلى اختفاء ما يتراوح بين ٣٠ – ٧٠٪ من الأدوية التي تُقدم على شكل مساعدات طبية، في دول مثل: غينيا، الكاميرون، أوغندا، تنزانيا، قبل وصولها إلى المرضى والمصحات.

❖ كما حدث أيضاً بعض التحسّن في مجال التعليم، سواء على مستوى التعليم العام الابتدائي أو الثانوي، ممثلاً في التحسّن في سنّ الالتحاق بالتعليم وخفض معدلات التسرب، وقد زاد الالتحاق بالتعليم الثانوي من ٢،٥٪ ١٩٦٠م من عدد من هم في سنّ الالتحاق بالتعليم الثانوي، إلى نحو ٣٣٪ ٢٠٠٥م.

❖ أما في مجال البنية التحتية Infrastructure ؛ فقد حدث تحسّن كبير منذ الاستقلال حتى الآن، حيث زادت أطوال الطرق المرصوفة، كما حدثت زيادة واضحة في مجال توليد الكهرباء وأعداد المستخدمين لها، وأيضاً في معدل الحصول على مياه شرب نقية.

ففي مجال تحلية المياه والإمداد بالمياه الصالحة للشرب؛ زادت نسبة السكان الذين يحصلون على مياه صالحة للشرب من ٢٠٪ من السكان في عام ١٩٧٠م إلى نحو ٦١٪ في عام ٢٠٠٥م؛ من خلال المساعدات الموجهة نحو إقامة محطات التحلية، ومعالجة مياه الشرب، ومد الشبكات الخاصة بالتوزيع.

ومن مراجعة المساعدات التي قُدمت للدول الإفريقية اتضح أنها تكون أكثر فائدة ومنفعة للسكان عندما تكون موجهة لمشروعات بعينها، ولا سيما في مجال البنية الأساسية؛ مثل إنشاء محطات الكهرباء أو تحلية المياه وتنقيتها أو رصف الطرق، وتكون أكثر عائداً على السكان من المساعدات المادية المباشرة.

■ دور المساعدات في برامج الإصلاح الهيكلي:

رأى البنك الدولي أن السبب الرئيس وراء انتشار الفقر في القارة الإفريقية يرجع إلى اختيار سياسات اقتصادية غير ملائمة للتنمية الاقتصادية، حيث لوحظ أن معظم المشروعات، سواء الزراعية أو الصناعية أو الخدمية، مشروعات خاسرة لا تحقق أرباحاً، وبها عمالة زائدة عن المطلوب أو بطالة مقنعة، مما دفع بالبنك الدولي وصندوق النقد إلى وقف القروض المقدمة لإفريقيا حتى تقوم بتنفيذ برامج خاصة بالإصلاح الهيكلي.

تمثلت أهم ملامح هذه البرامج في الاتجاه نحو اقتصاديات السوق، وزيادة مساهمة القطاع الخاص في النشاط الاقتصادي نظراً لعدم توفر رؤوس الأموال، وكان الهدف من ذلك جذب الاستثمارات الأجنبية نحو إفريقيا لحل مشكلات نقص رؤوس الأموال، وتوسيع دور القطاع الخاص في النشاط الاقتصادي عن طريق شراء الوحدات الخاسرة التي يديرها القطاع العام أو المشاركة فيها، إلى جانب المساهمة في إقامة مشروعات جديدة؛ مما يوفر السيولة النقدية للدولة والعملات الصعبة لتنفيذ مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وقد وُجد مع الممارسة الفعلية أن معظم المشروعات بيعت بأسعار زهيدة أقل كثيراً من قيمتها الحقيقية، وفي أغلب الأحوال كان المشترون من أقارب رجال السلطة وقبيلتهم ومعارفهم، بل إن كثيراً من صفقات بيع القطاع العام في العديد من الدول الإفريقية كانت تتم بالرشوة والطرق غير القانونية، مما أضاع ثروة كبيرة من هذه الدول، ولم تحقق الخصخصة الهدف منها.

ويُستخدم جزء من المساعدات في إعادة هيكلة العديد من المشروعات الخاسرة قبل بيعها؛ من خلال إعادة التهيئة والصيانة وغيرها.

وقد ربطت الدول المانحة المساعدات بتحسين الأحوال الإنسانية ولا سيما في مجالات بعينها؛ مثل الحريات، الديمقراطية، نزاهة الانتخابات، المحاكمات العادلة، القضاء على الفساد، مساعدات موجهة نحو الجمعيات الأهلية والمجتمع المدني لتكون أكثر فاعلية في الإصلاح وتنفيذه.

وهناك العديد من الدراسات التي تمت حول دور المساعدات في النمو الاقتصادي للدول الإفريقية، والتعديلات المطلوبة في سياسة تقديم المساعدات الغربية للدول الإفريقية، وقد خلصت معظم هذه الدراسات إلى أن المساعدات يكون لها دور إيجابي في النمو الاقتصادي في حالة الدول التي لديها ميزان تجاري معتدل وميزانيات موزعة توزيعاً متوازناً على القطاعات والنشاطات الاقتصادية والاجتماعية والخدمية وسياسات تجارية واضحة، وتكون أقل تأثيراً في النمو الاقتصادي في حالة الدول التي ليس لديها سياسات واضحة.

وهناك الكثير من العوامل التي تعوق دور المساعدات الغربية في إحداث النمو الاقتصادي لدى المجتمعات الإفريقية التي تتلقى المساعدات.

ومن أهم المعوقات التي تمت الإشارة إليها:

- ضعف المؤسسات.
- نظم الحكم الدكتاتورية.
- ضعف العدالة ودور المحاكم.
- عدم الاستقرار السياسي والعنف.
- عدم إتاحة مساحة لمساهمة القطاع الخاص في النشاط الاقتصادي والاجتماعي.
- ارتفاع نسبة الفساد، حيث لوحظ أن المساعدات تؤدي إلى زيادة الفساد، ولا سيما في الدول التي تنتشر فيها القبلية.

ومن الحلول المقترحة لزيادة فاعلية المساعدات والمعونات الغربية المقدمة للدول الإفريقية؛ أن تكون المساعدات غير مادية؛ مثل المنح الدراسية التي تساعد على توفير فرق العمل في المجالات المختلفة التي يمكن أن تتولى عملية التنمية بأشكالها المتنوعة، بالإضافة إلى إقامة المشروعات الخدمية (الصحية، الطرق، المستشفيات، محطات المياه، الكهرباء)، إلى جانب توفير الكتب والمراجع للمؤسسات التعليمية، واستصلاح الأرض، وتقديم المعدات والآلات الزراعية، وبرامج التدريب عليها؛ من أجل زيادة الإنتاج والإنتاجية.

وقد أوصى «نادي باريس» في عام ٢٠٠٥م بضرورة أن تجد الدول المانحة آلية لوضع المساعدات في مسارها الصحيح في الدول المستقبلة لها.

ويوضح الشكل البياني الآتي نصيب الدول الإفريقية المستقبلة للمساعدات الغربية في عام ٢٠٠٥م، ومنه نلاحظ:

■ ترتيب الدول الأفريقية حسب نصيبها من المساعدات عام ٢٠٠٥م

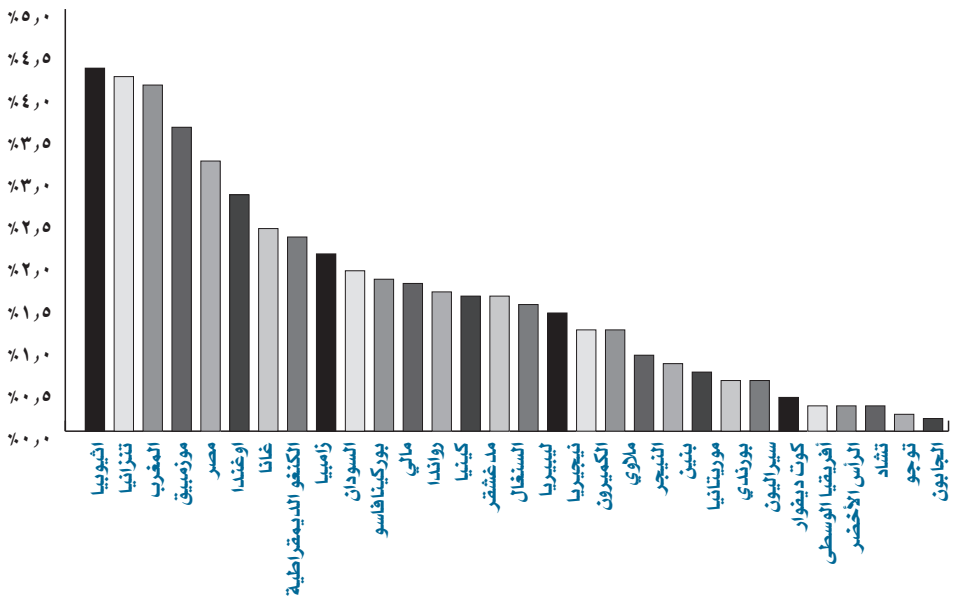

❖ أن هناك نحو إحدى وثلاثين دولة إفريقية تحصل على المساعدات الغربية، تنتشر وتتوزع في أقاليم القارة الإفريقية كافة في الشمال والجنوب والشرق والغرب والوسط.

❖ يُقدر عدد الدول المستقبلة للمساعدات في العالم بنحو ٥٥ دولة، تشكّل الدول الإفريقية العدد الأكبر منها.

❖ تأتي أثيوبيا في مقدمة الدول الإفريقية من حيث تلقي المساعدات، حيث قُدر نصيبها ٤،٤٪ من إجمالي المساعدات المقدمة من الدول الغربية والمؤسسات الدولية المانحة، ويرجع السبب إلى أن أثيوبيا تأتي في المرتبة الثانية بين الدول الإفريقية من حيث الحجم السكاني بعد نيجيريا، وتُصنف حسب تصنيفات البنك الدولي ضمن الدول الأكثر فقراً في العالم.

❖ تحتل تنزانيا المرتبة الثانية بين الدول الإفريقية من حيث تلقي المساعدات، ويصل نصيبها إلى نحو ٤،١٦٪ من إجمالي المساعدات في عام ٢٠٠٥م؛ في حين تأتي المملكة المغربية في المرتبة الثالثة بنسبة ٤،٠٤٪، ثم موزمبيق في المرتبة الرابعة بنسبة ٣،٥٤٪، في حين تأتي مصر في المرتبة الخامسة بنسبة تصل إلى نحو ٣،١٣٪.

❖ وتشغل المراكز من السادس إلى التاسع كل من: أوغندا، غانا، الكنغو الديمقراطية، زامبيا، ويتراوح نصيب كل منها ما بين أقل من ٣٪ إلى أكثر من ٢٪.

❖ ويلي ذلك مجموعة من الدول التي تتراوح حجم المساعدات التي تتلقاها ما بين أقل من ٢٪ وأكثر من ١٪؛ مثل السودان، بوركينا فاسو، مالي، رواندا، كينيا، مدغشقر، السنغال، ليبيريا، نيجيريا، الكاميرون، ملاوي.

وأما نسبة الدول الغربية من المساعدات الدولية المقدمة إلى إفريقيا عام ٢٠٠٥م، فيوضحها الشكل البياني التالي، ومنه نلاحظ ما يأتي:

■ نسبة الدول الغربية من المساعدات الدولية المقدمة لأفريقيا عام ٢٠٠٥م

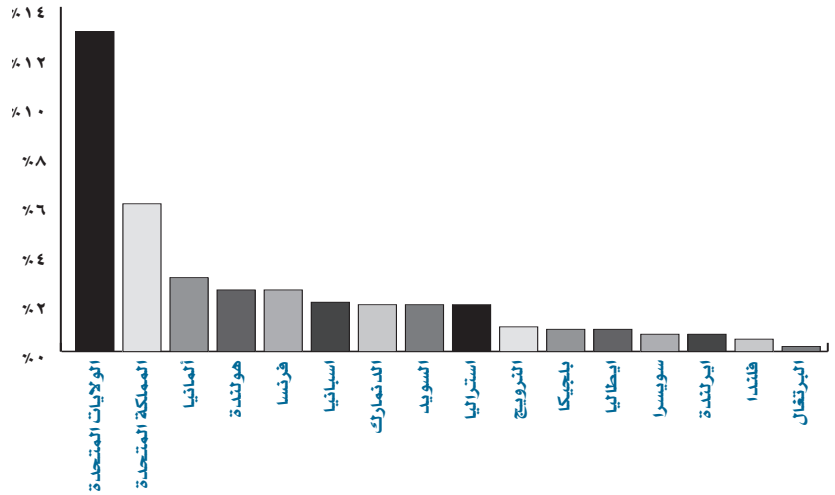

❖ تأتي الولايات المتحدة في مقدمة الدول الغربية من حيث حجم المساعدات المقدمة إلى الدول الفقيرة في العالم، حيث قُدر نصيبها بنحو ١٢،٩٣٪ من إجمالي حجم المساعدات في عام ٢٠٠٥م، وتُقدم المساعدات الأمريكية في صور عديدة، سواء في شكل مادي أو أغذية وأدوية، حتى في شكل منح تعليمية وبعثات للتدريب الخاص بالكوادر التعليمية أو الصحية أو الهندسية، أو بإقامة المشروعات الخدمية والتنموية.

❖ وتحتل المملكة المتحدة المرتبة الثانية بين الدول الغربية في تقديم المساعدات للدول الفقيرة، سواء في إفريقيا أو في باقي دول العالم النامي، وتشمل المساعدات البريطانية المقدمة لإفريقيا وغيرها من الدول النامية في العالم ما يعادل نحو ٥،٠ ٪ من إجمالي الدخل القومي للمملكة المتحدة، وهي بذلك تأتي في المرتبة الثانية بين الدول المانحة في العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن المتوقع أن تقوم الحكومة البريطانية بزيادة حجم مساعداتها بحلول عام ٢٠١٣م لتمثل نحو ٧،٠٪ من إجمالي الدخل القومي للمملكة المتحدة تلبية لمطالب الأمم المتحدة، مع ملاحظة أن هناك مطالبة بضرورة تعديل نظام المساعدات بالتنسيق مع الدول والجهات الدولية المانحة كافة، ومنها على سبيل المثال الاعتماد على أسلوب الشراكة الدولية، كما هو الحال في إقامة الشراكة الدولية من أجل الصحة، حيث يتحمل العالم المتقدم والدول المانحة مسؤولية نحو مجابهة الأمراض المتوطنة من خلال زيادة الرعاية والمنح للأطباء وإنشاء المستشفيات والمراكز الصحية والأبحاث وتقديم الأدوية وغيرها، وكذلك الشراكة من أجل القضاء على الأمّية.

❖ وفي المرتبة الثالثة في ترتيب الدول المانحة للمساعدات تأتي ألمانيا، والتي يصل نصيبها إلى نحو ٣،٢٤٪ من إجمالي حجم المساعدات المقدمة للدول الفقيرة.

❖ وتحتل هولندا المرتبة الرابعة بنسبة تصل إلى ٢،٥٧٪.

❖ في حين تأتي فرنسا في المرتبة الخامسة بنسبة تصل إلى نحو ٢،٤٣٪ من إجمالي حجم المساعدات المقدمة لدول العالم الثالث والتي تشكل الدول الإفريقية أغلبها.

❖ وفي المراتب السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة تأتي كل من: إسبانيا، الدانمارك، السويد، النرويج، بنسبة تتراوح ما بين ٢٪ للأولى إلى ١٪ للأخيرة.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك ارتباطاً واضحاً بين الدول الأخيرة الاستعمارية وتركيز المساعدات على مستعمراتها القديمة، حيث تقتصر المساعدات البرتغالية مثلاً على كل من موزمبيق وأنجولا؛ وهما من المستعمرات البرتغالية القديمة، وكذلك توجّه المساعدات الفرنسية، سواء المادية أو العينية، إلى المستعمرات الفرنسية السابقة، والمعروفة بدول الفرانكوفون، ومنها على سبيل المثال تشاد والسنغال، وقد ترتب على ما سبق ظهور نوع من الصراع الخفي بين الدول الاستعمارية القديمة والولايات المتحدة.

■ أشكال المساعدات الغربية المقدمة لإفريقيا:

١ – المساعدات المادية المباشرة:

حيث تقوم الدول المانحة بتخصيص مبلغ يُقدم إلى الدول الإفريقية المستقبلة

للمنح والمساعدات، ويتم في كثير من الأحيان الاعتماد عليه كجزء من ميزانية الدولة.

٢ - المساعدات المقدمة في شكل عيني:

مثل تقديم الأدوية والمواد الغذائية والملابس وغيرها إلى الدول، سواء في الظروف العادية، أو في أوقات الأزمات كالحروب، والكوارث الطبيعية كالجفاف والفيضانات وغير ذلك.

٣ - المساعدات والمنح المخصصة:

حيث تقوم الدول المانحة بإقامة مشروعات مخصصة بعينها؛ بهدف تنمية بعض المجتمعات أو بعض القطاعات الاقتصادية، مثل إنشاء الجسور أو إقامة السدود أو استصلاح أرض وإقامة مطاحن أو مزارع.

٤ - منح على شكل إسقاط للديون.

٥ - منح تعليمية ودورات تدريبية في المجالات المختلفة.

■ المراجع العربية والأجنبية:

١ - أنور عبد الغني العقاد: الوجيز في إقليمية القارة، الرياض - دار المريخ للنشر - ١٩٨٣م.

٢ - محمد عبد الغني سعودي: إفريقيا.. دراسة في شخصية القارة وشخصية الأقاليم، القاهرة - الأنجلو المصرية - ٢٠٠٧م.

٣ - قضايا إفريقية، المجلس الوطني للفنون والآداب - الكويت - ١٩٨٠م.

■ References:

4. Albenta, A. & Dollar D. (2000) "who gives Foreign Aid to whom and why" Journal of Economic Growth, March 2000, vol. 5, pp. 33 - 64.
5. Boone, Peter. (1996). "Politics and the Effectiveness of Foreign Aid" European Economic Review, vol. 40, No.2, pp. 289 - 329.
6. Burnside, A. Craig & Dollar D. (2000) Aid, Politics and Growth, American Economic Review, vol. 90, no. 4, pp. 847 - 268.
7. Easterly, William (2005), Can Foreign Aid Save Africa, Saint John's University.
8. Seager, Ashley (2007), Britain now The Warld's Second Largest aid Doner, at web Site: ww.guardian.co.uk, 31\1\2010
9. Stephen Knack & Nicbolas Eubank, (2009), Aid and Trust in Country Systems, Policy Research Working Paper, The World Bank.

الزواج في أفريقيا..
النسق القرابي
وطريقة تكوين الأسرة

محمد عبدالعزيز الهواري

تنتمي شعوب إفريقيا إلى جماعات عرقية وجنسية ولغوية ودينية عديدة، والواقع أن هذا التعدد ينشأ عنه تفاوت كبير في أنماط العلاقات الاجتماعية والأسرية وأنواعها في البيئة الإفريقية، وليس هدفنا في هذا المقال حصر جميع الأنماط الأسرية والعلاقات القرابية القائمة، وإنما إلقاء الضوء على بعض النماذج لصور الزواج وما تمثله من علاقات قرابية، مركزين على النماذج والأنماط الأبرز والأكثر انتشاراً في القارة الإفريقية، مع ذكر أهم أهداف الزواج «الإفريقي» ووظائفه وما ينتج عنه من روابط، فكثير مما يتعلق بالعلاقات الأسرية والزواج الإفريقي ينعكس تأثيره على النواحي الاقتصادية والسياسية داخل القبيلة، ويتعدى ذلك أحياناً إلى التأثير في العلاقات الخارجية للقبائل والعشائر والعائلات.

ويمثل موضوع القرابة وما يتصل به من زواج وتكوين أسرة مركزاً رئيساً في الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية، وربما كان السبب الرئيس في اهتمام العلماء بدراسة القرابة هو دورها المهم في العلاقات القرابية وروابطها في حياتنا اليومية.

■ تعريف القرابة:

يستخدم العديد من علماء الأنثروبولوجيا مصطلح «قرابة» مرادفاً لمصطلح «روابط الدم»، ومن هنا يمكننا تعريف القرابة بصفة مبدئية بأنها تلك «العلاقات المباشرة التي تنشأ بين شخصين نتيجة لانحدار أحدهما من صلب الآخر، كما ينحدر الحفيد مثلاً من الجد عن طريق الأب، أو نتيجة لانحدارهما معاً من سلف واحد مشترك، كالعلاقة بين أبناء العمومة التي تُرد هي أيضاً إلى الجد عن طريق الأعمام»[1].

■ الزواج والأسرة:

علاقة الرجل بالمرأة من خلال نظام الزواج هي حجر الأساس الذي يقوم عليه شكل النظام القرابي في المجتمع، فهي تؤدي إلى إيجاد روابط قرابية لم تكن موجودة من قبل كالأب والأم، ومن قرابة المصاهرة بين أقارب الاثنين، وهي تعمل بذلك على توسيع علاقات المشاركة بالتواصل بين أفراد المجتمع.

«ويعد الزواج الأساس الذي تقوم عليه الأسرة؛ حيث يعتبر نظاماً اجتماعياً تنطبق

١) د. محمد عبده محجوب: أنساق البحث الأنثروبولجي. دار المعرفة الجامعية. ط ٢. ص ١٥٣.

عليه أهم خصائص النظم الاجتماعية؛ فالزواج يقوم بأداء وظيفة هامة في الحياة الاجتماعية في كافة المجتمعات، وهو يعتبر نوعاً من السلوك المقنن، ويتمتع بقدرة كبيرة على الصمود في وجه التغييرات التي تحدث في المجتمع»[٢].

«فإذا كان الزواج رد فعل واستجابة لدوافع الجنس عند الإنسان؛ إلا أنه يتم أيضاً من خلال نسق ثقافي خاص بنظام الزواج؛ من حيث الاكتفاء بزوجة واحدة أو الاقتران بعدة زوجات مثلاً، ومن حيث الأفراد الذين يجوز الزواج من بينهم كالزواج داخل الجماعة القرابية، ويشمل ذلك أيضاً من يحرم الزواج منهم.

ومن حيث الإجراءات التي تتخذ في سبيل تحقيق الزواج، مثل: الخطبة والمهر وقيمته وعقد الزواج ومظاهر الاحتفال به، وما يترتب على الزواج من حقوق كالميراث»[١].

■ أنواع الزواج في المجتمع الإفريقي :

للزواج في إفريقيا خمسة أنواع هي:

النوع الأول: الزواج الأحادي monogamy:

وهو اقتران رجل واحد بامرأة واحدة في الوقت نفسه، وهو النظام الشائع الآن في معظم المجتمعات الإفريقية المتحضرة المتغربة، ويمثل في نظر التطوريين آخر مرحلة من مراحل الزواج.

النوع الثاني: تعدد الزوجات لرجل واحد polygamy :

وهو من الأنماط الزوجية الأكثر تفضيلاً وانتشاراً في أجزاء كثيرة من إفريقيا، ويبدو أنه مرتبط ارتباطاً مباشراً بالظروف الاقتصادية أو مرحلة الاعتماد الأولى للمجتمع على الرجال والنساء.

وهذا النظام يوجد في المجتمعات التي تقوم فيها النساء بمعظم الأعمال، وتعد كل زوجة في هذه الحالة رافداً اقتصادياً للأسرة، كما يوجد في المجتمعات التي يتحمل فيها الرجال العبء الأكبر من العمل، ومن ثم تعد الفتاة في هذه الحالة عبئاً اقتصادياً بخلاف الحالة السابقة، والرجل الفقير في إمكانه الجمع بين عدة زوجات إذا لم يكن هناك مهر مغالى فيه لإتمام عملية الزواج.

النوع الثالث: تعدد الأزواج للمرأة الواحدة polyandry :

وهذا النوع النمط من الزواج أقل انتشاراً مقارنة بتعدد الزوجات للرجل الواحد، وله شكلان:

- إما زواج المرأة الواحدة من عدة رجال أشقاء.
- أو زواج المرأة الواحدة من عدة رجال ليسوا أشقاء.

وقد يرتبط هذا النوع من الزواج بظروف خاصة ولفترة محددة من الوقت، فقبائل «الواهو» في شرق إفريقيا يحدث بها هذا النوع من الزواج عندما يكون الرجل فقيراً إلى درجة أنه لا يستطيع الزواج، ومن ثم يقوم إخوته بمساعدته مالياً، ومن ثم يشاركونه حقوق الزوجية حتى مرحلة الحمل.

النوع الرابع: زواج الجماعة group marriage :

هو شكل غير منتشر في إفريقيا بكثرة، وفيه يحق الاتصال الجنسي بين عدة رجال ونساء محددين دون تحمل مسؤوليات اقتصادية.

النوع الخامس: الشيوعية الجنسية promiscuity :

وتكون النساء جميعهن في المجتمع حقاً مشاعاً لجميع الرجال والعكس صحيح؛ دون التقيد بنظام الزواج، فعند قبائل «الباري» في

١) كريم زكي الدين: القرابة.. دراسة أنثرولغوية لألفاظ القرابة في الثقافة العربية. مكتبة الأنجلو. ص ٢٤٣ (بتصرف).

شـــرق إفريقيا لا ينظرون إلـــى الاتصال بفتاة متزوجـــة بوصفه عملاً شـــائناً، بل حمل الفتاة قبل زواجها لا ينقص من قيمتها[١].

■ أنماط الزواج بإفريقيا:

الزواج الداخلي Endogamy:

وهو ذلك النمـــط الذي يباح فيه للرجل أن يتزوج امرأة من عائلته أو من بيته؛ بشـــرط ألا تكون من أحد فروعه أو أصوله.

ويؤدي هذا الزواج وظيفة مهمة في النظام القرابي؛ حيث يُسهم في دعم الحياة الاجتماعية والمحافظـــة على البنـــاء الاجتماعي، وهو ما يســـاعد على تقوية الوحدة القرابية وتدعيمها وتماســـكها؛ لأنه يحفظ الثروة مـــن أن تنتقل بالوراثة عن طريق النساء لجماعات غريبة عن القبيلة أو العائلة[٢].

والزواج الداخلي يقوي الجوانب الاقتصادية، فمثلاً في مجتمع البقارة[٣] نجد أن المهر يدفعه أهل العريس في شـــكل أبقـــار ونقـــود؛ وبذلك تنتقل الأبقار بســـهولة ويسر داخل المجموعة القرابية، وهذا أمر فـــي غاية الأهمية للقبائل الرعويـــة، والتـــي لا يعنيها فـــي الحياة إلا أن تحافـــظ على الحد الأدنى مـــن حجم القطيع للحفاظ على قيمتـــه الاقتصادية التي تؤثر في المكانة الاجتماعية والسياســـية لأصحاب هذا القطيع[٤].

الزواج الخارجي Exogamy:

وقد يُطلق في بعـــض الأحيان على الزواج الخارجـــي مصطلح «الـــزواج الاغترابي»، وهو يعتمد على نوع مـــن تحريم خاص؛ حيث يكون محظوراً على الرجال الزواج من العائلة لسبب من الأسباب أو لبعض المعتقدات.

يرى بعض العلماء مثل «دور كايم» أن الزواج الخارجـــي ذو أصل طوطمـــي؛ حيث يفترض هـــؤلاء العلماء أن الانتماء إلـــى طوطم[٥] معيّن يخلق يوجد علاقات اجتماعية تشـــبه علاقات أخـــوة الدم؛ على أســـاس أن أعضاء الجماعة الطوطمية انحدروا جميعـــاً من هذا الطوطم؛ وعلى ذلك فإن الزواج الداخلي فيما بينهم يعد نوعاً من زنا المحارم.

والزواج الخارجي أو الاغترابي يـؤدي وظيفة مهمـــة في المحافظة على البنـــاء الاجتماعي؛ حيث إنه يهدف إلى توسيع نطاق دائرة القرابة إلى أبعد من حدود الجماعة القرابية المتعاونة.

■ وظائف الزواج الإفريقي:

تستند فكرة الوظيفة التي تطبّق على النظم الاجتماعية إلـــى التماثل (المماثلة) بين الحياة الاجتماعية والحيـــاة البيولوجية؛ وبذلك تكون وظيفة كل نظام اجتماعي هي ذلك الدور الذي يؤدّيه هذا النظام في البناء الاجتماعي، والذي يتألف من أفراد مرتبطين بعضهم مع بعض في وحدة متماسكة من العلاقات الاجتماعية.

فكل عضو بجسم الإنسان له وظيفة محددة تنعكس على الجســـم بأكملـــه، وكذلك النظم الاجتماعيـــة المختلفة لها وظائف تؤديها داخل المجتمع.

---

١) بحث الـزواج. إعداد حنان سليمان أحمد - مقدم لمعهد البحوث والدراسات الإفريقية - القاهرة - قسم الأنثروبولوجي - غير منشور.

٢) محمد عبده محجوب: الأنثروبولوجيا الاجتماعية. دار المعرفة الجامعية - ٢٠٠٦م. ص: ١٩ - ١٩٧ (بتصرف).

٣) «البقارة»: أو عرب البقارة هي قبائل بدوية انتشرت في حدود القرن الرابع عشر وحتى القرن الثامن عشر عن طريق شمال إفريقيا. حيث كانوا مستقرين هناك. وقاتلوا وحكموا في الأندلس. وعادوا إلى شمال إفريقيا بعد انهيار الدولة الأموية واستقروا في المغرب والجزائر والسودان وتونس ومصر وليبيا وتشاد. حالياً تعيش أكثر هذه القبائل في إقليم دارفور السوداني بشكل أساسي. وتنتشر أيضاً في بعض المناطق النيلية وبحيرة تشاد وموريتانيا والنيجر والكاميرون. وتشترك هذه القبائل في اللهجة والدين الإسلامي.

٤) سعدية عبد الرحيم السويفي: الهجرات الموسمية لقبيلة «البقارة» بالسودان. رسالة ماجستير غير منشورة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة ٢٠٠٦م. ص ٨٨.

٥) الطوطم: كائن يمثل رمزاً للقبيلة. قد يكون طائراً أو حيواناً أو نباتاً أو ظاهرة طبيعية أو مظهراً طبيعياً. مع اعتقاد القبيلة الارتباط به روحياً. ويقدسونه بوصفه المؤسس أو الحامي. كما تستخدم كلمة «طوطم» تعبيراً عن علاقة اجتماعية (قرابة) قائمة بين شخصين.

يرى (رادكليف بـــروان) أن وظائف الزواج الإفريقي تدور بين ثلاث وظائف رئيسة:

أولاً: الزواج يمثل نقـــلاً للحقوق القانونية للمرأة من نسبها إلى زوجها، ولا تقتصر على ما يخص العمل والعلاقة الجنسية والإنجاب، ولكن تشـــمل أيضاً الحق في الحصول على تعويض عن الأضرار التي لحقت بها من الآخرين.

ثانياً: الزواج يؤدي إلى حد ما إلى تمزقات، وذلك حين تنتقل الزوجة من بيت أهلها وتنضم لعائلة زوجهـــا، أو العكس فـــي بعض الأحيان حيث ينضم الزوج لعائلة زوجته، وبذلك يحدث انقطاع في العلاقات بيـــن الزوجة وأهلها في حالة انضمامها لأهل زوجها، ولا تقيم علاقات مع أهلها السابقين، أو العكس في حالة انضمام الزوج لأهل زوجته.

ثالثاً: الزواج تحالف واتفاق بين عائلتين أو مجموعـــات قرابية، فالـــزواج لا ينظر إليه في إفريقيا بوصفه مجرد علاقة بين شـــخصين، ولكنه صلات هيكلية جديدة بين المجموعات[1].

■ نمـوذج عملـي للـزواج فـي قبيلـة «الدينكا»:

ونأخذ هنا مثالاً عمليـــاً لقبيلة تمثل ١١٪ من عدد سكان السودان و ٥٠٪ من عدد سكان جنوب الســـودان، وهي قبيلـــة «الدينكا» التي تعد مـــن أهم المجموعـــات القبلية في جنوب الســـودان، وتمتد جغرافياً وتتـــوزع في ولايات بحر الغزال وجونقلي وأعالي النيل وتمتد حتى جنوب كردفان. وتعد قبيلة «الدينكا» من القبائل الإفريقيـــة الكبيـــرة بعد «الزولـــو» في جنوب إفريقيا و«الماساى» في كينيا.

وينتمـــي مجتمـــع «الدينكا» إلـــى نوع من المجتمعـــات التي لا يســـتطيع الرجل فيها أن يتزوج من امرأة تمت له بصلة قرابة، و«الدينكا» يعرفون أنواعاً متعددة مـــن العلاقات القرابية التـــي تربط بينهم، فهنـــاك العلاقات القرابية التـــي تربط بين أبنـــاء العشـــيرة الواحدة، أو العلاقات القرابية التي تنشأ عن المشاركة في مهر العروس[2].

ونجد أن العلاقـــات القرابية القائمة على أساس المصاهرة قد ساعدت على اتساع دائرة العلاقات، كما ساعدت على زيادة كثافة التفاعل في المناشط الاجتماعية المتنوعة التي يشارك فيها الأقرباء، وقد أدت هذه العلاقة إلى مزيد من قـــدرة النســـق القرابي، وأن يكـــون إطاراً للوحدة السياسية.

وعلى كل حال فـــإن العلاقات الاقتصادية والأيديولوجيـــة والاجتماعية لها صفة القرابة، ويتصرف الناس تجاه أفـــراد مجتمعهم كما لو أنهم كانـــوا أقرباء حقّاً في أوســـع التنظيمات العشائرية؛ حيث ينتمي المئات إلى الجد نفسه، وقد تبتعد صلات الرحم بعيداً.

الزواج:

إن الزواج هو الوضع الاجتماعي الضروري لكـــي يكون المـــرء رجـــلاً مكتمـــل الرجولة، ومســـتحقاً للحصول على حقوقه القانونية من اســـتقلال عن الأســـرة، فالزواج يجعل له ذمة منفصلة، لذا فهو البدء للاستقلال عن الأسرة والشروع في تأسيس سلالة جديدة.

صحيـــح أن علاقـــات الغـــزل والحب بين شـــباب «الدينكا» ليست مرتبطة دائماً وموجهة نحو الزواج، بل ينظر إليه كأمر معيب أن يتسرع الرجل في نيته للزواج كوســـيلة لكسب ود فتاة؛ لأن هذا دلالة على اســـتغلاله للزواج في جذب الفتـــاة الدينكاوية من خلال علاقـــات الغزل

١) رادكليف بروان: الأنظمة الإفريقية للعلاقات القرابية والزواج. ط ١٩٥٠م (بتصرف).

٢) عبد العزيز شاهين: الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبيلة الدينكا في جنوب السودان. أعمال ندوة معهد البحوث والدراسات الإفريقية. جامعة القاهرة. لسنة ٢٠٠١م. ص ١٨٧.

والحب التي لا بد أن تكون سابقة للزواج، ولكن مع ذلك يظل الزواج هو أمل كل دينكاوي.

هناك أسباب عديدة لكي يكون للزواج هذا الوضع المتميز في مجتمع الدينكا، أحد هذه الأسباب هو الرغبة في تأسيس علاقة (رجل – امرأة) معتمدة اجتماعياً[1].

وحينئذ يتوجب على الشاب، قبل أن يخطب فتاة، أن يحصل على موافقة رفاقه في فئة عمره؛ فهم الذين يرافقونه أثناء ذهابه إلى منزل والد الفتاة من أجل أن يخطبها، وأما المهر فيشتمل عادة على عدد من رؤوس الأبقار والماعز بالنسبة إلى العشائر التي تعتمد في حياتها على رعي الماشية، بينما العشائر التي تهتم بصناعة الحديد فيكون المهر عبارة عن عدة قطع حديدية يستخدمها أهل الفتاة في حياتهم العملية.

ويمكن الاتفاق على دفع المهر بالتقسيط، وليس من المفروض أن يتم تسديد المهر حتى يتم الزواج؛ بحيث يمكن للعريس أن يقدم باقي المهر بعد الانتهاء من الزواج، وقد يقدم العريس أحياناً عدداً من الأبقار والماعز، وحربة لصيد فرس النهر، وصفائح من السمن وكميات من الأسماك، ولا يكون تحمّل المهر من منزل ذويه فقط، بل يكون أيضاً من أقاربه، وقد يوزّع والد العروس المهر الذي يُقدم له إلى أفراد أسرته.

ويتبين من ذلك أن الأقارب عون للعريس على دفع مهر العروس؛ لأن عدم مقدرة العريس على دفع المهر قد يسيء إلى سمعة أفراد عشيرته؛ ومن هنا كان للأقارب دور مهم في مثل هذه الحالة، أما والدة العروس فتقدم لابنتها وعاءً كبيراً ومحركين للحساء وبعض الملاعق.

وتكون المرحلة الأخيرة هي «زفاف العروس إلى عريسها» والتي قد تتبع دفع المهر بفترة قصيرة، إلا أنه من المعتاد أن تمضي عدة أشهر وأحياناً عدة سنين قبل أن تقوم العشيرة بزفاف الفتاة، وخلال الزفاف يجري طقس غسل فم العروس حتى تتمكن من تناول الطعام في بيت أقرباء زوجها.

الطلاق:

قد تكون أسبابه متمثلة في العقم، وعدم الوفاء للزوج، أو عدم قدرة الزوجة على طهي الطعام جيداً، أما حالة الزنا فلا تعد سبباً من أسباب الطلاق؛ لأن الزاني يجب أن يدفع للزوج غرامة قد تتراوح بين ٥ – ٨ رؤوس من الأبقار إذا فعل الزنا مع الزوجة[2].

ويفسر «الدينكا» ذلك بأن الرجال عادة هم الذين يبادرون في هذه المسائل، بينما تكون النساء في الغالب ضحية لعدوانية الرجال الجنسية، ولكنهم يعترفون أيضاً بأن للنساء أساليبهن الخفية، وأحياناً المباشرة لاستدراج الرجال. بعض الرجال ينقمون بشدة على الوضع الذي يُحمّلهم وحدهم النتائج القانونية المترتبة على الزنا، بينما تترك الشريكة الراغبة – وأحياناً المتسببة في هذه المسألة – حرة لا يمسها سوء، بل وينتفع زوجها من الجرم الذي حدث[3].

على الرغم من أن الرجل يتحمل المسؤولية القانونية إلا أن قيم «الدينكا» تلقي بالمسؤولية الأخلاقية على المرأة، وتعدها الأكثر فساداً، ولا يعني تعويض زوجها، أو إرضاؤه من جانب الزاني، أن علاقتهما في إطار الأسرة ستكون علاقة ودودة، بل غالباً ما يدفعه غضبه إلى التخلص من الأبقار التي حصل عليها كتعويض

١) فرانسيس دينق: «الدينكا» في السودان. ص ١٦١.

٢) عبد العزيز شاهين. مرجع سابق. ص١٩٠ - ١٩١.

٣) فرانسيس دينق. مرجع سابق. ص ١٧٣.

عـــن الواقعة فـــي زيجة جديـــدة، وهو في كل الأحوال يمتنع عن شرب ألبان مثل هذه الأبقار أو أكل لحومهـــا، أو تناول أي طعام تم الحصول عليه من ثمن بيعها.

وتظل العشـــيرة الأبوية متابعـــة ومهتمة بشـــؤون الزوجة طول حياتهـــا الزوجية، وهي تهرع للوقوف بجانبها كلمـــا اقتضت الحاجة ذلك، وفـــي الحالات التي تخطئ فيها في حق زوجها تسعى عشيرة الزوجة الأبوية لإرضائه بدفعة من الأبقار تسمى «أويك»، فأما إذا كانت هي الشاكية فعادة ما تعد مسألة أسرية، ولكن فـــي الحالات التي تتعرض فيها حقوق الزوجة لانتهاكات خطيرة فإن عشـــيرتها تتدخل، وقد ترفـــع الأمر إلى القضاء فـــي بعض الحالات القصـــوى، ويمكن أن ينتهـــي النزاع بالطلاق، ســـواء جاءت المبادرة من الرجل أو من المرأة أو أقاربهـــا. غير أن الطلاق عنـــد «الدينكا» أمر بغيض ونـــادر الحدوث بصورة عامة، وهو يمثـــل - حتى في النواحي الاقتصادية - فعلاً لا يرغب أحد فيه لما تطرحه شـــروط إرجاع مهر الزواج من تحديـــات وتعقيدات، فعندما يكون الـــزوج هو المخطئ لا يكـــون من حقه طلب إرجـــاع المهر إلا بعـــد زواج المرأة من جديـــد، وبعد أن يكون زوجهـــا الجديد قادراً على تعويض الزوج السابق، وهو أمر غاية في الصعوبة؛ لأن الأبقـــار تكون قد تكاثرت حتى ذلك الوقت.

أما فـــي الحالات التي يكـــون فيها الخطأ من جانب الزوجة أو أقربائها، فينتظر منهم أن يقوموا في الحال بإرجاع الأبقار نفســـها التي دفعـــت لهم إذا كان ذلك ممكناً. وإذا كانت هذه الأبقار قد دخلت في زيجات أخرى أو تم توزيعها بصورة ما؛ فيجب اقتفاء أثرها وإرجاعها[1].

أما تسمية الأطفال؛ فالعادة عند «الدينكا» أن يأخذ الأبناء أســـماء أجدادهم وأقارب الأب والأم، ولا يُعطى الاســـم للمولود إلا بعد أن يبلغ من عمره ٦ - ٧ أشهر، وقد أخذت هذه القبائل طريقـــة عملية الختان عن العرب عندما فتحوا السودان، ويتم الختان في عمر يتراوح بين ٥ - ٧ سنوات للذكور والإناث على السواء[2].

مراحل التكريس عند الأبناء:

مراحل التكريس هي مراحل تســـعى بذكور القبيلة نحو الانفصـــال والاعتماد على الذات، وتبـــدأ عمليـــة التكريس الأولى عنـــد الذكور بالختان في عمر ٥ - ٧ ســـنوات، ولا يُســـتثنى ســـوى المعتوه أو المريض بمرض مزمن، وكل طفـــل لا يمر بهذه الحالـــة ينتقدونه اجتماعياً ويســـخرون منه كما لو أنه ارتكب عملاً ســـيئاً ضد رفاقه.

وتبدأ مرحلـــة التكريس الثانية عند الأولاد البالغين الناضجيـــن في فئة عمر واحدة بعمل عـــدة جروح دامية على الجبهـــة في احتفالات اجتماعية.

وتبدأ مرحلـــة التكريس الثالثة عندما تزيد قوة الصبيان وتبرز أسنانهم كلها كاملة بحجمها الطبيعي عنـــد الناضج في العمـــر، فيتم خلع الأســـنان الأربعة الأمامية (العليا، والســـفلى)، ويعدون ذلك من المظاهر الجمالية.

أما التكريس الرســـمي فإنه يتم ما بين سن ١٦ - ١٨، وهو من أهـــم التجارب أو الخبرات التـــي تعترض الصبي عند «الدينكا» في حياته، فهو لا يخرج من صفـــوف الصبية أو الأطفال في نظـــر المجتمع قبل أن يجتازها ويظل يقوم بالأعمال المعتـــادة مثل حلب الأبقار، والذهاب إلى المراعـــي، والقيـــام بأغلب النشـــاطات المرتبطة بتربية الماشـــية. أما الذين اجتازوا

١) فرانسيس دينق، مرجع سابق، ص ١٧٥ - ١٧٦.

٢) عبد العزيز شاهين، مرجع سابق، ص ١٩١.

طقـــوس التكريس فإنهـــم لا يقومون بمثل هذه النشاطات إلا في ظروف استثنائية[1].

وهكذا نرى أن النســـق القرابي هو أساس البناء الاجتماعي في مجتمع «الدينكا»؛ فشبكة العلاقـــات القرابية وما يرتبط بها من علاقات اقتصادية وسياسية وشعائرية تستند إلى البناء القرابي وتدعمه، وهو بدوره يتفاعل مع الأبنية الاجتماعية الأخرى التي تكوّن نسقاً كلياً.

وهـــذا هو النمط الشـــائع فـــي العلاقات الاجتماعية بيـــن القبائل الإفريقيـــة، فالزواج بوصفه نســـقاً قرابياً من أهـــم النظريات التي توضّح طبيعة العلاقات وبخاصة في المجتمعات البسيطة.

١) (١٦) فرانسيس دينق. مرجع سابق. ص ١٩١ - ١٩٢.

كأس العالم لكرة القدم بجنوب إفريقيا..
أسرار وآثار

تحقيق صحافي إعداد: قراءات إفريقية

تحتل كأس العالم لكرة القدم قمة المسابقات الرياضية على مستوى العالم، والجديد أن هذا الحدث الرياضي العالمي سيقام لأول مرة في القارة الإفريقية بدولة جنوب إفريقيا.

لم تعد هذه الدروة الكروية حدثاً رياضياً معتاداً، بل صارت ظاهرة عالمية تحمل العديد من الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضاً، فما الذي ستحمله هذه الدورة الكروية العالمية إلى القارة السمراء؟ وفي أي الاتجاهات ستحاول تسجيل أهدافها؟

انتهز فريق التحقيقات في مجلة (قراءات إفريقية) هذه الفرصة لإلقاء الضوء على هذا الحدث الذي طالما تعاملت معه كثير من وسائل الإعلام بوصفه حدثاً رياضياً مكانه في صفحات الرياضة، ولا علاقة له بالمجتمع والسياسة والاقتصاد، أو هكذا كان.

وقد قام فريق التحقيق بالمجلة باستطلاع آراء عدد من العلماء والمتخصصين في جوانب متعددة، وهم: الشيخ عبد الستار فتح الله سعيد من علماء الأزهر الشريف ومتخصص في تفسير القرآن الكريم، والدكتور أيمن شبانة مدرس العلوم السياسية بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية، والخبير الاقتصادي الأستاذ ممدوح الولي نائب رئيس تحرير جريدة الأهرام للشؤون الاقتصادية، والباحث في الشؤون التربوية والنفسية الأستاذ وليد بن خالد الرفاعي.

فما الذي أسفر عنه هذا التحقيق الفريد من نوعه.

■ كأس العالم.. لمحات تاريخية:

في باريس بتاريخ ١٩٠٤/٥/٢١م وفي المقر العام لاتحاد ألعاب القوى الفرنسي تأسس الاتحاد الدولي لكرة القدم (الفيفا)، وبعد ذلك وقعت بلجيكا والدانمارك وفرنسا وهولندا وإسبانيا والسويد وسويسرا قانون التأسيس، وخرجت إنجلترا من عقد التأسيس بدعوى أنها لا تستطيع العيش مع «الأعداء».

وفي الأول من مارس ١٩٢٠م انتخب «جول ريميه» الفرنسي رئيساً للفيفا في مؤتمر «انفير» ببلجيكا، فلم يتوان في العمل من أجل إنشاء مسابقة تدعى «كأس العالم».

ومع انضمام مزيد من الدول تطورت الفيفا ببطء، ولكن بسبب الحرب العالمية الأولى تم تنظيم أول دورة لكأس العالم لكرة القدم بعد ٢٦ سنة، حيث عُقدت أول دورة لكأس العالم

لكرة القدم في «مونتفيدو» في أوروجواي في ١٩٣٠/٧/١٨م.

■ وما علاقة كأس العالم بالتربية والتهذيب النفسي:

في اللحظة الأولى بعد قراءة التساؤل السابق يستبعد كثير من الناس وجود علاقة بين كأس العالم والتربية، فالحدث حدث رياضي بالدرجة الأولى.

لكن دعنا نتأمل قليلاً في هذا الحدث الرياضي ونستكشف هذه العلاقة، ونتتبع بنظرة متوازنة أبرز ما فيها من ظواهر سلوكية وأخلاقية واجتماعية.

ولذا طرحنا السؤال على الأستاذ وليد الرفاعي الذي قال:

مونديال كأس العالم هو الحدث الأبرز عالمياً كل أربع سنوات، ويتابعه ملايين من البشر، وينفق عليه وفيه مليارات الدولارات. وتخضع هذه المسابقة لتغطية إعلامية عالمية استثنائية؛ ترصد تفاصيل التفاصيل مما يجري في ساحات الملاعب، وهو ما يجعل العالم يعيش جو هذه اللعبة بأدق تفصيلاتها.

وتتزامن مع هذه المسابقات بعض الظواهر السلوكية مثل التشجيع المجنون والتقليعات الغريبة والتعلق والتقمص باللاعبين.. إلخ، ومما يحسن التنبيه إليه أن هذه الظواهر ليست المشكلة، وإنما هي أعراض لها؛ فالمشكلة الحقيقية لدى هؤلاء ناتجة غالباً من عدم وجود الاهتمامات الجادة أو القاعدة الأخلاقية المتينة التي تمنعهم من التطرف في سلوكيات مرفوضة، فالتأثير الحقيقي في الجمهور تتباين حدته وسلبياته باختلاف التكوينات النفسية والأخلاقية للمشجعين، فبينما ينغمس بعض المشجعين في أسوأ صور التعصب والتنابز والتجاوزات الأخلاقية والتقمص السلبي لسلوكيات اللاعبين وأشخاصهم باسم الرياضة؛ تجد فريقاً آخر يسلم من ذلك كله، ولا يمثل التشجيع عنده إلا فقرة ترفيهية وبرنامج تسلية.

والغريب أن بعض الغارقين في عالم الكرة ومسابقاتها لا يستمع للتحذير من تلك السلوكيات المشينة، أنه يراها مجرد وجهة نظر شرعية متشددة، وقد يعارضها بعضهم بوجهات نظر أخرى بدعوى أنها أكثر انفتاحاً وتيسيراً له!

وكما لا يستمع بعض هؤلاء للنصح الشرعي؛ يزهد بعضهم الآخر في وزن تلك السلوكيات بميزان المصلحة الشخصية والاجتماعية، فهو لا يشعر ولا يريد أن يشعر بانعدام الفائدة الشخصية له من مثل هذه المسابقات، بل بتأثير بعضها على مصالحه الشخصية والاجتماعية.

وقد أدت هذه الحالة النفسية العجيبة إلى تخدير الشعوب في هذه المسابقات، فلا تلقى القضايا الاجتماعية الخطيرة، مثل البطالة والفقر العام والفساد الإداري وسوء الخدمات الصحية وما شابهها بعض ما تلاقيه هذه الاحتفالات الكروية العالمية من الاهتمام.

وبالرغم من أن مثل هذه المسابقات العالمية أصبحت تمثل للناس فرصة لنسيان واقعها المأساوي المحبط؛ فإنه في الحقيقة لا يمثل إلا تناسياً متكلفاً وهروباً خادعاً.

وقد طرحنا هذه القضية على الدكتور أيمن شبانة مدرس العلوم السياسية بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية.

■ وتساءلنا عن تنظيم جنوب إفريقيا للمونديال؛ هل يدور في هذا الفلك؟

فقال: لا أستبعد أن يكون هذا الاعتبار

ماثلاً في أذهان المسؤولين في جنوب إفريقيا، فالرياضة، وبخاصة كرة القدم، أصبحت أحد الآليات التي يتم توظيفها من جانب أنظمة الحكم في كثير من دول العالم من أجل تحقيق أغراض سياسية، ومن أهم هذه الأغراض إحياء الشعور الوطني، وذلك من خلال الممارسات التي تتم خلال مباريات كرة القدم، مثل (حمل الأعلام، وعزف النشيد الوطني، والأغاني الحماسية)، واكتساب قدر من التأييد الشعبي، ولو مؤقتاً، وصرف اهتمام الناس عن شواغلهم ومشكلاتهم الحقيقية إلى الاهتمام بقضايا الرياضة، وما يثور من جدل بشأنها، بالإضافة إلى جذب اهتمام قطاعات الشباب بعيداً عن قضايا السياسة، وكذا الحيلولة دون انخراطهم في التنظيمات السياسية المعارضة، فضلاً عن تدعيم العلاقات الخارجية للدولة.

■ العولمة .. والأهداف الكروية:

ويتعدى الخطر الاستغلال المحلي إلى الاستغلال العالمي لهذه المسابقات، وهو استغلال يعتمد كلياً على التأثير في عاطفة المشجعين حتى الثمالة الكروية، وتغييب حاسة النقد والتمييز لديهم، وجعلهم مؤهلين تأهيلاً عالياً لقبول ما يرونه ويسمعونه والتأثر به.

هذا ما أكد عليه الأستاذ وليد الرفاعي، وأضاف:

أخطر ما في المونديال من الزاوية النفسية والتربوية هي تلك الرسائل الخفية التي يسربها المونديال لمتابعيه، على مستوى المفهومات والسلوكيات والثقافات، وهي رسائل تبث بطريقة غير مباشرة عبر الإعلانات والندوات الصحافية وتعليقات المعلقين وتصريحات اللاعبين، وكذلك السلوكيات والشعارات التي يرفعها الفريق الفلاني أو اللاعب الفلاني، وقد يكون لبعضها دلالات دينية أو سياسية مباشرة سلباً أو إيجاباً[1].

ويسهم المونديال في تسريع خطوات العولمة وتوسيع نطاقها، والتي تلقي بظلالها بشكل واضح من خلال مثل هذه المسابقات، فالحواجز الإقليمية والدينية والوطنية حتى العرقية تغيب في مثل هذه المسابقات، حيث يتحول ملايين من سكان العالم إلى مهرولين يجرون متعصبين وراء بضعة فرق قليلة متبقية تتنافس على الفوز باللقب[2]، وهذا التشجيع والإعجاب الذي يصل إلى درجة الجنون لا يمكن أن ينتهي مباشرة بعد انتهاء المونديال سواء أكان للبلدان أو الفرق أو اللاعبين، وهو ما يظهر أثره واضحاً على فئة المراهقين الذين يتشبهون بفرقهم ولاعبيهم، بل يتجاوز التأثير هذه الفئة العمرية إلى الواقع الاجتماعي والاقتصادي، حيث تسوق بعض المنتجات الاقتصادية من خلال رموز هذا المونديال من الفرق أو اللاعبين[3]!

---

١) من أبرز تلك المواقف ذات الدلالة الدينية المباشرة ما قام به اللاعب المصري محمد أبو تريكة بعد تسجيله لأحد أهدافه برفع قميصه الخارجي لتظهر عبارة «نحن فداك يا رسول الله» (صلى الله عليه وسلم)، وذلك إثر الأزمة العالمية في النيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك ما قام به اللاعب نفسه في مباراة أخرى في وقت الحرب على غزة عندما وضع عبارة «تعاطفاً مع غزة» «Sympathize with Gaza». وكذلك السجود الجماعي المتكرر للاعبي المنتخب المصري عند إحراز عدد من الأهداف حتى شاعت تسميته بمنتخب الساجدين. وفي المقابل يرفع أحد اللاعبين الغانيين علم إسرائيل، وهو «جون بانستيل»، بعد إحرازه هدفين في التشيك في خطوة تمثله هو ولا تمثل أهل بلده من المسلمين.

٢) نظراً لأن التنافس الحقيقي على لقب كأس العالم لا يكون غالباً إلا بين بضعة فرق لا تجاوز العشر؛ فإن التشجيع المبني على أسس دينية أو إقليمية أو عرقية يكون في التصفيات الأولى للمونديال، فيشجع العرب مثلاً الفرق العربية المتأهلة، والمسلمون كذلك، وربما الأفارقة من غير المسلمين. ولكن ما أن تتجاوز التصفيات هذه المرحلة ويخرج معظم هذه الفرق تنصرف الجماهير إلى اختيار فريقها الحقيقي (من الفرق الغربية غالباً أو دائماً) المرشح لنيل البطولة.

٣) من أوسع الألعاب الإلكترونية انتشاراً الألعاب المتعلقة بكأس العالم، والتي تحاكيها بشكل متناهي عبر نسخ مطورة ودقيقة، وقد اخترقت هذه الألعاب جميع الفئات العمرية بعد أن كانت مختصة بفئة المراهقين لما لها

■ الكرة والكأس.. وتصحيح الرؤية:

لعبة كرة القدم ومسابقاتها يمكن أن تكون وسيلة للتنشئة الأخلاقية كما هي وسيلة للترفيه والتنشئة البدنية، في هذا الإطار استطلعت المجلة رأي فضيلة الشيخ عبد الستار فتح الله سعيد[1].

■ قراءات إفريقية: ما مدى شرعية تنظيم تلك الدورات والاشتراك فيها؟

الشيخ عبد الستار: حث الإسلام على ممارسة الرياضة النافعة التي تقوي الجسم وتشد العضلات، لأن الأمة الإسلامية أمة مجاهدة في سبيل الله، وتحتاج إلى كل نشاط يقوي الحركة والعمل، وكرة القدم من هذا النوع إذا مارسها الإنسان بقصد الرياضة وبناء جسمه، فإذا زاولها الإنسان بلا نية كانت مباحة لا إثم فيها، وإذا استحضر نية تقوية جسمه للجهاد في سبيل الله كانت عبادة لها أجرها من الله، أما التشجيع الضائع والهتاف والخلاف الذي يحصل الآن بين الجمهور الذي لا يلعب؛ فهذه أفعال تدور بين الحرام والمكروه، ولا يصح للمسلم أن يفعل ذلك.

■ قراءات إفريقية: هل يصح احتراف هذه اللعبة والتكسب منها؟ وما الضوابط الشرعية لممارستها؟

الشيخ عبد الستار: لا يجوز شرعاً احتراف اللعب والتكسب منه إلا إذا كان مدرباً يدرّب الشباب على الرياضة النافعة، وينظمهم في الملاعب، والضوابط هي:

- ❖ أن يزاول الرياضة بنفسه ولا يكتفي بالتشجيع الفارغ الذي يضيّع الوقت بلا فائدة.
- ❖ ألا تشغله عن الواجبات الشرعية كالصلاة، ورعاية الوالدين الكبيرين، وصلة الأرحام، أو عمله الأصلي.
- ❖ ألا يترتب على مزاولتها تعصب مذموم، أو خلافات أو معارك وفتن، لأن كل ذلك حرام، وما أدى إلى الحرام فهو حرام، وهذه قاعدة أجمع عليها العلماء، وما حدث بين مصر والجزائر من خلافات وقطيعة بسبب مباراة لكرة القدم خير دليل على ذلك.

■ كأس العالم.. واللعبة السياسية:

إذا كانت الأهداف السياسية لكأس العالم في الدورات السابقة غير واضحة، أو قليلة، فإنها في هذه المرة واضحة وعميقة، وقد قام فريق التحقيق في مجلة قراءات بطرح العديد من التساؤلات أمام الدكتور أيمن شبانة مدرس العلوم السياسية بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية للكشف عن الأبعاد السياسية لتنظيم كأس العالم لكرة القدم بجنوب إفريقيا.

■ قراءات إفريقية: في رأيك ما الأبعاد السياسية لإقامة كأس العالم في جنوب إفريقيا؟

الدكتور أيمن شبانة: المتأمل في تاريخ جمهورية جنوب إفريقيا يدرك على الفور الأبعاد السياسية لإسناد تنظيم دورة كأس العالم ٢٠١٠م إلى تلك الدولة، والتي من أهمها:

١ - الدعم الدولي لجهود جنوب إفريقيا من أجل الخروج من العزلة:

منذ عقد الستينيات من القرن الماضي عاشت جنوب إفريقيا حالة من العزلة الإقليمية

من جاذبية عالية. وهي عالم متكامل من اللاعبين والأندية وطرائق اللعب ومزاياه لكل لاعب وناد.

١) الشيخ عبد الستار فتح الله سعيد من علماء الأزهر الشريف ومتخصص في تفسير القرآن الكريم. عمل الشيخ أستاذًا في كلية الشريعة وأصول الدين في الرياض. ثم درس في قسم أصول الدين في القاهرة. ثم درس في جامعة أم القرى في مكة المكرمة. ثم عاد إلى القاهرة في عام ١٩٩٨م. وهو عضو المجمع الفقهي بمكة المكرمة. وعضو جبهة علماء الأزهر الشريف.

والدولية، وذلك بسبب اتباعها لسياسة الفصل العنصري «الأرباتيد»، وكذا بسبب سياستها الاستعمارية في إقليم جنوب غرب إفريقيا «ناميبيا»، وممارستها التخريبية في الدول الإفريقية، وأهمها في موزمبيق و«روديسيا الجنوبية» (زيمبابوي).

الخريطة العرقية لجنوب إفريقيا تكشف عن وجود أربع جماعات عرقية رئيسة، هي: الأفارقة، ويمثلون ٧٧٪ من السكان، والهنود (الآسيويون) ٣٪، والبيض ١١٪، والملونون ٩٪. وكانت السيطرة السياسية في أيدي البيض الذين عملوا على تكريس نظام الفصل العنصري في البلاد؛ انطلاقاً من أسس فلسفية تعتقد في تفوق البيض ثقافياً وحضارياً عن جميع الجماعات العرقية الأخرى في الدولة.

ثم شهدت جنوب إفريقيا سلسلة من التحولات الجوهرية على طريق الإصلاح السياسي، وذلك منذ منتصف الثمانينيات تقريباً، حيث بحثت الحكومة العنصرية لجنوب إفريقيا إصدار دستور يكرس بناء «أمة واحدة» غير مجزأة داخل جنوب إفريقيا، كما تم إلغاء العديد من القوانين العنصرية، وزيادة هامش الحريات السياسية والمدنية، ورفع الحظر عن الحركات والتنظيمات السياسية للسود، وفي مقدمتها حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، بالإضافة إلى الإفراج عن المعتقلين السياسيين، وفي مقدمتهم الزعيم الوطني نيلسون مانديلا، وكذا منح ناميبيا الاستقلال الوطني عام ١٩٩٠م.

وقد مهدت هذه الإصلاحات إلى إجراء أول انتخابات حرة في جنوب إفريقيا على أساس التعدد الحزبي عام ١٩٩٤م، مما أسفر عن فوز نيلسون مانديلا برئاسة البلاد، وحصول حزب المؤتمر الوطني الإفريقي على الأغلبية البرلمانية.

٢ - تقدير مساهمات جنوب إفريقيا في الحياة السياسة الدولية:

تعد المساهمات الفعالة لجنوب إفريقيا في الحياة السياسية الدولية من بين أبرز العوامل التي ساهمت في اختيارها لتنظيم كأس العالم، فمنذ عام ١٩٩٤م تشارك جنوب إفريقيا بفعالية في صنع السياسات العالمية، وخصوصاً بعد خروجها من العزلة، واستعادتها للعلاقات الدبلوماسية مع كل دول العالم، في هذا السياق قامت جنوب إفريقيا بدور مهم في تسوية الصراعات والحروب الأهلية والإقليمية في إفريقيا، ومن ذلك الصراع في البحيرات العظمى، والأزمات السياسية في ليسوتو وزيمبابوي وكينيا والسودان وغيرها.

كما أنها استضافت أيضاً العديد من الفعاليات المهمة على المستويات السياسية والاقتصادية، وفي مقدمتها المؤتمر الدولي الأول لمناهضة العنصرية الذي عقد في «ديربان» عام ٢٠٠١م، والذي يحمل دلالة رمزية مهمة جداً، فالدولة التي شهدت تجربة مريرة من العنصرية أصبحت الآن في مقدمة التحالف الدولي المناهض للعنصرية، بالإضافة إلى استضافة القمة الأولى للاتحاد الإفريقي في «ديربان» في يوليو ٢٠٠٢م.

كما كانت جنوب إفريقيا على رأس الدول المؤسسة لمبادرة المشاركة الجديدة لتنمية إفريقيا «نيباد» عام ٢٠٠١م، وهي أيضاً الدولة المضيفة لبرلمان عموم إفريقيا، مما يجعلها أحد أهم النماذج الجديرة بالاقتداء في مجال المصالحة الوطنية، والاستقرار السياسي، والنهوض الاقتصادي، والمساهمة الفعالة في بناء السلم الإقليمي.

■ **قراءات إفريقية: هل كان لجولات نيلسون مانديلا المكوكية وثقله السياسي دور في إسناد الدورة إلى جنوب إفريقيا؟**

الدكتور شبانة: حرصت اللجنة التي تولت الترويج لحملة جنوب إفريقيا من أجل استضافة كأس العالم على أن تبعث برسائل إلى العالم توضح مدى تطورها السياسي، والتزامها بإنجاح الدورة، ومن ثم تضمن الوفد الذي تقدم بملف استضافة الدورة شخصيات متنوعة، أهمها: الرئيسان السابقان للبلاد فريدريك ديكليرك، ونيلسون مانديلا، وكبير الأساقفة ديزموند توتو، حيث كان ديكليرك أحد قادة الإصلاحات السياسية في البلاد، وساهم مانديلا في القضاء على العنصرية في بلاده، فيما قام ديزموند توتو بدور محوري في تحقيق المصالحة الوطنية في البلاد.

ومع تقديرنا لدور الشخصيات المذكورة، وبخاصة دور مانديلا في تحقيق حلم شعبه بالحرية والمساواة، والقضاء على العنصرية، فهناك عوامل أخرى أكثر أهمية كان لها عظيم الأثر في فوز جنوب إفريقيا باستضافة كأس العالم، أهمها: الاستعداد القوي من جانب الحكومة لتنظيم فعاليات الدورة وإنجاحها، والاعتبارات الاقتصادية، والخبرات الإدارية والتنظيمية السابقة، وتوافر البنية الأساسية والمنشآت الرياضية.

■ **قراءات إفريقية: وما المكاسب السياسية التي يمكن أن تجنيها جنوب إفريقيا من وراء هذه الدورة؟**

الدكتور شبانة: هناك مساحة كبيرة من المكاسب السياسية والاقتصادية التي يمكن أن تجنيها جنوب إفريقيا من وراء استضافة كأس العالم، لعل أهمها على المستوى السياسي: تعزيز «القوة الناعمة لجنوب إفريقيا»[1]، في هذا السياق؛ أعتقد أن جنوب إفريقيا سوف تسعى لاستثمار تنظيم كأس العالم في إظهار الوجه الحضاري والثقافي لشعبها الملقب بشعب «قوس قزح».

وعلى المستوى الاقتصادي؛ توفر الدورة فرصة لجنوب إفريقيا للترويج المجاني لمعالمها السياحية، كما أنها تتيح للعالم معرفة فرص الاستثمار فيها، فضلاً عن إدخال بعض التحسينات في مجال البنية الأساسية، وبخاصة النقل وأنظمة الاتصال، والمنشآت الرياضية، بالإضافة إلى الأرباح المالية المباشرة نتيجة بيع حقوق البث التلفزيوني للشركات العالمية، والمبالغ التي يدفعها الرعاة الرسميون لتنظيم الدورة، والتعاقدات التي تقدمها شركات الدعاية للإعلان عن منتجاتها خلال المباريات، وارتفاع نسب الإشغال الفندقي، وحصيلة بيع تذاكر المباريات.

■ **قراءات إفريقية: وهل سترشحها استضافة كأس العالم لدور سياسي بعد انتهاء الدورة؟ وماذا عن باقي الدول الإفريقية؛ هل يمكن أن تستثمر الدورة سياسياً؟ وكيف؟**

الدكتور شبانة: أما عن الدور السياسي الذي يمكن أن تمارسه جنوب إفريقيا بعد انتهاء الدورة؛ فهو دور «صانع السلام الإقليمي»، وأيضاً «قائد التكامل الإقليمي»، ومما يدعم هذا التصور أن جنوب إفريقيا أضحى لها باع طويل في تسوية الصراعات في القارة الإفريقية، سواء من خلال المشاركة بقواتها

(1) القوة الناعمة: تعني «جاذبية دولة ما على مستوى العالم، وقدرتها على التأثير في بقية الدول، وذلك من خلال ثراء شخصيتها القومية ونموذجها الحضاري وعمقها التاريخي ورموزها، ودون استخدام أي وسائل عنف أو قسر».

المســـلحة في عمليات حفظ السلم في القارة، أو نتيجة لدور نيلســـون مانديـــلاً وتابو مبيكي رئيسها السابق في الوســـاطة من أجل تسوية الصراعـــات، كما أنها تقوم بـــدور محوري في دعم التكامل الاقتصادي الإقليمي، ســـواء في إطار الاتحاد الإفريقي، أو جماعة التنمية لدول الجنوب الإفريقي «سادك».

ومـــن جهـــة أخرى؛ يمكـــن لـــدول القارة الإفريقية استثمار الزخم الإعلامي الكبير الذي سيصاحب الدورة طول مدة إقامتها، وذلك في القيام بنوع من الدعاية السياســـية التي تركز على ضرورة البحث عن حلول بنّاءة لمشـــكلات القـــارة، مثل الحـــروب الأهليـــة، واللاجئين، والديون، والأزمات الغذائية، والإيدز، وغيرها.

■ قراءات إفريقية: لكن جنوب إفريقيا تعاني ضعفاً في الجانب الأمني، فهل سيكون لذلك تأثير في استضافة كأس العالم ومن ثم في مكاسبها؟

الدكتور شـــبانة: تعد جنوب إفريقيا واحدة من الـــدول ذات المعدلات المرتفعة فيما يتعلق بجرائـــم العنـــف، حيث يتعـــرض أكثر من ٥٠ شـــخصاً للقتل كل يوم في البلاد، فيما يتعرض العدد نفسه لمحاولة القتل، مما جعل الكثيرين يحذرون من أن يؤدي ذلك إلى عدم نجاح جنوب إفريقيا في تنظيم الدورة، وهي المخاوف التي زادت عقـــب الهجوم الذي تعـــرض له الفريق التوجولي المشـــارك في كأس الأمم الإفريقية التي أقيمت في يناير ٢٠١٠م في أنجولا.

وقد وقع حادث الفريق التوجولي في منطقة كابينـــدا الحدودية بين الكونغـــو الديمقراطية وأنجـــولا، والتي تشـــط فيها حركة مســـلحة تطالـــب بالانفصال عـــن الســـلطة المركزية في الكونغـــو الديمقراطية، ومـــن الواضح أن المجموعـــة التي ارتكبت الحادث هي مجموعة غير منظمة، أرادت جذب الانتباه العالمي إليها، مســـتغلة اتجاه أنظار العالم صوب أنجولا التي تنظـــم كأس الأمم الإفريقيـــة، ومن ثم لم يؤثر ذلك الحادث في استكمال الدورة حتى نهايتها في ٣١ يناير٢٠١٠م.

وبناء علـــى ذلك لا أعتقد أن تؤثر الأوضاع الأمنية سلباً في قدرة جنوب إفريقيا على تنظيم الدورة، حتى إذا تخللهـــا بعض أحداث العنف المعتادة، فتلك أحداث عرضية تشهدها جميع دول العالم، شأنها في ذلك شأن أحداث مماثلة وقعت في بعض الـــدول الأخرى، ومن ذلك ما شـــهدته لاهور في باكستان في مارس ٢٠٠٩م، عندما هاجمت مجموعة مســـلحة حافلة كانت تقل فريق سيريلانكا للكريكيت، مما أسفر عن وقوع العديد من الضحايا بين قتيل وجريح.

ومن جانبها أكدت اللجنة المنظمة لنهائيات كأس العالم قوة الترتيبات الأمنية التي اتخذتها حكومة جنـــوب إفريقيـــا، لتكون علـــى أهبة الاستعداد لاســـتضافة الدورة، حيث خصصت الحكومة ١,٣ مليار دولار مـــن أجل الترتيبات الأمنيـــة، والتي مـــن المرجح أن تســـهم فيها القوات المســـلحة، وأن تستخدم فيها كاميرات المراقبة الحديثة والطائرات.

■ قـراءات إفريقيـة: يوجد في جنوب إفريقيا أكبـر جالية يهوديـة بإفريقيا؛ فمـا مـدى حضورهـا وتأثيرهـا السياسي في مثل هذه الدورات الرياضية؟

الدكتور شـــبانة: توجد جاليـــة يهودية في جنوب إفريقيا، يبلغ قوامها نحو٧٠ ألف نسمة، بما يعادل ٠,١٧٪ من الســـكان، ولهذه الجالية دور مهـــم في خدمـــة القضايا الإســـرائيلية، بدءاً من دعمها السياســـي والمالي لقيام دولة

إسرائيل عام ١٩٤٨م، مروراً بتأييد القضايا الإسرائيلية في المحافل الدولية، وخصوصاً على مستوى الصراع العربي الإسرائيلي، ولا شك أن الأوضاع المالية المتميزة للجالية اليهودية، وتحكّمها في صناعة الماس في جنوب إفريقيا يزيد من نفوذها في تلك الدولة.

وربما يسعى اليهود في جنوب إفريقيا إلى استثمار منافسات كأس العالم من أجل تحقيق أغراض سياسية معينة، فهذا الاحتمال يظل قائماً، وخصوصاً أن هناك سوابق تؤيد ذلك، فخلال دورة كأس العالم عام ٢٠٠٦م في ألمانيا رفع أحد لاعبي منتخب غانا العلم الإسرائيلي، وطاف به أرجاء الملعب ابتهاجاً بإحراز هدف في مرمى الفريق المنافس، وقد كشف هذا الحدث النقاب عما يسمى «معسكرات حبقوق» التي تستمد اسمها من اسم أحد أنبياء بني إسرائيل المعروف بقوته وشجاعته، وهذه المعسكرات تقيمها إسرائيل لأجل استقطاب المواهب الإفريقية في كرة القدم، وتدريبهم وصقل مواهبهم، ثم تسويقهم في الأندية الأوروبية، وخلال هذه المعسكرات يتم تلقين العقيدة اليهودية للشباب الإفريقي صغير السن، كما تتم تحية العلم الإسرائيلي بشكل يومي، مع الترويج لمكانة إسرائيل وقوتها على المستوى الدولي.

■ كأس العالم.. والمكاسب الاقتصادية:

قام فريق التحقيق بمجلة قراءات بحوار آخر على الصعيد الاقتصادي، لمعرفة الأبعاد الاقتصادية للمونديال، والكشف عن الآثار الاقتصادية المترتبة على إقامة الدورة في جنوب إفريقيا، وقد استضفنا الخبير الاقتصادي الأستاذ ممدوح الولي نائب رئيس تحرير جريدة الأهرام للشؤون الاقتصادية.

■ قراءات إفريقية: ما التأثير الاقتصادي المتوقع على القارة الإفريقية بصفة عامة وجنوب إفريقيا بصفة خاصة من إقامة كأس العالم في جنوب إفريقيا؟

الأستاذ ممدوح الولي: هناك مكاسب اقتصادية مباشرة وغير مباشرة يمكن أن تحققها جنوب إفريقيا من تنظيم كأس العالم لكرة القدم، لكن المكسب الرئيس هو تكوين ذهنية إيجابية عن البلد عموماً لدى الآخرين سواء كانوا دولاً أو أفراداً أو منظمات، فهذه الصورة الذهنية الإيجابية من خلال عملية تسويق البلد خارجياً يمكن حصاد ثمارها في ميادين عديدة.

فالصادرات السلعية التي تحمل اسم جنوب إفريقيا سيكون لها قبول بشكل مختلف عما قبل لدى جانب من المستوردين، ولدى جانب من المستهلكين عندما يرون اسم جنوب إفريقيا كبلد مورد للسلعة المعروضة على أرفف السوبر ماركت والمولات في أنحاء الكرة الأرضية، وكلما أفلحت جنوب إفريقيا في اختيار عدد من الماركات لمنتجات محلية، بالإعلان عنها بشكل مكثف خلال الدورة؛ فإن ذلك يمكن أن يساعد في تحوّلها إلى ماركات عالمية وفي زيادة مبيعاتها.

كما أن تسويق البلد يساعد في جلب الاستثمارات إليها، سواء استثمارات مباشرة في شكل إقامة مشروعات، أو في شكل استثمارات محافظ أوراق مالية في بورصة جنوب إفريقيا، حتى ضمانات القروض وتعاملات البنوك من البنوك المراسلة وتقييم الأوراق المالية المنتمية إليها ستتأثر إيجابياً، وهي أمور ستنعكس على معدل النمو الاقتصادي.

والمكسب الثاني هو حصيلة بيع الدورة

بما يغطي تكاليفهـــا ويؤدي إلى تحقيق فائض، وهو ما يشمل بيع تذاكر المباريات، وبيع السلع التذكارية المتعلقة بالدورة، وحصيلة الرعاة من الشركات العالمية، وحصيلة الإعلانات، ومقابل البث الفضائي الذي تدفعه الفضائيات.

ومكســـب التدفق السياحي المواكب للدورة التي تستمر نحو شهر لمتابعة ٦٤ مباراة يلعبها ٣٢ فريقاً، وهي فرق ينتمي معظمها للدول الكبرى، فمن بين دول الاقتصاديات العشر الأولى بالعالم توجد ثماني دول لها فرق مشاركة بالدورة، ومن بين الدول العشـــرين الأوائـــل بالاقتصاد توجد ١٢ دولة مشـــاركة بالدورة، ويتنوع الســـياح ما بيـــن المرافقين للفرق أو القادمين للمشـــاهدة بالملاعب أو للتغطية الإعلامية.

كما سيتم الترويج لمنتجات شركات محلية كشـــركات الملابـــس والأغذية والمشـــروبات وغيرها، والتي ســـتزيد مبيعاتها خلال انعقاد الدورة، وتصبح الاســـتفادة الســـياحية خلال إقامة الدورة انطلاقة لطفرة ســـياحية متوقعة فيما بعد إقامتها، بعد النجاح في تسويق البلد والمزارات السياحية بها خلال الدورة.

ومن المكاســـب المهمة عملية الإنشـــاءات التي تتم استعداداً لإقامة الدورة، سواء بإقامة منشـــآت رياضية جديدة أو تطوير القائم منها، وهي منشـــآت ســـتصبح من البنية الأساسية لجنـــوب إفريقيـــا، وهو أمر يشـــمل إنشـــاء الطرق وتحسين وســـائل المواصلات والفنادق والمطاعـــم والمصارف والطيـــران وخدمات تكنولوجيا الاتصـــالات وحماية البيئة وغيرها، كما ستكســـب جنوب إفريقيا إلى جانب الأبنية خبـــرات ومهارات نمت خـــلال عملية التجهيز للدورة وخـــلال فترة تنظيمها، كما ستســـاعد تلك التجهيزات في امتصاص جانب من معدل البطالة المرتفع في البلاد.

■ قـراءات إفريقية: لكن هـل المكاسب التـي ستحصدها جنـوب إفريقيا سيكون لها تأثير في الاقتصاد الإفريقي؟

الأستاذ ممدوح الولي: الاستفادة التي يمكن أن تتحقق للقارة الإفريقية من انعقاد الدورة في جنوب إفريقيا تتمثل أساســـاً في تغيير الصورة الذهنيـــة التاريخية عن تخلف القارة الإفريقية والشـــك في قدرة الفرد الإفريقي على تنظيم مثـــل هذا الحدث الضخم، وهو ما ســـينعكس على العمالـــة الإفريقية المنتشـــرة في بلدان العالم، بالتحســـن الجزئي فـــي النظرة إليها، وكذلك بالنسبة لإمكانية استقدام عمالة جديدة من بلدان إفريقية.

كمـــا أن نجاح جنوب إفريقيا في تســـويق نفسها سياحياً ســـينعكس على بلدان إفريقية أخرى، حيث سيشـــجع ذلك علـــى التفكير في زيارة بلـــدان إفريقية بشـــكل يختلف عما قبل الدورة ولو بشـــكل جزئي، ممـــا يدعو وكالات الســـفر لإعداد برامج لزيارات لدول إفريقية، كمـــا أن بعض البرامـــج الســـياحية الخاصة بجنوب إفريقيا يمكن أن تشـــمل زيارة أكثر من دولة إفريقية.

وعلى المســـتوى الإقليمي؛ فإن هناك بلداناً إفريقية تعتمد علـــى تصدير العمالة إلى جنوب إفريقيا مثل زيمبابوي وبتسوانا، ويساعد رخص تلـــك العمالة القادمة من بلدان شـــديدة الفقر على قبول تشـــغيلها، ومن هنا يمكن أن يشارك جانب من هؤلاء في الأعمال المتصلة بالتجهيز للدورة خلال فترة إقامتها، ويمكن لبعض الدول الإفريقية المجاورة لجنـــوب إفريقيا، وبخاصة ليسوتو وســـوازيلند، الاستفادة من بيع منتجاتها المحلية وبخاصـــة الهدايا التذكارية للســـياح، وخصوصاً مع تعدد أماكن المباريات التي تنتشر على عشرة ملاعب في تسع مدن جنوب إفريقية.

■ **قراءات إفريقية: يرى بعض المحللين أن إسناد المونديال لجنوب إفريقيا كان سببه الرئيس هو الإمكانيات الاقتصادية التي تتميز بها؛ فما مدى صحة ذلك في رأيك؟**

الأستاذ ممدوح الولي: جنوب إفريقيا تحتل المركز الخامس في عدد السكان بين دول القارة، والمركز التاسع بين دول القارة في المساحة الجغرافية، وعلى الرغم من ذلك فإنها تحتل المركز الأول من حيث الناتج المحلي الإجمالي على مستوى القارة، حيث بلغ حجم الناتج المحلي الاجمالي عام ٢٠٠٨م بسعر الصرف ٢٧٧ مليار دولار، مما يؤهلها لاحتلال المركز الثالث والثلاثين بين دول العالم من حيث الناتج المحلي، وبنصيب نصف بالمائة من الناتج الدولي البالغ ٦٠ تريليون دولار.

وتعود شهرة جنوب إفريقيا الاقتصادية إلى كونها منتجة للعديد من المعادن، والتي تحتل ببضعها مواقع رئيسة على المستوى الدولي من حيث الإنتاج، حيث ظلت تحتل المركز الأول في إنتاج الذهب عالمياً منذ سنوات طويلة وحتى العامين الماضيين، حيث تراجع مركزها إلى المركز الثالث دولياً عام ٢٠٠٨م.

وتنتج جنوب إفريقيا الكروم وخام الحديد والنحاس والمنجنيز والنيكل والفوسفات والقصدير واليورانيوم وأحجار الماس والبلاتين والفاناديوم والملح والفحم والغاز الطبيعي.

وبلغت قيمة التجارة السلعية لها عام ٢٠٠٨م نحو ١٨٠ مليار دولار، ما بين صادرات سلعية بلغت ٨١ مليار دولار، مما جعلها تحتل المركز الأربعين دولياً، وبين واردات سلعية بلغت ٩٩ مليار دولار، مما أهلها لاحتلال المركز الرابع والثلاثين دولياً من حيث قيمة الواردات السلعية.

وفي التجارة الخدمية بلغت قيمة تجارتها عام ٢٠٠٨م نحو ٢٩ مليار دولار، توزعت ما بين صادرات خدمية بلغت ١٢ مليار دولار، مما جعلها تحتل المركز السادس والأربعين دولياً، وواردات خدمية بلغت ١٦ مليار ونصف المليار دولار، مما جعلها تحتل المركز التاسع والثلاثين بين دول العالم من حيث الواردات الخدمية.

وفيما يخص الموازنة الحكومية التي بلغت إيراداتها خلال عام ٢٠٠٨م نحو ٧٧ مليار دولار مقابل ٨٠ مليار دولار لنفقات الموازنة؛ فإنها مصابه بحالة من العجز خلال السنوات الممتدة ما بين عامي ٢٠٠٠م و ٢٠٠٨م.

ولا يعني ذلك أن الصورة ستكون كلها إيجابية، فهناك أمور عديدة سلبية أبرزها الضغوط التي تسببها نفقات التجهيز للدورة في اقتصاد تعاني موازنته الحكومية من عجز مزمن، وهذا سيكون على حساب الاستثمارات والمساعدات التي كان يمكن توجيهها إلى الطبقات الشعبية في مجتمع يتلقى ربع سكانه منحاً اجتماعية، مع ارتفاع نسبة الفقر التي بلغت ٥٠٪ من السكان، ومع اضطراب في توزيع الثروة بشكل واضح، حيث أن أدنى من ١٠٪ من السكان يحصلون على نسبة ١،٣٪ من الدخل، بينما يحصل أعلى من ١٠٪ من السكان على ٤٤،٧٪ من الدخل.

كذلك مع ارتفاع البطالة التي بلغت نسبتها ٢٣٪ تقريباً عام ٢٠٠٨م، وارتفاع الدين الخارجي إلى ٧٢ مليار دولار تقريباً في العام نفسه، بينما تصل الاحتياطيات من العملات الأجنبية والذهب ٣٤ مليار دولار.

والأمر المخيف بخصوص الدورة هو تزايد معدلات الإصابة بالإيدز، سواء بين القادمين من الخارج أو بين السكان المحليين، حيث بلغت نسبة انتشار الإيدز بين البالغين أي من سن ١٥

– ٤٩ عاماً ١٨٪، مما جعلها تحتل المركز الرابع عالمياً في انتشار الإيدز، حيث يبلغ عدد الذين يعيشون مع الإيدز ٥،٧ ملايين شخص، منهم ٣،٢ ملايين من النساء و ٢٨٠ ألف من الأطفال، وهو ما أهّل جنوب إفريقيا لاحتلال المركز الثاني عالمياً في عدد المصابين بالإيدز، كما بلغ عدد الوفيات بسبب الإيدز ٣٥٠ ألف شخص في عام ٢٠٠٧م، مما جعلها تحتل المركز الأول عالمياً في عدد وفيات الإيدز، كما بلغ عدد الأيتام بسبب الإيدز ١،٤ مليون يتيم.

والمخيف مع الدورة أيضاً أن تزيد الأسعار، وبخاصة مع ارتفاع معدلات التضخم منذ عام ٢٠٠٨م واستمرارها خلال عام ٢٠٠٩م لنسب عالية، ووجود أزمة بالكهرباء منذ عام ٢٠٠٧م، إلى جانب نقص في وسائل النقل العام.

■ قراءات إفريقية: هل هناك عوامل محددة لكي تستطيع جنوب إفريقيا تحقيق ما تصبو إليه من مكاسب؟

الأستاذ ممدوح الولي: مسألة تحقيق جنوب إفريقيا مكاسب من تنظيم كأس العالم تحددها الإدارة الجيدة خلال الدورة وما بعدها، ففي دورة كأس العالم لكرة القدم للناشئين التي نظمتها مصر مؤخراً لم تفلح إدارة الدورة في جلب تكلفة إقامتها، حتى إنهم كانوا ينقلون المشاهدين في شاحنات على حساب جهات رسمية، مع صرف وجبة لهم حتى لا تبقى المقاعد بالمدرجات شاغرة.

وقبل سنوات نظمت مصر الدورة الإفريقية، وكان من بين المنشآت الضخمة التي أقامتها صالة مغطاة ضخمه للألعاب، لكن بعد الدورة لم يتم الاستفادة بالصالة في المسابقات الرياضية؛ بقدر ما تم الاستفادة بها في إقامة حفلات الزواج الجماعي وملاهي التزحلق على الجليد!

فالإدارة ذات الكفاءة تستطيع أن تحقق أرباحاً من الدورة، في حين أنها يمكن بإخفاقها أن تورث الموازنة الحكومية المصابة بالعجز مزيداً من العجز، والذي سيكون على حساب الإنفاق الاجتماعي والاستثماري، وهو ما يعني حينذاك استمرار معدلات الفقر والبطالة العالية.

كما أن عدم النجاح في تسويق الدورة بالدول المتقدمة سيكون له آثاره السلبية، حيث إن السياحة في جنوب إفريقيا تمثل المصدر الرابع في موارد العملات الأجنبية بعد الصادرات السلعية ومحافظ الأوراق المالية والاستثمار الأجنبي المباشر، وبنسبة قليلة من الإجمالي تقل عن ٧٪.

ففي عام ٢٠٠٨م بلغ الدخل السياحي أقل من ثماني مليارات من الدولارات، في حين بلغ الإنفاق السياحي خارج البلاد أكثر من ٤ مليارات دولار؛ أي أن صافي الدخل السياحي يقل عن ٤ مليارات دولار.

وإذا كان عدد السياح الواصلين إلى جنوب إفريقيا قد بلغ ٩ ملايين و ٧٢٩ ألف سائح عام ٢٠٠٨م؛ فإن ٧٦٪ من هؤلاء كانوا قادمين من البلدان الإفريقية، وأقل من ١٥٪ من البلدان الأوروبية، وأقل من ٤٪ من دول أمريكا الشمالية، و ٢٪ تقريباً من الدول الآسيوية، وما يقرب من ١٪ من المنطقة الأسترالية ووسط أمريكا وجنوبها.

وهكذا تأتي أكثر من ٦٩٪ من إجمالي السياحة الواصلة من دول الجوار الحدودي البري الستة: ليسوتو وزيمبابوي وموزمبيق وسوازيلند وبتسوانا وناميبيا، وهي سياحة ليست في أغلبها لأغراض الفسحة وقضاء الإجازات، وإنما تتنوع أغراضها ما بين العمل والدراسة والتجارة ونحو ذلك، فدولة ليسوتو

جغرافيـــاً تحيط بهـــا جنـــوب إفريقيا من كل الجوانب، فلا حدود لدولة ليسوتو مع أي دولة سوى جنوب إفريقيا، ومن ثم فإنها مرغمة على التعامل مع الجار الحدودي الوحيد.

■ الإفادة من كرة القدم ومسابقاتها:

في الختام يقدم الأســـتاذ وليـــد الرفاعي بعض التوجيهات للاســـتفادة العملية من هذه اللعبة ومســـابقاتها والحد من سلبياتها؛ وهي لمحات تربوية جميلة يمكن للمدربين أو مدرسي التربية الرياضية أو غيرهم أن يســـتفيدوا منها في توجيه الناشئة[1].

❖ الهـــدف: فوجود الهدف والســـعي إلى تحقيقه هو الذي يحـــرك الطاقات ويوّحد المســـيرة، وعندما يخفـــق الفريق الكروي في تســـجيل الأهداف فـــإن فائدته من كل إنجازاتـــه الأخرى على الملعب من حســـن لعب واســـتحواذ على الكـــرة وغيرها تكون ثانوية وهامشية، وكذلك الإنسان يحتاج إلى أن يســـير مع أهدافه إلى منتهاها، وقد قيل «في معركة الحيـــاة ليس من المهم النتيجة في منتصف المباراة»، وإذا كان هذا عصب كرة القدم فهو من باب أولى عصب الحياة، والمســـلم يدعو دائماً بحســـن الختام؛ لأن ســـاعة الموت بمثابة صفـــارة الحكم التي يعلن بها انتهـــاء الفرصة لتحقيق أي هدف إضافي وتثبيـــت نتيجة المباراة. وأخيراً إذا كان هدف اللاعب الفوز بالنتيجة فإن هدف المسلم الفوز بالجنّة ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّـــمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٣].

❖ التعاون: فقدرات أفـــراد الفريق مهما كانـــت متميزة ولياقاتهم مهمـــا كانت عالية تضيع عندما يفقدون روح التعاون فيما بينهم، وهو ما يســـمى في العـــرف الكروي باللعب الجماعي أو الـــروح الجماعية، فالهدف في كرة القدم يســـجله واحد ولكن يصنعه أكثر مـــن واحد، وكذلك الحال في المســـلم فهو غصن في شـــجرة وفرد من أمة، والإنسان مهما كان تميزه فإنه لا يستغني عن إخوانه، فهو ضعيف بنفســـه قوي بهم، والنزاع شر، وهو طريق الفشل ﴿... وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُـــمْ ...﴾ [الأنفال : ٤٦]، ﴿... وَتَعَاوَنُـــواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ...﴾ [المائدة : ٢].

❖ التشـــجيع: ففي كرة القدم يزداد عطاء الفريق وتميزه عندما يلعب على أرضه وبين جمهوره، فهي نقطة قوة نفسية، فاللاعبون هـــم اللاعبون ولكـــن الدوافـــع والحوافز النفســـية للاعبين اختلفـــت، وبالمقابل كم نقتل من طاقات ونحطم من مواهب عندما نحرمها من التشجيع الذي تستحقه فبخلنا عليهـــا به، بينما نجد الســـنّة النبوية حافلة بعبارات التحفيز والتشـــجيع من المصطفى صلى الله عليه وســـلم للصحابة رضي الله عنهم في مواقف كثيرة.

❖ التعصب: التعصب شـــر.. وهو في كرة القدم جنون وعراك، وفي الأنســـاب جاهلية وعنصرية منتنة، وفي الدعوة حزبية ضيقة مقيتة، وفـــي العلم رد للحـــق وانحياز عن الدليل، وفي الرمـــوز تقديس وتقليد، هذا التعصب بشتى صوره يأباه المسلم الذي يتلو كلّ يوم في كلّ صـــلاة: ﴿اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُســـتَقِيمَ﴾ [الفاتحـــة : ٦]، والذي يدعو فيقول: اللهم «اهدني لمـــا اخُتلف فيه من الحق بإذنك» رواه مسلم.

❖ التخصص: فعلـــى أرض الملعب نجد

١) أنظر: موقع صيد الفوائد. فوائد تربوية من كرة القدم.

رأس الحربة والمهاجم والمدافع والجناح الأيمن والأيسر ... وكل فرد يؤدي دوره بشكل يختلف عن غيره ولكل موقع مهاراته ومستلزماته ؛ وعندما يضطر لاعب من موقع ما لتغيير موقعه لأي سبب كان كطرد أو إصابة زميل له فإن خلالاً ما يطرأ على الأداء؛ وهكذا هو الحال على المستوى الشخصي فالتخصص مفتاح من مفاتيح النجاح ، ويفقد الإنسان قدرته على التميز كلما وسع من مجالاته ؛ وتكاد أن تكون هذه الميزة للتخصص المستويات ففي الجانب الإقتصادي تجد فالمطاعم والماركات المتخصصة هي من يكتب لها النجاح غالباً .. وفي الجانب الشرعي تجد الشيخ المتخصص أكثر تركيزاً وعمقاً ، وفي العمل الخيري تجد المؤسسات المتخصصة أكثر نجاحاً وأدق عملاً ... وحتى يستطيع الإنسان أن يبدع في تخصص ما فعليه أولاً حسن اختيار هذا التخصص والتأكد من ملائمته له ؛ وهو ما يتطلب منه معرفة عميقة بقدراته ونقاط قوته وضعفه .

❖ الاستعداد والتدريب: كل ما يؤديه لاعب الكرة في الملعب هو نتاج تدريب مسبق شاق ومضني قبل ذلك ؛ وعندما تنخفض لياقة لاعب ما نتيجة لتغيبه المستمر عن التمارين التحضيرية فإن مستواه في أرض الملعب ينخفض بالتبع ؛ وفي المقابل كم نحتاج أن نجعل أعمالنا قائمة على استعداد مسبق وتدريب طويل ؛ بعيداً عن التلقائية التي تجعلنا دائما لا نفكر بالشئ إلا عند حصوله أو القيام بتنفيذه ؛ وربما يكون استناد البعض إلى بركة العمل الخيري عائقاً نفسياً عن الاستعداد الوافي لمتطلبات النجاح من خلال فهم مغلوط لمعنى التوكل.

بدائل لحل الخلاف مع دول منابع النيل

تغطية: مراسل المجلة في مصر

ليست الخلافات بين مصر ودول حوض النيل مجرد خلافات يمكن حلها ببعض الزيارات والمفاوضات، فقد تعدت الخلافات هذه المرحلة البسيطة، وتجاوزتها إلى مرحلة معقدة، وجدت فيها مصر نفسها أمام سدود وجنادل وتيارات معاكسة، بعد أن سلبت الدفة منها قوى أخرى، وصارت تسيطر على دول حوض النيل الجنوبية، وجعلتها تسير عكس التيار للوصول إلى أهدافها وتحقيق مطامعها.

فما هي تلك القوى التي تعكر المياه بين دول حوض النيل، وماذا يقول الخبراء عن هذه الأزمة، وهل لديهم أفكار جديدة يقدمونها لذوي الشأن للخروج منها؟

هذا ما تقدمه مجلة «قراءات إفريقية» في هذا العدد، من خلال هذه الندوة المهمة التي عُقدت في القاهرة بتاريخ ٢/٥/٢٠١٠م

محاور الندوة

١ – الدور الغربي في أزمة مصر مع دول حوض النيل
٢ – موقف البنك الدولي من مصر والمشروعات على النيل
٣ – أهمية الاتفاقيات القديمة بين دول حوض النيل
٤ – الوقود الحيوي الذي سيشعل نار الحرب في دول الحوض
٥ – قضية مصر وقناة جونجلي
٦ – ومقترحات عديدة للخروج من أزمة مصر مع دول حوض النيل

ضيوف الندوة

١ – الأستاذ/ ممدوح الولي، نائب تحرير الأهرام الاقتصادي – مشرفاً –
٢ – الدكتور/ مغاوري شحاتة دياب، خبير المياه ورئيس جامعة المنوفية الأسبق
٣ – الدكتور/ جعفر عبد السلام، أستاذ القانون الدولي بجامعة الأزهر
٤ – الخبير الاستراتيجي/ اللواء محمد علي بلال
٥ – الخبير الاقتصادي/ جمال الشريف
٦ – المستشار/ زكريا عبد العزيز، رئيس نادي القضاة السابق

في محاولة للبحث عن مخرج للأزمة القائمة بين مصر والسودان من ناحية وباقي دول حوض النيل من ناحية أخرى؛ نظمت جماعة الإدارة العليا ندوة بعنوان «بدائل لحل الخلاف مع دول منابع النيل» تحت إشراف الأستاذ ممدوح الولي نائب تحرير الأهرام الاقتصادي.

■ افتتاحية الندوة:

الأستاذ ممدوح الولي:

افتتح الأستاذ ممدوح الندوة بعرض متكامل لحجم الاستثمارات والتجارة والسياحة بدول حوض النيل؛ معتمداً على إحصائيات البنك الدولي الرسمية، وتوقف كثيراً أمام المساعدات الخارجية الغربية المقدمة لتلك الدول.

وعرض إحصائيات البنك الدولي التي تبرز مدى الدعم الذي تقدمه ٢٢ دولة غربية، منها أمريكا وفرنسا وإسبانيا، لدول حوض النيل، حيث أظهرت تلك الإحصائيات أن دول حوض النيل هي الأعلى تلقياً للدعم الغربي، ومن تلك الدول المدعومة أثيوبيا التي قُدم لها في ٢٠٠٤م دعماً قدره ١,٨ مليار دولار، زادت في ٢٠٠٨م إلى ٢,٩ مليار، ومصر ٠,٣ مليار، وتنزانيا في ٢٠٠٨م ٢,٣ مليار، والكونغو ١,٦ مليار، وذكر أنها أرقام ضخمة بالمقارنة بما تقدمه مصر لتلك الدول الفقيرة.

وذكر أن مصر أنشأت صندوق تعاون لدول إفريقيا، موازنته ١٦ مليون دولار فقط، لكل دول إفريقيا بما فيها دول حوض النيل، مبيناً أنه لو تم توزيع تلك الموازنة على دول حوض النيل فقط؛ فهي موازنة هزيلة جداً بالمقارنة بالدعم الغربي لتلك الدول.

والنتيجة الحتمية لهذا الدعم الغربي المتفوق على التعاون المصري ، كما قال الأستاذ ممدوح، أن ولاء دول حوض النيل الفقيرة والتي تعاني العديد من المشكلات الاقتصادية سيكون لمن يدعمها، وسيكون لديها بهذا الدعم الغربي ما يسوّغ لها ما تقوم به تجاه مصر من منازعات ومناوشات حقوقية على مياه النيل.

وحول حجم التجارة بين إسرائيل وتلك الدول؛ أوضح أن حجم التجارة بين مصر وإسرائيل أكبر من حجم التجارة بين إسرائيل وباقي دول حوض النيل.

ثم تكلم الأستاذ ممدوح عن الحلول المقترحة لهذه الأزمة، ورأى أن تقوم مصر بالعمل على عدد من المحاور، منها التقارب اللغوي، عن طريق معرفة اللغات المحلية لتلك الدول، ومنها السواحلية، وإنشاء إذاعة مثلاً ناطقة بتلك اللغة، فلا إصلاح بدون التقارب مع تلك الدول عن طريق لغاتها.

كما ذكر إمكانية الاستفادة من حجم الاستثمارات السعودية والإماراتية والتركية مع دول حوض النيل، وذلك بمطالبة هذه الدول من خلال الدبلوماسية المصرية أن تضغط على دول حوض النيل لتنفيذ الاتفاقيات السابقة والالتزام بها.

ومن المحاور التي أشار إليها لحل الأزمة الاستفادة من الدبلوماسية الشعبية، مثل تفعيل دور الأزهر الشريف في تلك الدول، وقيام النقابات بدور للتقارب مع دول حوض النيل، وكذلك الاستفادة من هيمنة الكنيسة المصرية الروحية على الكنيسة الأثيوبية.

■ كلمات الضيوف:

الدكتور مغاوري شحاتة:

رأى الدكتور مغاوري شحاتة دياب، خبير المياه ورئيس جامعة المنوفية الأسبق، أنه لا داعي للقلق تجاه ما تسعى دول حوض النيل

للقيام به من مشاريع مائية؛ لأن تلك المشاريع مجتمعة ستمنع ٧٠ مليار متر مكعب من التدفق في النهر، في مقابل ١٦٦٠ مليار متر مكعب ستجري فيه، مؤكداً أنه لا يستطيع أحد أن يغير مجرى النهر، وسيظل نهر النيل يجري من الجنوب إلى الشمال ولن يستطيع أحد أن يمنعه.

ورفض د. مغاوري أن تكون الحرب هي وسيلة الحل للأزمة القائمة، وطالب بالاستمرار في الجهود الدبلوماسية المصرية، وحسن استغلال القانون الدولي، والتمسك بالاتفاقيات السابقة المعقودة بين مصر ودول حوض النيل.

كما رفض فكرة الاستفادة من تأثير الكنيسة المصرية على الكنيسة الأثيوبية، وذكر أن السياسة والمصالح هي اللاعب الرئيس الآن على المسرح الدولي ولا قيمة لغير ذلك.

وبيّن في معرض حديثه أن اللوم الأكبر في هذه الأزمة يعود على الدبلوماسية المصرية، والتي تعاملت بنبرة استعلاء منذ فترة مع الدول الإفريقية، فمصر أهملت إفريقيا وتعاملت معها بتعال، وقال إن رئيس مجلس الوزراء أحمد نظيف استُقبل بطريقة سيئة جداً عندما زار أثيوبيا نهاية العام الماضي، وبدلاً من التعالي المصري تعالت أثيوبيا على مصر، واتضح ذلك من الموقف الذي اتخذه رئيس الوزراء ميليس زيناوي من نظيف.

وذكر أن الإخفاق الذي حدث في المؤتمر الأخير ليس إخفاقاً مفاجئاً، فأثيوبيا مثلاً تتخذ موقف الرفض الدائم تجاه مصر منذ بدء القرن العشرين، مدللاً على ذلك بالإنذار الذي وجهه الرئيس الأثيوبي لرئيس مصر السابق بأن أثيوبيا ترفض كل الاتفاقيات السابقة حول نهر النيل، وأنها في حِلٍّ منها بعد سنتين من تاريخ هذا الإنذار.

وحول إمكانية استخدام البنك الدولي لدعم مشروعات مائية تحفظ المياه المهدرة؛ قال: البنك الدولي دائماً ضد مصر، وهو يدار طبقاً للإرادة الغربية فقط.

الدكتور جعفر عبد السلام:

أكد الدكتور جعفر عبد السلام أستاذ القانون الدولي بجامعة الأزهر أن موقف مصر من الناحية القانونية موقف قوي، وقال إن من حق مصر أن تتمسك بحقوقها المكتسبة في مياه النهر بحسب اتفاقيتي ١٩٢٩م و١٩٥٩م اللتين تحددان حصة مصر، فهي حقوق مكتسبة لا يجوز المساس بها، بحكم قاعدة التقادم المكتسب، وأنه لا يجوز لأي دولة القول بأنها كانت تحت سيطرة المحتل الأجنبي، لأن فتح الباب لتعديل الاتفاقيات التي وُقّعت في ظل وجود المستعمر الأجنبي سيغيّر الحدود بين جميع الدول الإفريقية، لأنها تمت في عهد الاستعمار.

وطالب بالاستفادة من وجود أكثر من سبعة آلاف طالب إفريقي بمصر، أغلبهم ملتحق بالأزهر الشريف من أجل بناء رأي عام قوي داخل هذه الدول للضغط على حكوماتها، وذكر أن على مصر السعي لإنشاء جامعات إفريقية عربية داخل دول حوض النيل وبخاصة أثيوبيا.

وأضاف أنه لما تم إنشاء المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر كان من إحدى مهامه الحفاظ على الأمن القومي المصري، ولذلك أصدر العديد من الكتب الإسلامية باللغات المحلية لدول إفريقية لدعم فكرة التقارب المصري الإفريقي.

اللواء محمد بلال:

في أول حديثه رفض الخبير الاستراتيجي اللواء محمد علي بلال فكرة التقليل من حجم خطورة المشروعات التي ستقوم بإنشائها دول

حوض النيل عليه، وهي الفكرة التي تبناها الدكتور مغاوري، مؤكداً أنه على الرغم من أن منع ٧٠ مليار متر مكعب من الجريان في مجرى النهر لا يعد شيئاً بالمقارنة بما يجري فيه فعلياً وهو ١٦٦٠ مليار متر مكعب؛ فإن منع الـ ٧٠ مليار متر مكعب سيؤخر وصول المياه لمصر، وهذا ما وافقه فيه الدكتور مغاوري بعد ذلك، كما أن منع ٧٠ مليار متر مكعب قد يكون بداية لمشروعات أشد في ظل الاهتمام بالوقود الحيوي.

وحذّر من إمكانية تحويل مجاري بعض الأنهار التي تصب في نهر النيل، وأن هذا الأمر ممكن، مستدلاً على ذلك بتحويل مجرى نهر النيل عند بناء السد العالي.

وأظهر اللواء بلال أن الرئيس السابق لمصر جمال عبد الناصر شعر بأهمية التعاون مع دول حوض النيل، فسعى إلى التقارب معها، واستخدم الرياضة وسيلة للتقارب، فأنشأ الاتحاد الإفريقي بالتعاون بين مصر والسودان وأثيوبيا، وبينها قامت أول بطولة لكأس الأمم الإفريقية.

وأكمل قائلاً: مصر أهملت تلك الجهود السابقة، في الوقت الذي يوجد فيه تسارع بين الصين والغرب والهند وإيران للسيطرة على دول حوض النيل الجنوبية، وكل المساعدات المقدمة لتلك الدول ليس لها إلا هدف واحد، ألا وهو السيطرة السياسية عليها، فعصر الاحتلال العسكري انتهى وظهر عصر الاحتواء السياسي والاقتصادي.

وعن أهمية اللجوء للقانون الدولي؛ قال: القانون في عصرنا هذا ليس له مكان على الإطلاق، ونحن الآن نعيش في ظل شرعية القوى وليس قوة الشرعية، وكثير من الاتفاقيات صارت حبراً على ورق، ومن يفعلها هو فقط من يستطيع أن يحميها، متسائلاً: هل البنك الدولي الذي خذل مصر في مشروع السد العالي؛ سيأتي معنا هذه المرة لمساندتنا ويمتنع عن تمويل المشروعات التي تقام على نهر النيل في دول المنابع!

وأضاف: جميع المشروعات التي تتم في إفريقيا والممولة من الخارج جميعها مستمرة فيما عدا مشروع قناة جونجلي؛ لأنه المشروع الوحيد الذي كان سيزيد المياه القادمة إلى مصر، والهدف من ذلك في الحقيقة هو السيطرة على مصر والتأثير فيها، وإيقاف التنمية فيها هو الهدف الذي يسعى الغرب إلى تحقيقه.

وبيّن أن مصر مستهدفة منذ القدم، ففي عهد محمد علي عندما قام بنهضة عسكرية واقتصادية وسياسية؛ تضافرت جهود الدول الغربية للقضاء على تلك النهضة وإلزامه باتفاقيات تحد من نشاطه، فهمّ هذه الدول هو إيقاف التنمية في مصر.

وفي نهاية الكلمة التي ألقاها اللواء طالب بأن يُسند ملف حوض النيل إلى سياسيين محنكين ذوي كفاءة، يفهمون الاستراتيجيات، لأن وزارة الري في رأيه غير مؤهلة للتفاوض في هذا الملف الخطير.

الاقتصادي جمال الشريف:

ذكر الخبير الاقتصادي جمال الشريف أن المشكلة الأم هي أن الإعلام الدولي يروّج للعديد من الأكاذيب التي يصدّقها الأفارقة، ونحن السبب في انتشار تلك الأكاذيب بتكاسلنا تجاه نشر الحقائق، من ذلك الزعم بأن توشكى صنعت لإمداد ليبيا بـ ٤٥ مليار متر مكعب من المياه، وأن ترعة السلام أنشئت لإمداد إسرائيل بـ ١٥ مليار متر مكعب من المياه.

وبيّن أنه من الواجب عدم التعويل على

الاتفاقيـــات الدوليـــة؛ لأن تلـــك الاتفاقات لم تمنع أمريكا من الاعتداء والعدوان على العراق وأفغانستان.

المستشار زكريا عبد العزيز:

ورأى المستشـــار زكريا عبد العزيز رئيس نادي القضاة السابق أن عدد الأفارقة في مصر يتناقص بشـــدة مما ينذر بمزيـــد من التباعد المصري الإفريقـــي، وتعجّب من اهتمام مصر بتأمين حدودها مع غزة في ظل تلقيها للطعنات المتتالية في ظهرها وشـــريان حياتها من دول حوض النيل!

وذكر أنه من الواجـــب علينا أيضاً أن نقوم بتغييـــر ثقافة التعامل مع النيـــل داخل مصر، والسعي إلى نشـــر ثقافة المحافظة على مياه النيل وعـــدم تلويثها أو إهدارهـــا، وربّ ضارة نافعة.

آراء أخرى:

ورأى بعض الحضور أن سبب زيادة اهتمام دول حوض النيل بمياهه هو تلك المشـــروعات الزراعية التي أقامتها العديد من الدول الغربية بل والعربية لزراعة الذرة، وذلك ســـعياً لإنتاج الوقود الحيـــوي البديل الجديد للنفط، وهو ما أدى إلى زيادة الصراع بين دول حوض النيل.

وفي إطـــار المقترحات لحـــل الأزمة بين مصر ودول حوض النيل طالب بعض الحاضرين بدبلجة الأعمـــال الثقافية والفنيـــة المصرية باللغات المحلية الإفريقية، في محاولة للتواصل مع هذه البلاد ثقافياً ودعم التقارب معها.

الدم المستباح
بين المتاجرة والمفاجرة

خالد أبو الفتوح *

أشخاص عزل رافعون أيديهم فوق رؤوسهم، أحدهم يمشي على عكازين خشبيين، يسوقهم جنود مسلحون يرتدون زيهم الرسمي إلى ساحة فضاء، يأمرهم الجنود بالانبطاح أرضًا فيذعنون بلا مناقشة ظنًا منهم أنها حلقة في سلسلة أوامر وإهانات تالية.. ولكن لم يوجه إليهم أي جندي أي كلمة أخرى، بل تكلمت البندقية، لم يكن حديث البندقية مطولاً، كان حديثًا موجهًا ومباشرًا.. طلقة واحدة بلا تردد في رأس كل طريح على الأرض، يتوقف صوت الرصاص بدون حتى أن نسمع صوت فزع أو صراخ ما قبل الموت، تنفجر الرأس وتسيل منها الدماء وتصعد الروح إلى بارئها.

استنكر القائد الذي كان على مقربة من المشهد ما فعله جنوده، فصاح فيهم بينما كانوا يسوقون مجموعة أخرى إلى الساحة الفضاء التي عرفنا فيما بعد أنها (ميدان الإعدام)، وأمرهم أن يغيروا طريقة الحوار، موجهًا تعليماته إلى الجندي المكلف بالمهمة التالية بأن يطلق الرصاص على الصدور لأنه يريد غطاء رأس القتيل!!..

هذه المشاهد ليست مقاطع من فيلم رعب (أو إرهاب) سينمائي، بل هي أجزاء من مشاهد بثتها قناة فضائية لواقع جرت أحداثه في بعض مدن وقرى المسلمين في الشمال النيجيري، بذريعة القضاء على جماعة (إرهابية) إسلامية، وهي ما أمكن تسريبه من مشاهد الأحداث بعد وقوعها بحوالي ثمانية أشهر تقريبا .

أزعم أن هذه الأفعال لو صدرت عن مسلمين تجاه كافرين لهب المسلمون (لو كانوا مستمسكين بدينهم) لدفع الظلم عن المظلومين (الكافرين) ومحاسبة المعتدين (المسلمين)... ولكن هذه الأحداث التي كان ضحاياها مسلمين لم تحرك ساكنًا في مسلمين ولا كافرين، وكأن هؤلاء القتلى كلاب ضالة مسعورة يجب التخلص منها... بل أزعم أنهم لو كانوا كلابًا ضالة بالفعل لهبت جمعيات حقوق الحيوان في الشرق والغرب للدفاع عنهم ومحاسبة المجرمين المنتهكين لحقوقهم، وربما لتطوع بعض أثرياء المسلمين لهذه الجمعيات التي تفيض منها مشاعر الإنسانية الحيوانية ببعض ماله أو تأييدها بالقول والفعل.

ومما يزيد من الأسى أن هذه المشاهد ليست أحداثًا عابرة في بقعة جغرافية محدودة، بل هي سلسلة متتابعة من الأحداث بدأت منذ قرابة عشر سنوات وما زالت مستمرة إلى الآن، مسرحها قرى ومدن عديدة للمسلمين في أكثر

*) مدير مركز الفتوح للمعلومات.

من ولاية نيجيرية، تمارس فيها كل طرق البطش والتنكيل والقتل على الهوية الدينية والعرقية.

■ حرمة المسلم:

وقبل أن أذكر بعض الوقفات مع هذه الحادثة، أود أن أذكّر بما ورد في تعظيم أمر القتل والدماء؛ إذ جعل الله تعالى قتل النفس بغير حق كقتل الناس جميعًا، وذلك في قوله تعالى:﴿... مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ...﴾ [المائدة : ٣٢]، بل إن قتل الحيوان لغير مصلحة شرعية يعد ذنبًا يعاقب عليه مرتكبه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضاً»[1].. وهو تسام ينأى عنه ما يدعيه منظرو حقوق الإنسان في الفكر الغربي، فضلاً عن منتهكي هذه الحقوق.

الوقفة الأولى: حقوق الإنسان مبدأ أم أداة؟

يقف (حق الإنسان في الحياة)، و(حقه في المحاكمة محاكمة عادلة) على رأس الحقوق التي طالما دندن عليها الغرب وأبواقه الإعلامية ومنظماته الحقوقية، باعتبارهما من أهم الحقوق الطبيعية للإنسان.

ولا نناقش في هذا المقال فلسفة هذه الحقوق عند الغرب، ولكن نناقش تطبيقها في الواقع، خاصة عندما يكون الإنسان المسلم هو ميدان تطبيقها، وإذا اتخذنا الحالة السودانية نموذجًا مقابلاً، نجد أن الغرب حرك الدنيا كلها لفرض تدخله في دارفور غرب السودان بذريعة الدفاع عن حقوق الإنسان، واتخذ إجراءات حازمة للضغط على حكومة معترف بها دوليًا تواجه تمردًا مسلحًا داخليًا، وشرع في خطوات جدية لمحاكمة من اتهمهم الغرب بأنهم ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية (إبادة جماعية، وتطهير عرقي، وترحيل قسري...)، لم يكن ذلك على المستوى الرسمي فقط بل بلغ من حرص المجتمع الغربي على هذه الإنسانية ودعم حقوق الإنسان (المظلوم في دارفور) أن سعت هولندا وأسست إذاعة موجهة لأهالي دارفور وتبنى الصحافي البريطاني لويس داميان تأليف كتاب د. حليمة بشير «دموع من الصحراء» ونشره بوصفه دليلاً دامغاً على حالات الاغتصاب بالإقليم، وهي تهمة سياسية كما الإبادة الجماعية والتطهير العرقي. الإذاعة والكتاب والفيلم المنتج الآن جميعها وسائل توظف الثقافة والفن خدمة لأغراض سياسية، وهي أكثر الوسائل المتاحة لناشطي المجتمع المدني للتضييق على الخرطوم، ومؤخرًا قام بعض الناشطين الغربيين بدعم إنتاج أفلام سينمائية على أعلى مستوى، قيل إن أحدها مفبرك التقطت مشاهده في منطقة "قلقت" وسط كينيا في معسكر للنازحين الكينيين الفارين من أعمال عنف أعقبت الانتخابات الماضية، وسيسوق على أنه فيلم وثائقي يوضح مشاهد حقيقية من دارفور، وآخر رصد له أكثر من عشرة ملايين دولار يراد له أن يكون في مستوى عمل سينمائي عربي عالمي (انظر: الرأي العام السودانية ٢٠١٠/١/١٠، والخليج الإماراتية ٢٠١٠/٢/٢٥، والشروق الجديد المصرية ٢٠٠٩/١٢/٧)، وذلك في الوقت الذي أوشكت فيه الأزمة على الانتهاء والتوصل إلى تسوية... وهذا بعد النجاح الملموس الذي حققه الغرب في الوصول بأزمة جنوب السودان إلى تحقيق الأهداف المرسومة.

فباستثناء بعض البيانات من بعض منظمات حقوق الإنسان، وهي بيانات شجب واستنكار

---

١) صحيح أخرجه مسلم رقم: ١٩٥٨ والنسائي وأحمد ٩٢/٩ من طريق سعيد بن جبير . وانظرصحيح النسائي للألباني رقم: ٤٤٥٣.

تطالب (السلطات النيجيرية!!) بالتحقيق في «جميع الجرائم التي يشتبه في أن الشرطة النيجيرية ارتكبتها خلال الأعوام الأخيرة».. ماذا فعل الغرب ومنظماته ومؤسسات مجتمعه المدني إزاء جرائم (الإبادة الجماعية، والتطهير العرقي) الصريحة المستمرة منذ سنوات في نيجيريا، والتي ذكرنا مشاهد منها في مطلع هذا المقال، خاصة مع توارد بعض الأخبار أنها ما زالت جارية بمشاركة مسؤولين حكوميين[1]؟ أم أن موقف الغرب من المسلمين ومصالحه في هذه المنطقة تقتضي غض الطرف عن هذه الجرائم إن لم نقل المساهمة فيها وتأجيج نارها من طرف خفي.. وقس على ذلك موقف الغرب من قضايا حقوق الإنسان المثارة في إفريقيا وغيرها، كالصومال والجزائر وليبيا وبورندي.. وغيرها من البلدان.

الوقفة الثانية: إفلاس الدمى السياسية:

وإذا كان موقف الغرب هذا متوقعًا، لأن الغرب البراجماتي النفعي لا يعرف إلا مصالحه ولا يعمل إلا لأجندته ، فإن موقف المنظمات الدولية والإقليمية خاصة الإسلامية يعد موقفًا مريبًا أو على الأقل غير مفهوم، فلم نسمع صوتًا للأمم المتحدة، ولا لمجلس أمنها، ولم يظهر أثرًا للفصل السابع ولا السابع عشر من ميثاق الأمم المتحدة، ولم نسمع صوتًا ولا همسًا للمحكمة الجنائية الدولية ولا لمدعيها لويس مورينو أوكامبو، بل إننا لم نر أي اهتمام بالضحايا ولا بملاحقة المتهمين بهذه الجرائم من منظمات إقليمية يفترض أن هذا الشأن أقرب إليها؛ كمنظمة الاتحاد الإفريقي، ومنظمة الدول الإسلامية، ويلح السؤال الطبيعي في مثل هذا الموقف: لماذا هذا التجاهل؟، أليس هذا الموقف يدعم من يتهمون هذه المنظمات بأنها ما هي إلا دمى في مسرح العرائس السياسية تحركها إرادة أعلى منها، تتحرك في الوقت والاتجاه الذي يتفق مع هذه الإرادة وتصمت وتشل فاعليتها إذا لم يلوح لها بالكلام والحركة؟.

الوقفة الثالثة: الإرهاب بوسيلة مكافحة الإرهاب :

لم يكن إقدام هذه الحفنة الإجرامية والعصابات المسلحة الأهلية والرسمية – كما ظهر في المشاهد المعروضة – على ارتكاب هذه المذابح إلا بعد الاطمئنان بأنها لن تلاحق ولن تدان، بسبب معروف، هو أن الدم الإسلامي مستباح بغير عقاب عندما تكون الذريعة المعلنة: محاربة الإرهاب، وإذا افترضنا أنه بالفعل صدرت من بعض الأفراد أو الجماعات في منطقة ما بعض التجاوزات بل الجرائم، فهل يعني ذلك أن يؤخذ بجريرتهم كل من يعيشون في هذه المنطقة؟، وهل يعني ذلك أخيرا أن تطلق يد كل من يرخص له بحمل السلاح لإصدار الحكم والتنفيذ بإزهاق الأرواح بلا أي تحقق أو محاكمة، أليس الإرهابيون أو الإسلاميون بشرا كسائر البشر يجب أن تشملهم العدالة أيًا كان معيارها عند كل من يعد العدالة قيمة عليا؟ ألا يجوز لهم المطالبة بمعاملة إنسانية مثل سائر البشر؟ في الغالب فإن أحد أسباب إهدار بشريتهم وحقوقهم الإنسانية البدهية أنه من الصعوبة أن تتعاطف معهم ومع أمثالهم أي جهة، وإلا سيكون نصيبها الكيل بتهم جاهزة ومعلبة، ليس أقلها التعاطف مع الإرهابيين أو الترويج لهم أو حتى دعمهم.

إن الناظر في ممارسات ما يسمى بالحرب على الإرهاب، وهو مصطلح لم يتفق على

---

(١) وما حدث في جوس ليس ببعيد عنا. فقد كانت قرية «كورا كراما» التابعة لمدينة «جوس» عاصمة ولاية بلاتو في وسط نيجيريا في ١٩ يناير الماضي ولمدة أربعة أيام. مسرحا لمذبحة بشعة ضد المسلمين راح ضحيتها وفقا لمنظمات حقوقية ٥٥٠ قتيلا . بسبب خلاف حول إعادة بناء مسجد في القرية .

مدلوله حتى الآن، يدرك أن زعم هذه المحاربة كان في كثير من الأحيان ذريعة لانتهاك حقوق الإنسان، وللبطش والتنكيل بالقوى المناوئة أو المعارضة، أو لتحقيق مصالح خاصة لبعض القوى والتيارات، وأصبحت هذه الذريعة إحدى الوسائل لإرهاب لا يختلف عليه.

الوقفة الرابعة: تعددت الأكلة والقصعة واحدة :

لا نستطيع أن نفصل هذه الأحداث عن السياق العام الذي تعيشه الأمة الإسلامية، خاصة في بؤر التماس والتفاعل والصراع مع القوى المتربصة بها؛ فهذه المشاهد هي واحدة من سلسلة أحداث يعيشها إخواننا المسلمون في نيجيريا، وحالة نيجيريا برمتها تعد نموذجًا لاستهداف الدول الإسلامية الكبرى أو الحضور الإسلامي في المناطق الجغرافية ذات الحساسية الإقليمية أو الدولية .

فالناظر في سلسلة المشكلات التي يعيشها أو يتورط فيها السودان منذ عشرات السنين، والتي شملت حرب التمرد في الجنوب وتجمع المعارضة عسكريًا ومحاولة الزحف من الشرق، مرورًا بضربه بغارات أمريكية وحصاره وفرض عقوبات دولية عليه بزعم إنتاجه أسلحة كيماوية، وهو ما ثبت كذبه لاحقًا، وأخيرًا التدخل في شؤونه وتكبيل سلطاته وقدراته وملاحقته بسبب أزمة دارفور (قارن ذلك بحالة إثيوبيا المجاورة، متعددة الأعراق والأديان واللغات والطبيعة الجغرافية)... والأمر نفسه نراه في الصومال من تقطيع أوصاله والتدخل في شؤونه وإرسال قوات أجنبية إلى أرضه كلما لاحت فرص استقرار للحيلولة دون وجود إسلامي فيه، والجزائر ومحاولة استغلال مشكلة البربر من حين لآخر، وإدخاله في دوامة حرب شبه أهلية بإقصاء قوى سياسية اختارها الشعب عبر صناديق الاقتراع والنفخ في استعداء الرأي العام لهذه القوى، وإلى أقصى الشرق في إندونيسيا... حيث مذابح جزر الملوك الرهيبة والمقززة، وأحداث ما قبل انفصال جزيرة تيمور الشرقية، مرورًا بما حدث ويحدث للمسلمين في بورما وتايلاند والفلبين والصين وأفغانستان والشيشان والعراق وفلسطين والبوسنة والهرسك..

أزعم أنه لا يوجد دين أو عرق أو قومية ينكل بأهلها ويلاحقون بهذا الإلحاح والاستمرار في جميع بقاع العالم غير المسلمين.. فهذه المشاهد ليست سوى فصلٍ من فصول مشاهد الهوان والحالة الغثائية التي تعيشها أمتنا.. وصورة من صور التكالب النهم على القصعة الإسلامية واستغلال فرصة ضعفهم وتفرقهم لاستباحة مقدساتهم وانتهاك حرماتهم.

الوقفة الخامسة: هانت علينا أنفسنا فهُنّا على الناس :

وإذا كنا لا ننتظر من الكافرين نصرة المستضعفين المسلمين، ولا نتوقع من معتديهم وظالميهم غير أنهم ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة : ١٠]، وأنهم ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة : ٢]، ولا ينبغي أن نستجدي من الكافرين العدالة والرحمة... ترى ما السبب في أن المسلمين لم ينتفضوا لنصرة إخوانهم المعتدى عليهم؟.. هل لأنهم ليسوا بجوار المسجد الأقصى؟، ربما.. أم لأنهم لا يعيشون في قلب أوربا؟، يجوز.. أم لأن الزمان زمان سلام تكون الحكمة فيه بغض الطرف عن بعض الطغاة ولعق جراح بعض المستضعفين؟!..

إن حرمة المسلم عند الله تعالى من أشد الحرمات قال عز من قائل:﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً

مُّتَعَمِّـــداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النســـاء : ٩٣]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ـ صلى الله عليه وســـلم ـ يطوف بالكعبة وهو يقول: «مـــا أطيبك وأطيـــب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتـــك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه وأن لا نظن به إلا خيرًا»» رواه ابن ماجه[١].

وإن الولاء بين المســـلمين والتناصر بينهم مهمـــا تباعـــدت بهم البقـــاع وتباينـــت بينهم الأعـــراق.. من أشـــد الواجبـــات حتمية، وهو ـ مع البـــراءة من المشـــركين والكافرين ـ من لـــوازم التوحيد إن لم يكن من التوحيد نفســـه – على رأي مـــن قال ذلك مـــن العلماء –، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُـــولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُـــواْ ...﴾ [المائدة : ٥٥]، وقال عز من قائل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَـــاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُـــرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَـــنِ الْمُنكَرِ ...﴾ [التوبة : ٧١]، وقال ســـبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ...﴾ [الأنفال : ٧٢] إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَـــرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَـــادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣]، قال القرطبي – رحمه الله – في تفسيره: «قطع الله الولاية بين الكفـــار والمؤمنين فجعل المؤمنين بعضُهـــم أولياء بعض، والكفـــار بعضهم أولياء بعض، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم»، وقال صلى الله عليه وسلم: «أوثق عرى الإيمان: المـــوالاة في الله ، و المعاداة في الله ، و الحب في الله والبغـــض في اللـــه»[٢]، وقال عن ابن عباس : «المســـلمون تتكافأ دماؤهم، ويســـعى بذمّتهم أدناهم، ويُجير عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على مَن سواهم»[٣]، وقال عن عبد الله بن عمر: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يحقره، ولا يخذله، ولا يكذبه» [متفق عليه][٤].

فأي خذلان لإخواننـــا أكبر من أن نخذلهم فـــي وقت محنة كهـــذه، وإذا لـــم نظهر نصرة إخواننا المسلمين في هذه المواقف فمتى تكون النصرة؟، أليـــس «مثل المؤمنيـــن في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجســـد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له ســـائر الجســـد بالسّـــهر والحمّى»؟ [رواه مســـلم عن النعمان بن بشـــير رقم ٢٥٨٦].

إن نصرتنا لإخواننا المسلمين المضطهدين والمظلومين ليس فقط للقيام بواجب شـــرعي مطلـــوب منا (وإن كان ذلك يكفي)، وليس فقط لإقامة ميزان العدل في الأرض.. بل هو ضرورة للمحافظـــة على كينونتنا الدينية والسياســـية والاجتماعيـــة، وحتى لا يأتي علينـــا تباعًا يوم نقول فيه: إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض! مع أن الواقع يشهد أن ثيراننا أكلت بجميع ألوانها، ومع ذلك لا نتعظ ولا نتحرك.

١) ضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه رقم (٣٩٣٢) وضعيف الجامع ٥٠٠٦، والضعيفة ٥٣٠٩. لكن في صحيح الترغيب والترهيب « رقم ٢٤٤١ وقال (صحيح لغيره). كما أورده الألباني من رواية ابن عباس انظر السلسلة الصحيحة : ١٢٥٠/٧ .

٢) عن عبدالله بن عباس و ابن مسعود و البراء بن عازب . انظر الألباني صحيح الجامع رقم: ٢٥٣٩ و السلسلة الصحيحة رقم : ١٧٢٨ .

٣) انظر سنن ابي داوود رقم: ٢٧٥١. و ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح ٣٨١/٣ . وانظر الألباني في صحيح ابن ماجة ٢١٨٩ و صحيح أبي داوود ٢٧٥١ وإرواء الغليل ٢٦٥/٧ .

٤) صحيح البخاري رقم: ٢٤٤٢ وصحيح مسلم رقم: ٢٥٦٤ .

نيجيريا..
الخارطة والبوصلة

أمير سعيد (*)

نظرة سريعة على الخريطة السكانية التي وضعها مركز بيو للأبحاث الأمريكية للمسلمين في العالم الصادر في أكتوبر ٢٠٠٩م بوسعها أن تلفت انتباه أي باحث لأكبر دولتين في القارة الإفريقية من حيث الكثافة السكانية للمسلمين؛ فالدائرتان الإحصائيتان اللتان رسمهما المركز الأكبر في إفريقيا كانتا من نصيب مصر ونيجيريا باعتبارهما دولتين تضمان عشرات الملايين من المسلمين على أراضيهما، ولا تكاد تنافسهما في ذلك أي دولة إفريقية أخرى بما فيها الدول العربية بشمال إفريقيا وشرقها.

وإذا كانت مصر بتاريخها الإسلامي العريق، وتجانسها الديني والعرقي والمذهبي تعد إحدى حواضر الإسلام التقليدية المعروفة؛ فإن نيجيريا تمثل مخزوناً بشرياً إسلامياً هائلاً لا يمكن تجاهله في إفريقيا، يساوي في مجمله مجموع سكان المسلمين في ثلاث دول عربية بالشمال الإفريقي، أو كتلة سكانية مقاربة لتعداد المسلمين في القرن الإفريقي كله، بمجموع سكان – وفق بيو – يتجاوز ٧٨ مليون نسمة، يمثل نسبة مقاربة لتعداد "المسيحيين" في البلاد التي تحوي أكبر تعداد سكاني في إفريقيا برمتها.

بالتأكيد، لن نكون مضطرين لقبول الأرقام التي وفرها المركز، والتي تمثل نسبة المسلمين في نيجيريا وفقه ٥٠,٤٪، وهو رقم يقل عن معطيات إسلامية أخرى تقفز بتلك النسبة إلى حجمها الحقيقي، وهو ما لا يقل عن ٦٠٪ وفقاً لما أكده لي رئيس مركز البحوث العربية النيجيري، حيث يميل إلى أن الأرقام التي تتراوح نسبتها بين ٦٥٪ – ٧٥٪ من تعداد السكان وتتردد في الداخل الإسلامي النيجيري، ربما كان مبالغاً فيها بعض الشيء، غير أننا لا نعول كثيراً على هذه المعطيات متى ما كان المسلمون هناك بحاجة إلى بلورة استراتيجية واعدة لتبوء مكانتهم المفترضة فيها، حيث دأبت الثقافة الإسلامية على النفاذ إلى جوهر ومضامين التأثير دون الاقتصار على شكلية المعطيات.

قد يكون من اللائق البحث خلف الأرقام الصادقة ونسبها الحقيقية حين تتوافر الإرادة الجماعية لتحريك الراكد في معادلات القوة التي يوضع المسلمون في إفريقيا عادة في أطرافها، سواء أكانوا أكثرية أم أقلية، ولدينا بلا شك أكثرية في بلدان إفريقية كثيرة لكنهم يعانون – كالأقليات – تهميشاً ممنهجاً، وحال وجود تلك الإرادة فإن مباشرة إنجاز مشروع إحصائي إسلامي عملاق يتمتع بمصداقية عالية سيكون أحد مشروعات النهضة الإسلامية في إفريقيا، ولاسيما في تلك البلدان التي تضم داخل حدودها عشرات الملايين من المسلمين

(*) نائب رئيس تحرير موقع المسلم.

كنيجيريا، مع التسليم بأن الثقافة الإسلامية التي تقدر كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية ترتكز إلى الفاعلية وتنبذ الغثائية التي تعود بالشعوب القهقرى.

الطريق شاق إذن، لكن سلوك دروبه ليس أمراً مستحيلاً، وقد قطعت فيه بعض المؤسسات الإسلامية في نيجيريا خطوات طيبة على الأصعدة الإعلامية والتعليمية والسياسية، وعلى نحو يرتجي شيوع الفعالية، وربط نحو ثمانين مليوناً بثوابت دينها وأمتها العريضة، غير أن المأمول أكبر كثيراً من تلك الجهود المباركة؛ نظراً لوجود قوة بشرية إسلامية هائلة، ولا تبعد كثيراً عن المنطقة العربية، مهد الحضارة الإسلامية.

ويعتقد أن وضع استراتيجية جديدة لنهضة المسلمين في نيجيريا تعالج نقاط الضعف التي سمحت للقوى التي استعمرت نيجيريا أن تغزوها، ولحلفائها أن يكملوا طريق الاستغلال والهيمنة والإنهاك الحضاري لم يحدث على نحو مرض، كما أن نقاط القوة التي يتوافر عليها الشعب النيجيري المسلم لم تستغل أبداً، وهنا يبدو مكمن الخلل في أي مقاربة تهدف إلى معالجة الوضع المتراجع منذ الاحتلال البريطاني لنيجيريا ١٩٠٣م وحتى هذه اللحظة، وما يستتبع ذلك سيظل في نطاق التشخيص المرحلي لمحاولة رؤية الواقع.

بوسعنا أن نصف الواقع الحالي، ونحلل ما نراه فيه، لكن الأمر سيقف عند حد التوصيف دون العلاج، ما لم تتحمل القوى الوطنية الإسلامية في نيجيريا مسؤوليتها إزاء هذه الدولة، التي تبدو مرشحة لتدخل "مشرط الاستعمار" الدقيق، الذي سيسلب مسلميها بعض ما حققوه من مكتسبات متواضعة في خلال العقود الماضية، وما لم يمد المسلمون خارج حدود نيجيريا يد المساعدة لمسلميها في الجانب المعرفي والتوعوي قبل أي أمر آخر.

وبين يدي هذه الصفحات، تبدو هذه البلاد ثرية بأحداثها التي تفتح شهية الساعين وراء الخبر المثير، ولاسيما إذا تعلق الأمر بمجازر تلفت نظر العالم إليها لأيام، ثم تخطف الكاميرات الأبصار والألباب معاً إلى قضية أخرى، وهكذا، حتى تغدو صور هذه البلاد لدى العالم – ولاسيما الإسلامي – عنواناً لأعمال العنف والمجازر التي ترتكب كثيراً بحق مسلميها، وقليلاً بحق مسيحييها.

وتنصرف الأذهان عنها، لكن أنظار دوائر صنع القرار في عواصم الحرب والمال، الأمريكية والأوروبية لا تتحول عنها ولن تفعل؛ حيث إنها تعتبر أكبر منتج نفطي في إفريقيا، وخامس أكبر مصدر نفطي للولايات المتحدة، وإحدى أيسر المناطق النفطية تأميناً في نقل هذه السلعة الاستراتيجية إلى مستودعات الولايات المتحدة الأمريكية (لعدم وجود قوى عسكرية يمكنها اعتراضها أو مضايق بحرية بطريق سير ناقلاتها)، ومن قبل هي أكبر دولة إسلامية إفريقية بعد مصر.

وفي الشهور الأخيرة، لدينا جملة من الأحداث قد تكون معبرة عن بعض ما يجري داخل المجتمع النيجيري المنقسم إلى حد كبير، لكنها ليست إلا حمماً للظى بركان ربما ينفجر في توقيت غير محسوب، على الأقل لدينا نحن المسلمين، دون القوى النافذة في عظام الجسد النيجيري.

■ اللحظة الراهنة:

١ – ثمة أخبار تتعلق بمجازر، بعضها ضد مسلمين تم تقليل أعداد ضحاياها عمداً،

وبعضها أشاعت الأنباء أنها ضد مسيحيين، رغم سقوط أعداد كبيرة من المسلمين من بين قتلاها.

وأخبار أخرى تتعلق بتصفية أعداد كبيرة من حركة بوكو حرام بعد عملية قامت بها السلطات الأمنية.

وثالثة ـ وفقاً لجماعة "تعاون المسلمين" النيجيرية ـ، تتعلق بشائعات تطلقها الكنائس الإنجليكانية التي يقال إن بعضها لها علاقات مع وكالة الاستخبارات الأمريكية ،عن وجود معسكرات لتنظيم القاعدة في "طول البلاد وعرضها" – بحسب مصادر "مسيحية" –، وذلك في أعقاب اعتقال النيجيري عمر فاروق عبد المطلب المتهم بمحاولة تفجير طائرة أمريكية، ونسبة ذلك لتنظيم القاعدة.

٢ – وهناك أخبار تتعلق بصحة الرئيس النيجيري المسلم عمر موسى ياراادوا المتدهورة، واحتمال استبداله بنائبه "المسيحي" جودلاك جوناثان، الذي ينحدر من الجنوب ذي الغالبية المسيحية، وقد خلف ياراادوا، سلفه "المسيحي" أولوسيجون أوباسانجو، عام ٢٠٠٧م بعد فترتين قضاهما أوباسانجو في الحكم، تمكن فيهما من تشييط عمل المنظمات التنصيرية، وبذل جهداً كبيراً من أجل تهميش الغالبية المسلمة.

٣ – وأيضاً لم تزل قضية إقليم بيافرا جنوب شرق نيجيريا ذي الغالبية "المسيحية"، الذي تسعى جماعات مسيحية إلى فصله عن نيجيريا بعد اكتشاف النفط فيه، وأضرمت بسبب ذلك حرباً أواخر ستينات القرن الماضي، أسفرت عن نحو مليون قتيل، بعد أن دعمت إسرائيل انفصاله، لكنها عادت وتراجعت بسبب انشغالها بحرب الاستنزاف التي أشعلتها مصر معها بعد هزيمة عام ١٩٦٧م، ومن الجدير الانتباه إليه أن الجزء الشرقي من نيجيريا قد ضم إليها من الكاميرون عام ١٩٥٩م ـ أي قبل عام فقط من الاستقلال ـ وهو ما ساهم في صناعة بذور أزمة مكتومة في شرق البلاد.

٤ – رفض الحزب الحاكم النيجيري تولي جودلاك جوناثان نائب الرئيس الحالي في حال غياب الرئيس المسلم ياراادوا الذي ساعد مرضه معظم فترة حكمه ـ ولا يزال مريضاً ـ على وجود حالة مثالية للنشاط الاستخباري الغربي، والكنسي على الصعيدين السياسي، والديني (الشعائري)؛ حيث نشط التنصير أكثر في الجنوب مستغلاً هشاشة الحكم. حيث يقضي نظام الحزب بأن يتناوب المسلمون في الشمال، والمسيحيون في الجنوب على رئاسة نيجيريا؛ وإذ أمضى أوباسانجو فترتي حكم، ولم يقض ياراادوا إلا نحو نصف فترة؛ فإنه يتوجب أن يحل مسلم مكان ياراادوا حال غيابه.

٥ – عودة القلق إلى السوق النفطي النيجيري بعد عودة حركة تحرير دلتا النيجر إلى شن بعض الهجمات على المنشآت النفطية، بعدما كانت وافقت على وقف الهجمات والاستفادة من عفو منحه الرئيس المريض لقادتها المحكومين بقضايا تتعلق بهجمات على المنشآت والشركات النفطية في أكتوبر الماضي، ما سمح للدولة التي تعد ثامن منتج للنفط في العالم بزيادة إنتاجها اليومي إلى ما فوق مليوني برميل (مقابل ٢،٦ مليون برميل في اليوم مطلع ٢٠٠٦م) بعد انهياره إلى ما دون مليون برميل في اليوم في صيف ٢٠٠٩م، بسبب

عنف الهجمات التي شنتها حركة تحرير دلتا النيجر على المنشآت النفطية[1].

اللحظة الراهنة تشي باحتمال تغيير نظام الحكم تحت ذريعة الطوارئ، أو على الأقل تهيئة المناخ لذلك؛ لاعتبار أن الظرف الدولي في مصلحة مسيحيي نيجيريا، وربما تؤدي "فوضى خلاقة" (على حد تعبير وزير الخارجية الأمريكية السابقة كونداليزا رايس) لإحداث خرق في اتفاق التناوب العرفي على السلطة بين الأكثرية المسلمة والأقلية غير المسلمة في البلاد. أو ربما لا تعبر الحوادث الأخيرة إلا عن تطور طبيعي تستدعيه بطء الإجراءات الاحترازية لمنع وقوع حوادث العنف أو الإخفاق في التحقيق فيها، وتحقيق القصاص للمتضررين.

ومهما يكن من أمر؛ فإن أي تأويل يرجح للأحداث الأخيرة في نيجيريا إنما يأتي تعبيراً عن أزمة أوجدها الفراغ الذي تركه المسلمون سواء من النيجيريين، أم من المحيط الإقليمي، أم من الخارج عموماً.

■ الفراغ الاستراتيجي:

برغم التحريش بين مسلمي نيجيريا ومسيحييها؛ فإنه مما ينبغي التذكير به، أن كليهما مستغل بشكل أو بآخر من الخارج الأجنبي، وأن بقاء حوادث العنف كفيل بإفلات القوى الدولية التي جعلت ـ بنهبها للنفط النيجيري ـ، هذا البلد الذي يعد ثامن أكبر مصدري النفط في العالم، ويمتلك سابع أكبر احتياط من الغاز في العالم، وتخطط لتعزيز إمدادات الغاز بالسوق المحلية بمقدار خمسة مليارات قدم مكعبة يومياً بحلول عام ٢٠١٣، جعلته تلك القوى الدولية بلداً فقيراً برغم ثرواته التي لا تقتصر على النفط والغاز؛ حيث يعد متوسط دخل الفرد في البلاد أقل من دولار يومياً.

وإذا كان المسيحيون يحظون بامتيازات محلية، إلا أننا لابد أن نعترف أن المسلمين وغير المسلمين لا ينعمون بثروات البلاد التي نهبت بواسطة عقود نفطية جائرة، علاوة على ما يتم سرقته فعلاً من النفط النيجيري.

وهنا، لابد أن يصبح تحقيق العدالة في توزيع الثروات بالبلاد والارتقاء الاقتصادي، ومباشرة صناعة اقتصاد "وطني" مستقل، من بين أعلى سلم أوليات الأحزاب والهيئات السياسية التي تعبر عن المسلمين، والاضطلاع بمسؤولية رائدة في هذا الاتجاه بغية الوصول إلى قواسم مشتركة مع الأطراف الأخرى في البلاد.

أما ما يتعلق بالمسلمين أنفسهم فإن عدة تحديات تبدو أمامهم بحاجة إلى تعامل واعٍ، وقدر من المسؤولية في مواجهتها، ولاسيما من قبل المؤسسات الإسلامية، والهيئات الاجتماعية، ونجمل بعضها فيما يلي:

أولاً: الاختلال الاجتماعي بينهم، وبين الطائفة "المسيحية" في البلاد، التي تهيمن على كثير من مراكز التأثير فيها، وهذا عائد بالأساس إلى الدعم الواضح التي تقدمه الدول الأوربية، والكنائس المختلفة لأتباعها، والفارق التعليمي الناشئ عن التهميش والإضعاف الممنهج، وهذا بحاجة إلى رسم خارطة جديدة للتنمية الإسلامية، العلمية والمعرفية، ولعل من الطبيعي أن يتقدم أطباء مسيحيون مثلاً لشغل فراغ لا يملؤه المسلمون في مستشفياتهم على سبيل المثال.

ثانياً: عطفاً على ما تقدم؛ فإن مهمة

١) دلتا النيجر منطقة نفطية إستراتيجية تمنح نيجيريا ٧٥٪ من عوائد تصديرها ومعظمها النفط. بينما لا تشكل سوى ٧,٥٪ من مساحة البلاد. ويطالب سكانها بتوزيع عادل للثروة في البلاد. وتقطنها أكثرية مسلمة وأقلية «مسيحية» كبيرة.

التنصير تبدو مأخوذة إلى هذه الدعائم المحلية والدولية، وهي قد نجحت جزئياً في التنصير في الجنوب النيجيري ذي الغالبية "المسيحية"، وأخلت بالتركيبة السكانية للبلاد التي كان فيها المسلمون يتمتعون بتفوق كاسح في تعدادهم قبل قرنين مضيا، ولكنه مما ينبغي الاعتراف به، أن الدعاة المسلمين يقومون بدور جيد على صعيد مناهضة التنصير، لكن يظل هناك تآكل واضح في ديموجرافيا الجنوب.

ثالثاً: تبدو الممارسة السياسية للمسلمين في نيجيريا على الصعيد الشعبي دون المستوى المأمول، وتحتاج إلى الإفادة من المساحة المتاحة لأنشطتهم السلمية، ويلاحظ أن الحزبين المتنافسين الكبيرين في البلاد حزب الشعب الديمقراطي الحاكم، وحزب كل النيجيريين الوطني، وهو أكبر الأحزاب المعارضة ويتزعمه المسلم محمد بخاري، لا يعبران عن المسلمين، ويبقى الأول هو الأقرب إلى جنرالات الجيش، الذين ساهم بعضهم في الإشراف على انتخابات برلمانية ورئاسية شابها تزوير على نطاق واسع.

والآن، حيث الاستحقاق الانتخابي قادم في العام ٢٠١١م تبدو الحالة السياسية شديدة الضبابية، مع الإخلال الحاصل في حظوظ مسلمي الشمال النيجيري الذين مثلهم حاكم بدأ حملة الانتخابات بإغماء، ويعاني عدة أمراض باتت معلنة الآن، علاوة على تنفيذ أوباسانجو سياسة انحازت ضد مسلمي نيجيريا، وعملت على تهميشهم برغم أكثريتهم.

إضافة إلى عدم تمكن الغالبية المسلمة من وضع سياسة دقيقة تفضي إلى اختيار شخصيات إصلاحية مستقلة لا تعتمد على الجهوية التي يدغدغ بها المتنفذون في أبوجا أحلام البسطاء عن تبادلية الحكم بين "الشمال" و"الجنوب" دون النظر عما إذا كان الشمالي يمثلهم في الحقيقة أم لا.

وفيما يخفق المسلمون في الالتفاف حول زعامات ذات مصداقية عالية، وحضور إسلامي قوي، تتبوأ مسؤوليتها التاريخية؛ فإن التزوير والتلاعب بحصص الدوائر والانتخابات وتعطيل البطاقات الانتخابية لن يكون وحده هو سلاح أعداء المسلمين في إبعادهم عن مراكز السيطرة في السلطة النيجيرية، وإنما سيعمل التشتت الواضح للصوت الإسلامي، وإحجام المصلحين عن الاضطلاع بمسؤوليتهم السياسية على ترجيح الكفة الغربية في فرض خياراتها[1].

رابعاً: نيجيريا كغيرها من الدول النفطية في إفريقيا – أنجولا مثلاً – تعاني من سطوة غربية تفرضها غابة الشركات النفطية متعددة الجنسيات التي تتوافر على حماية خاصة، ولاسيما في مناطق استخراج النفط، والمناطق المتاخمة لها، وتتدخل بشكل واضح في اللعبة السياسية داخل البلاد، وتثير قلاقل حالما شعرت بحاجتها إلى إحداث فوضى، لكن نيجيريا، باتت تجد الآن متسعاً في التخلص من بعض ألوان السيطرة الغربية بعد دخول الصين كلاعب رئيسي في إفريقيا، ولاسيما في الاستثمار النفطي والتنقيب، ومحطات توليد الكهرباء، وتعبيد الطرق، وغيرها، وقد يمنح ذلك نيجيريا هامشاً من الاستقلال يستطيع مسلموها أن يستفيدوا منه، إلا أن هذا التنافس المتنامي بين الولايات المتحدة والصين على أكثر من منطقة استراتيجية ولاسيما الغرب الإفريقي، ومناطق دلتا النيجر وغانا وغيرها قد يعجل بتفجير مشكلات

١) أعربت واشنطن عن رضاها عن نتائج انتخابات ٢٠٠٧م برغم ما اعتراها من تزوير.

تهدف إلى عرقلة الحضور الصيني إليها، وهو ما يتبدى في بعض الأحداث التي لا تبدو أحياناً منطقية، وبخاصة ما يتعلق بما يُسمى بالإرهاب في نيجيريا، والذي يمهد للولايات المتحدة المناخ الملائم لإبعاد المنافسين عن مناطق وجود قواتها بدعوى ملاحقة تنظيم القاعدة الذي تردد الدوائر الأمريكية كثيراً أنباء عن وجوده في المناطق النفطية أو المضايق البحرية الاستراتيجية لأهداف أخرى لا تتعلق بـ"الإرهاب".

ومن هنا، ينبغي الانتباه إلى مشكلات كهذه وإيضاحها في المحافل الإعلامية العالمية.

خامساً: يعاني المسلمون في نيجيريا من ضعف المؤسسات الإعلامية التي تحمل صوتهم للخارج بما يتلاءم مع حجمهم وتأثيرهم اللافت في الدعوة الإسلامية في الغرب الإفريقي، لاسيما قبائل الفولاني التي شهدت أكبر تجليات مدها الإسلامي إبان الخلافة الإسلامية التي قادها الإمام عثمان بن فودي وأولاده وأحفاده في القرن التاسع العشر الميلادي.

ومما يؤسف حقيقة، أن كثيراً من المسلمين لا يكادون يعرفون شيئاً عن هذا المخزون الإسلامي السكاني الاستراتيجي في إفريقيا، وهو الأمر الذي لا يعفى النيجيريون المسلمون منه وكذلك إخوانهم في العالم.

سادساً: التحدي الثقافي لا يقل في فداحته عن التحدي الإعلامي؛ فكما تقدم، فإن التواصل بين المسلمين النيجيريين وإخوانهم في العقيدة في العالم، وخاصة في العالم العربي، لم يزل دون المأمول، والتلاقح الفكري والمعرفي والعلمي تحت سقف الإنجاز بمراحل عديدة، ونتيجة لذلك؛ فإن آخرين بالتأكيد سيتطلعون إلى ملء هذا الفراغ الدعوي، سواء بالتنصير، أو حتى بالتمكين للفرق المشككة في ثوابت الدين الإسلامي، وهو ما يحدث بخطى حثيثة وواضحة الآن.

ناهيكم عن أن الهوة في البناء الثقافي الإسلامي في نيجيريا لم تزل متسعة، وتظل بحاجة إلى مد يد العون لها من قبل المؤسسات الإسلامية العالمية، وفي الجنوب النيجيري تبدو المشكلة أكثر تفاقماً وظهوراً مع ثقل الجهود المضادة ونجاعتها في كثير من الأحيان.

سابعاً: الجهوية والعرقية، لا شك أن الوحدة الإسلامية لمسلمي نيجيريا في الجنوب والشمال هي ضمانة قوتهم ونيل حقوقهم، وفي بلد يتكون من نحو ٣٠٠ مجموعة عرقية، وتتحدث بلغات ولهجات عديدة، رسم حدوده "الاستعمار" بصورة مصطنعة لا تأخذ في اعتبارها التكوين القبلي والعرقي الممتد في كافة الجهات في محيط نيجيريا ما مثل تحدياً هائلاً فيما بعد؛ فإن العمل على ترسيخ الهوية الجامعة هو أحد آكد المهمات الدعوية المنتظرة في نيجيريا، والتي لا تقوم نجاح مهمتها دون إيلاء هذه القضية ما تستحقه من اهتمام وصدارة.

وبالعودة إلى التاريخ النيجيري (أي تاريخ المنطقة ولاسيما امبراطورية الفولاني مثلاً وما حولها)، يبدو أن أحد أهم عوامل خضوع تلك البقعة الإسلامية لسيطرة البريطانيين في القرن التاسع عشر الميلادي، هو فرقة الإمارات وعدم مركزية تحركها، وهو ما أفضى إلى استئثار الغزاة بكل إمارة على حدة دون عناء كبير، وهو ما يسترعي الانتباه، ويدعو إلى تأمل تلك الفترة؛ نظراً لأن ثمة من يريد أن تبقى تلك الحالة النموذجية التي تمكن فيها بضعة آلاف من البريطانيين (وفي بعض المعارك نحو ٥٠٠ جندي بريطاني) من سحق القوات المسلمة في شهور معدودة، وهي حالة تكاد تشبه حالة

الولايات النيجيرية، بل تماثلها بعض الجهود الإسلامية غير المنسقة في الداخل النيجيري.

وبالنظر إلى الحاضر، فإنه إن كان ينتظر أن تتواصل الهيئات الإسلامية الدعوية العالمية والإفريقية مع نظيرتها الإسلامية على نحو أفضل من الحاصل حالياً؛ فإنه في المقابل لابد أن يدرك النيجيريون المسلمون أنهم سيتحملون القسط الأكبر من أعباء قضيتهم في خضم ظروف لا تبدو في صالح الأمة الإسلامية عموماً، علاوة على أن المؤسسات الإسلامية العربية قد لا تكون أفضل حالاً في مناخ عملها من نظيراتها النيجيرية بما يعني أن الجهود المحلية يتوجب أن تكون الرائدة في صعيد النهضة الإسلامية في نيجيريا.

وأما المستقبل؛ فإن تلك المنطقة التي كانت ناهضة ـ قياساً بغيرها من المناطق الإفريقية المناظرة ـ قبل الاحتلال البرتغالي والبريطاني، وكانت صناعة الجلود وبعض الصناعات اليدوية الأخرى فيها مؤشراً لريادتها في النصف الأول من الألفية الماضية، ثم نهضتها الإسلامية المعرفية، والمصنفات التي تركها الأجداد من العلماء والمصلحين فيها، تبرهن على أن الاحتلال بتنوعه كان سبب تراجعها وتخلفها بشكل مؤقت.

وهذا ما ينبغي أن يرسخه المصلحون في نيجيريا لدى عشرات ملايين المسلمين الذين كادوا أن يفقدوا الأمل. وثمة آمال لابد أن تدفع الهيئات الإسلامية في نيجيريا إلى تحريك الراكد في هذا الاتجاه، وإلا؛ فسيظل الفراغ قائماً، وتبقى نظرية ملء الفراغ الاستراتيجية في حالتها النموذجية حاضرة في نيجيريا..

إفريقيا السمراء والرجل الأبيض..

بين ماض أليم ومستقبل مجهول

جميل زيد

تعد إفريقيا أقدم المناطق المأهولة بالسكان على وجه الأرض، لكن لم يكن يسكنها قديماً (مثلها مثل القارات الأخرى) أمة ذات استقرار، وإنما كان يسكنها جماعات من الصيادين والرحّل في الصحراء، والتي تحولت مرة أخرى لتكون وادياً أخضر خصباً، وعاد السكان الأفارقة من المرتفعات الداخلية والساحلية إلى جنوب الصحراء الكبرى في إفريقيا.

تقع إفريقيا في وسط قارات العالم من الناحية الجغرافية، وتبلغ مساحتها أحد عشر مليون ميل مربع، وهي بهذا ثاني أكبر مساحة بعد قارة آسيا، وتأتي كذلك في المرتبة الثانية بعدها من ناحية التعداد السكاني، حيث يقطنها أكثر من مليار نسمة، ينتشرون في أكثر من خمسين دولة، ويتحدثون أكثر من ألف لغة محلية. أما من الناحية الاقتصادية فإفريقيا غنية جداً بثرواتها الطبيعية في أكثر أرجائها، حيث تنتشر فيها البحيرات والأنهار وتكثر فيها المياه الجوفية، وتمتد فيها الأرض الخصبة، وتتنوع فيها المحصولات الزراعية والحيوانية والمعدنية والغابية والبحرية، كما تمتاز القارة بموقع استراتيجي يتحكم في التجارة العالمية[1].

■ إفريقيا قبل الإسلام:

سادت عبادةُ الأصنام والظواهر الطبيعية قارةَ إفريقيا قبل الإسلام، كعبادة الشمس والرعد والبرق والكواكب وتقديس أرواح مجهولة، مع الإيمان بوجود كائن أعلى مجهول مسيطر على الكون، يُتقرب إليه بتقديس تلك الظواهر والأرواح، ولا يعني دخول كثير من الإفريقيين في الإسلام انقراض هذه الوثنية، فما زال كثير منهم يدينون بها[2].

■ القارة الإفريقية بعد الإسلام وقبل الاستعمار:

انتشر الإسلام في الشمال الإفريقي بما في ذلك السودان الحالي بعد الفتوحات الإسلامية على يد عبد الله بن أبي السرح وعقبة بن نافع وعبد الله بن نصير، وكذلك انتشر في غرب

١) د. أحلام عبد الرحيم أحمد مصطفى: أوضاع المسلمين في إفريقيا المعاصرة (دراسة إحصائية تحليلية) - بتصرف -. جامعة أم درمان الإسلامية كلية الدعوة الإسلامية.

٢) المصدر السابق - بتصرف -.

إفريقيا في السنغال ونيجيريا ومعظم دول غرب إفريقيا من موريتانيا حتى ناميبيا، وفي شرق إفريقيا في كل من الصومال وتنزانيا ونصف سكان أثيوبيا وبدرجة أقل في كينيا وموزنبيق.

أما في جنوب إفريقيا فلم ينتشر الإسلام مثل بقية النواحي، ويرجع ذلك إلى قسوة الطبيعة وتفشي الأمراض خصوصاً في منطقة البحيرات العظمى، حيث بقي السكان على دياناتهم الوثنية، ثم بدأ الإسلام ينتشر في ربوع إفريقيا عن طريق الممالك الإسلامية التي قامت في غانا ومالي ونيجيريا، إلى أن جاء الاستعمار وأضعف من شأنها.

وأفسد هذا النفوذ الاستعماري الزاحف المجتمع الإفريقي، وقضى على عوامل الازدهار فيه بقضائه على الممالك الإسلامية ووضع البلاد الإفريقية تحت الوصاية، وحرص الاستعمار على طمس معالم الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي في إفريقيا حتى يقطع صلة الأجيال بالإسلام، وتصدق دعواه بأن هذه البلاد كانت مجهولة وغير متحضرة، كما استهدف القضاء على مقومات المسلمين بوسائل مختلفة؛ أهمها القضاء على اللغة العربية والثقافة الإسلامية والتراث الإسلامي، والتمكين للتوجّه الثقافي الغربي، والتنصير.

ويمكن القول بأن الغزو الاستعماري في إفريقيا حمل لواء ثلاث عمليات خطيرة:

١ - عملية تجارة الرقيق.

٢ - عملية التنصير.

٣ - عملية الاستيلاء على الأرض بإدخال جماعات بيضاء بأعداد كبيرة[١].

■ العقلية الأوروبية ودورها في نشأة الفكر الاستعماري:

لا توجد حضارة سعت لإفناء الشعوب الأخرى واستئصالها مثلما فعلت الحضارة الغربية، فقد جعلت فكرة الانتقام الحضارة الغربية في مواجهة مستمرة لباقي شعوب الأرض، وظهرت هذه الفكرة عند الغرب عبر ثلاث مراحل مختلفة، فقد أعطت الحضارة الإغريقية، وهي أقدم حضارة أوروبية، بعداً فكرياً تأصيلياً للصراع، ثم جاءت الدولة الرومانية لتضفي المشروعية السياسية على حرب الآخرين والقضاء عليهم، ثم منحت «المسيحية» المحرَّفة - التي اعتنقها الرومان وتوارثها الغربيون بعد ذلك - هذه الروح العدائية مرجعية أخلاقية، وأعطتها صكاً شرعياً بالعدوان على الآخرين، وهو ما عُرف بنظرية (الحرب العادلة) التي أثّرت في العقلية الغربية، ونمّت فيها الفكر العدواني تجاه الآخرين.

إن استعمال الغرب للعنف لفرض ثقافتهم على غيرهم لم ينته بنهاية القرون الوسطى، وإنما هو أمر مستمر إلى يومنا هذا، يقول «هنتنجتون» في كتابه (صراع الحضارات) وفي صراحة عجيبة: «لم يتغلب الغرب على العالم بتفوق في أفكاره أو قيمه أو دينه - الذي لم تعتنقه إلا قلة من أبناء الحضارات الأخرى - وإنما غلب بتفوقه في العنف المنظم، إن الغربيين كثيراً ما ينسون هذه الحقيقة، لكن غير الغربيين لا ينسونها أبداً»[٢].

■ نهب إفريقيا وسلب خيراتها:

قبل خمسمائة عام تقريباً بدأت عمليات السلب والنهب لخيرات إفريقيا، وذلك على يد مجموعة من المغامرين وممن حكم عليهم

١) أنور الجندي: العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي (الموسوعة الإسلامية ٤). دار الكتاب اللبناني والمصري. ط١ - ١٩٧٩م. ص ١٥٢ - ١٥٣.

٢) عامر عبد المنعم: الغرب أصل الصراع. المركز العربي للدراسات الإنسانية.

بالإعدام بقيادة المغامر أمريكو فيسبوتشي في رحلتهم لاكتشاف العالم الجديد[1]، وبعد الحرب العالمية الأولى ظهر شكل جديد من أشكال الاستعمار أقرته «عصبة الأمم المتحدة» التي تكونت حينذاك بوصفها منظمة لنشر السلام ومنع الحروب، فقد كرست عصبة الأمم نوعاً جديداً من الاستعمار وهو «الانتداب»، حيث وردت إجازته في المادة ٢٢ لميثاق عصبة الأمم بوصفه طريقاً للنهوض بالشعوب القاصرة والأخذ بيدها لتكون قادرة على تسيير أمورها، لكنه في الحقيقة كان أسلوباً للاستعمار ووسيلة لامتصاص خيرات الشعوب[2].

وهكذا واجهت إفريقيا على مدى قرون غزوات متوالية، كان آخرها الغزو الأوروبي الذي وقع في القرن التاسع عشر الميلادي، والذي أدى إلى تخريب هذه القارة وتحطيم شعوبها حتى الآن، حيث تفننت أوروبا في تحطيم القارة الإفريقية ونهب خيراتها، ولم يتركوا وسيلة إلا لجؤوا إليها، وذلك على يد بضع دول من أهمها: بريطانيا، فرنسا، هولندا، بلجيكا، إسبانيا، البرتغال، إيطاليا، وألمانيا، كما شاركت روسيا في ذلك الاستعمار في القرن التاسع عشر، والولايات المتحدة التي تعد أشدهم شراسة وخبثاً.

■ الرجل الأبيض وتجارة الرقيق:

كما سعى الأوروبيون إلى ترويض الأفارقة لسحق آدميتهم وتحويلهم إلى آلات بشرية ليس لها مشاعر ولا حقوق ولا لغة ولا دين ولا حياة روحية ولا أمل في شيء من ذلك كله، وكانت الأساليب المتبعة في التعامل مع الرقيق هي: الشنق على الأشجار، وقطع الأيدي، والمذابح الجماعية التي هلك فيها ما يزيد على عشرة ملايين إفريقي، ولا يستطيع أحد أن يحصي ضحايا تجارة الرقيق الأوروبية على وجه التحديد.

وقد حققت هذه التجارة لأوروبا أرباحاً خيالية، وأصبحت هذه السلعة هي الأساس الذي بنت عليه تلك الدول الاستعمارية اقتصادها ورخاءها؛ ولذلك قيل إن سبب اشتهار ميناء لشبونة في البرتغال وميناء ليفربول في إنجلترا برواج تجارة الرقيق أن «ليشبونة وليفربول قد بنيتا على عظام الرقيق الأسود ودمائه».

وشجّع الأوروبيون الزعماء والحكام في غرب إفريقيا على حرب جيرانهم، وقدّموا لهم البنادق والذخيرة لمتابعة الحروب وأسر أعداد ضخمة من أعدائهم مقابل الرقيق الذين يجلبونه لهم إلى سفنهم الراسية على الشواطئ في غرب إفريقيا، فعاش غرب إفريقيا قروناً عدة في حروب مدمرة من أجل تدبير هذا المورد البشري المتدفق من الرقيق للتجار الأوروبيين، وقد عاونت الكنيسة المستعمرين في تجارة الرقيق، فكان مندوب الكنيسة يجلس على مقعد رخامي على الشاطئ فيعمّد العبيد، ثم يقبض نصيبه من رسوم التصدير التي أصبحت مورداً مهماً من موارد الكنيسة[3].

ولم يدخر الأوروبي جهداً ولا وسيلة في قنص الأفارقة ونقلهم عبر البحار إلى أوروبا والأمريكتين، إلى درجة أن سكان إفريقيا ثبت تعدادهم عند مئة مليون نسمة ولم يزد مطلقاً في الفترة من ١٦٥٠م - ١٧٥٠م، وحياة الرقّ التي عاشت فيها إفريقيا في الماضي لا تزال تعاني آثارها في الحاضر على الرغم من إلغاء الحكومات الاستعمارية له اضطراراً منذ عام ١٨٣٣م.

١) عدنان الصباح: البشرية مقابل حفنة لصوص.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=86771

٢) مصطفى الشهابي: محاضرات في الاستعمار (نقلاً من شبكة المعلومات).

٣) د. محمد آدم كلبو: تجارة الرقيق وأثرها على العقل الإفريقي.
http://www.mubarak-inst.org/stud_reas/research_view.php?id=56

■ آثار الاسترقاق النفسية والاجتماعية على الشخصية الإفريقية:

يقول الدكتور محمد آدم كلبو: إن لتجارة الرقيق آثاراً نفسية خطيرة؛ لا على من استرقوا وعاشوا ظروف الاسترقاق أو ذويهم أو الذين عاصروهم من أهليهم وأبناء أوطانهم فحسب؛ وإنما تمتد لتشمل الأفارقة جميعاً على مر العصور والأزمان، فتجارة الرقيق استهدفت في إفريقيا العنصر الأسود، وأشعرت الإفريقي أن ذنبه الوحيد هو أنه من جنس أسود البشرة وهو دون الجنس الأبيض، وساوت بينه وبين البهائم، بل عومل معاملة لا تليق حتى بالحيوانات والأنعام... فاهتزت ثقته في نفسه وفي قدراته العقلية، وولّد فيه ذلك شعوراً بالدونية وهو ينظر إلى العالم من حوله.

اهتم تجار الرقيق منذ بدء الاسترقاق بترك آثار نفسية في سلوك الرقيق وسلوك أبنائهم وأحفادهم والأجيال القادمة[1]، وما يزال كثير من الأفارقة يشكون من ضعف روح المقاومة، ويميلون إلى التبعية الثقافية والاقتصادية لأحفاد سادة العبيد في الغرب، ويتنكرون للغاتهم المحلية ولثقافاتهم فضلاً عن ضعف الثقة بالنفس[2].

خسرت إفريقيا من جراء تجارة الرقيق الملايين من أبنائها، وأدت هذه التجارة إلى نقص الأيدي العاملة وضعف الإنتاج وانهيار العديد من الإمارات الإفريقية، وانتهك الاسترقاق الحرمات ودمر المقدسات وأفسد أخلاق أهل إفريقيا وشوّه الحياة الاجتماعية، وأغرق الكثير من الأفارقة في غيابات الظلمات والجهل، ولم تفق منها إفريقيا تماماً حتى يومنا هذا، وعندما تم تحرير العبيد تُركوا بعد قرون من الاسترقاق من دون تعليم في جو من القذارة والجوع والتبعية والخوف، وهذه المؤثرات هي التي ولّدت صفتي العجز والإهمال اللتين امتاز بهما كثير من الأفارقة، ولما اعتاد الأرقاء على عدم الملكية أضحوا بعد التحرر لا يعبؤون بالملكية ويبددون ما بأيديهم[3].

حان الوقت لكي يستفيق الأفارقة من سباتهم، ويواجهوا بكل جرأة وجسارة تاريخ الاسترقاق، ويقفوا منه موقفاً إيجابياً، فلا بد من معالجة تبعات الرق وتداعياته في أنفسنا، وترك إلقاء اللوم دائماً على آثار تجارة الرقيق التاريخية، وتحمل تبعات الحرية وضريبتها، بمعنى آخر لا بد لنا من التسلح بالوعي والعلم والمعرفة والتمسك بهويتنا وأصالتنا، والعمل لتحسين أوضاعنا وتنمية مجتمعاتنا في كل المجالات[4].

■ البذور السامة التي تركها الاستعمار في الأرض الإفريقية:

جاء في مقدمة كتاب (المنبوذون في الأرض) لناشر الضلال وداعيته اليهودي الفرنسي «جان بول سارتر» حامل لواء الوجودية الملحدة؛ قوله: «كنَّا نُحْضِر رؤساء القبائل، وأولاد الأشراف والأثرياء والسّادة من إفريقيا وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيّام في أمستردام، ولندن، والنرويج، وبلجيكا، وباريس، فتتغيّر ملابسهم، ويَلْتَقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعيّة الجديدة، ويرتدون السّترات والسراويل، ويتعلّمون منا طريقةً جديدة في الرَّواح والْغُدُوّ، والاستقبال والاستدبار، ويتعلّمون لغاتنا، وأساليبَ رَقْصِنَا، ورُكوب عرباتنا، وكُنَّا نُدَبِّر لبعضهم أحياناً زواجاً من أوروبيّة، ثُمَّ نلقِّنُهُمْ أسلوبَ الحياة على أثاث جديد، وغذاء أوروبي، وكُنَّا نضعُ

١) المصدر السابق - بتصرف -.
٢) المصدر السابق - بتصرف -.
٣) المصدر السابق - بتصرف -.
٤) المصدر السابق - بتصرف -.

في أعماق قلوبهم الرغبة في أوروبّة بلادِنا، ثم نرسِلُهم إلى بلادهم، وأيّ بلاد! لقد كانت أبوابُ بلادهم مغلقة دائماً في وجوهنا، لم نكن نجد منفذاً إليها، كُنَّا بالنسبة إليها رِجْساً ونجساً وخَنَىً، كُنَّا أعداءً يخافون منا، وكأنّهم همجٌ لم يعرفوا بشراً، لكنَّا بمجرد أن أرسلنا المفكرين الذين صنعناهم إلى بلادهم، كُنّا بمجرّدِ أن نصيح من أمستردام، أو برلين، أو بلجيكا، أو باريس، قائلين: «الإخاء البشري» نرى أنّ أصواتنا ترتَدُّ من أقاصي إفريقيا، أو من كل فجّ من الشرق الأوسط أو الأدنى أو الأقصى، أو شمال إفريقيا، ثمّ إنّنا كنّا واثقين من أنّ هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمةً واحدةً يقولونها غير ما وضعنا في أفواههم، ليس هذا فحسب، بل إنَّهم سُلِبُوا حق الكلام عن مواطنيهم[1].

ومن المؤسف أن بعض أبناء إفريقيا قد اعتنقوا الفكر الاستعماري القائل بتخلف إفريقيا وبدونية أفرادها (أي الرأي الذي يعزو تخلف إفريقيا إلى طبيعة أفرادها)، ففي أوائل هذا القرن لجأت الإرساليات التنصيرية في غرب إفريقيا إلى توقيع عقود مع عدد من الأسر السنغالية، تقضي أن تقدم لها الإرساليات مساعدات عينية ضئيلة من الأرز والمواد التموينية الأخرى في كل شهر، ومقابل ذلك يكون لهذه البعثات التنصيرية حق اختيار طفل من أطفال الأسرة لتربّيه على حسابها، ويتضمن العقد فيما يتضمن مادة تنص على أن الأسرة التي تريد استرجاع ابنها تلتزم برد ثمن المساعدات ونفقات تعليمه وتربيته كشرط جزائي.

صار أحد هؤلاء الأطفال الإفريقيين فيما بعد رجلاً فرنسياً اسمه سنجور، ومعناها (سان جورج، أي القديس جورج)، وبينما هو نصراني فإن أبويه سنغاليان مسلمان.

كان ليوبولد سنجور مثلاً للإفريقي المتفرنس المنصهر، وهو وإن ولد في «جوال» بالسنغال إلا أنه فرنسي بالتربية، وقد حصل وهو في الثامنة والعشرين على شهادة علمية في قواعد اللغة الفرنسية من السربون، وأصبحت فرنسا وطنه المختار، وعمل جندياً في جيشها، وأصبح مرشح السنغال في الجمعية التأسيسية الفرنسية، وعندما أعلنت الحركات الإفريقية المعادية للاستعمار تضامنها انُتخب سنجور أول رئيس للسنغال بمباركة فرنسية.

■ الرجل الأبيض والمسلم الإفريقي:

بدأ صدام الغرب للمسلمين منذ ظهور الدولة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، حيث لم تتحل الإمبراطورية الرومانية بالتسامح في موقفها من الإسلام، وعاملته بوصفه عدواً منذ البدء، فهي التي بادرت المسلمين بالعداء، وواجهت الدعوة الجديدة بالرفض والمعاداة، وارتكبت الإمبراطورية الغربية في ذاك العصر خطأ تنكره الأعراف الدولية قديماً وحديثاً، عندما قتلوا مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك سبب معركة مؤتة الشهيرة في جمادى الأولى من العام الثامن الهجري.

والصراع بين الغرب والإسلام لا يمكن أن يصل إلى حل؛ لأنه صراع بين مواقف نهائية، فالغرب يرى في الإسلام خطراً عليه، ولا يعترف بأنه دين سماوي، دعنا مما يقال في المناسبات للمجاملة، إنه يرانا متخلفين ومكامن للإرهاب قد تنفجر فيه في أي وقت.

وعلى الرغم من جود رؤية أخرى لبعض عقلاء الغرب الأكثر حكمة، لكن النتيجة لا

١) عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها.

تختلف، فهم أولاً يرون أن الإسلام هو النظام الوحيد القادر على تقديم منظومة فكرية منافسة للغرب، لكن ذلك يجعلهم يصلون إلى النتيجة نفسها، وهي أن الإسلام دين خطر تجب مواجهته وإضعافه.

لا يميز الغرب الحاقد بين الإسلام الدين والإسلام التاريخ والحضارة، وخوفه من الإسلام أصابه بالتخبط والجنون، فصار يضرب في كل اتجاه دون وازع أو ضمير، فالمسيحية متناقضة مشوشة، في متونها عواطف متضاربة وقصص متناقضة، وهذا التناقض تسرب إلى أعماق معتنقيها، ويصعب على المرء أن يفصل بين هؤلاء الجلادين الطغاة وبين الثقافة المسيحية التي تفشت فيهم وكوّنتهم حتى بلغوا هذا الحد من الوحشية والبهيمية[1].

الأعمال الكيدية التي قام بها الاستعمار في بلاد المسلمين الإفريقيين:

أولاً: تذليل مهمات المنصّرين ومهمات المستشرقين الذين يقومون بتنصير أبناء المسلمين، أو إخراجهم من الإسلام إلى الإلحاد والكفر بكل القيم الدينية.

ثانياً: فصل الدين عن الدولة وسائر الأمور السياسية، وإلغاء الحكم بالإسلام نهائياً.

ثالثاً: افتتاح المدارس والمعاهد والجامعات العلمانية (بصورتيها) المعادية للدين صراحة.

رابعاً: التخطيط للتعليم العلماني في المؤسسات التعليمية الوطنية، وتوجيهها لما يحقق إبعاد كل تعليم إسلامي عنها.

خامساً: خطف أبناء المسلمين وإرسالهم إلى الكنائس من أجل تنصيرهم، ثم إعادتهم إلى بلاد المسلمين ليحكموها وينشروا الفكر الغربي فيها، ومثال ذلك (سنجور).

■ سلوك الرجل الأبيض مع المسلم الإفريقي:

عندما دخل الإسبان الجزائر من وهران سنة ١٥٠٤م بقيادة «غونزالو سيسنيروز» كاردينال الملوك الكاثوليك؛ استنجد سكان بجاية وجيجل بالإخوة عروج، حيث قام باربروس عروج وخير الدين بوضع بلاد الجزائر تحت سيادة الدولة العثمانية، وجعلا من سواحل البلاد قاعدة لعملياتهم البحرية ضد الأساطيل النصرانية، بلغت هذه النشاطات ذروتها سنة ١٦٠٠م، وأُطلق على مدينة الجزائر آنذاك اسم «دار الجهاد».

وتعرضت مدينة الجزائر في ١٥٣٥م لهجوم الملك شارل الخامس بعد سيطرته التي لم تدم طويلاً على مدينة تونس.

وفي سنة ١٨٢٧م قام الداي حسين (حاكم الجزائر) بطرد القنصل الفرنسي من مجلسه مشيراً إليه بالمروحة، فعدتها فرنسا إهانة لها.

وفي ١٨٣٠م نزلت القوات الفرنسية في شبه جزيرة سيدي فرج غرب العاصمة بجيش يضم ٤٠ ألف جندي من المشاة والخيالة، مزودين بأحدث أدوات الحرب وأسطول يتكون من ٧٠٠ سفينة، اختار الفرنسيون هذا الموقع لحرصهم على مباغتة مدينة الجزائر بالهجوم عليها براً نظراً لصعوبة احتلالها من البحر، فقد صمدت طيلة قرون أمام الأساطيل الغازية.

استعمل الجيش الفرنسي في حربه المدمرة ضد الثورة الجزائرية وجنودها الأشاوس كل أنواع الأسلحة المحرمة دولياً غير آبه بما سينشأ عنها من آثار سلبية في الشعب الجزائري، ومن تلك الأسلحة: السلاح الكيماوي والغازات السامة القاتلة والمتفجرات الحارقة وقنابل النابالم الفتاكة.

وقد أجرت فرنسا في أثناء احتلالها عدداً من التجارب النووية في الصحراء الجزائرية

(١) http://www.sawaa.org/maktba/07.htm.

بلغت ١٧ تجربة، وكانت الصلة وثيقة بين الكيان الصهيوني وفرنسا في المجالات العسكرية وبخاصة في هذه التجارب النووية؛ وقد حضر موشي ديان وزير الحرب الصهيوني إجراء إحدى هذه التجارب في الصحراء الجزائرية آنذاك.

كانت حرب الفرنسيين ضد الجزائر من أشد الحروب قسوة وفظاعة، فقد بلغ عدد القتلى في مدينة سطيف وحدها في مايو ١٩٤٥م قرابة أربعين ألفاً، يشنع الكونت «هيريسيون» على ما ارتكب فيها من القبائح التي لا مسوغ لها فيقول: «فظائع لا مثيل لها، أوامر الشنق تصدر من نفوس كالصخر يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالحجر... في أناس مساكين جُلُّ ذنبهم أنهم لا يستطيعون إرشادنا إلى ما نطلب إليهم أن يرشدونا إليه»، وتفنن الفرنسيون في طرق إبادة الشعب الجزائري، ومما أبدعوه طريقة أسموها «جهنم»، حيث يتبع الجنود الهاربين من النساء والأطفال والرجال إلى الكهوف، فيشعلون عند باب الكهف ناراً عظيمة فيموت من بداخله حرقاً أو خنقاً[١].

مارس الاستعمار الفرنسي التعذيب العمد ضد الشعب الجزائري بذريعة الظروف الأمنية وباسم حقوق الإنسان والديمقراطية وباسم الحداثة ضد الرجعية لمكافحة الإرهاب، وكان يمارس التعذيب بكل قسوة وبشاعة في أثناء الحرب التحريرية في فيلا «سوزيني» بالجزائر العاصمة، وفي ضيعة (امزيان) بقسنطينة.

قال الجنرال الفرنسي «شان»: «إن رجاله وجدوا التسلية في جزّ رقاب المواطنين من رجال القبائل الثائرة في بلدتي الحواش وبورقيبه»، وكتب المارشال «سانت أرنو» رسالة إلى زوجته، كشف فيها بعض ما صنعه هو وجنوده في الجزائر فيقول: «إن بلاد بني منصر بديعة، وهي من أجمل ما رأيت في إفريقيا، فقُراها متقاربة، وأهلها متحابون، لقد أحرقنا فيها كل شيء، ودمرنا كل شيء... أكتب إليكِ ويحيط بي أفق من النيران والدخان، لقد تركتني عند قبيلة البزار فأحرقتهم جميعاً، ونشرت حولهم الخراب، وأنا الآن عند السنجاد أعيد فيهم الشيء نفسه ولكن على نطاق أوسع».

ويقول «مونتياك» في كتابه «رسائل جندي» وهو يصف إحدى المذابح التي حضرها: «لقد كانت مذبحة شنيعة حقاً، كانت المساكن والخيام في الميادين والشوارع والأفنية التي انتشرت عليها الجثث في كل مكان، وقد أحصينا في جو هادئ بعد الاستيلاء على المدينة عدد القتلى من النساء والأطفال فألفيناهم ألفين وثلاثمائة، وأما عدد الجرحى فلا يكاد يُذكر لسبب؛ هو أننا لم نترك جرحاهم على قيد الحياة»[٢].

■ إفريقيا والحاضر المظلم:

عند قدوم الرجل الأبيض إلى القارة الإفريقية في أوائل القرن الخامس عشر كانت إفريقيا قد قطعت شوطاً لا بأس به على درب التقدم والحضارة، فمستويات فلاحة الأرض متقدمة، بل إن شمال إفريقيا سجّل تقدماً كبيراً في مجال الصناعة، فأخذت أوروبا عنه صناعة الجلد المراكشي وغيرها، وأُعجب البرتغاليون بالمنسوجات المحلية الفاخرة المصنوعة من لحاء الشجر وألياف النخيل في السواحل الشرقية والغربية للقارة، كما أن أهالي الباجندا مهروا في هذه الصناعة، ويُعتقد أن المنسوجات القطنية التي صنعت في ساحل غينيا في هذا القرن أكثر متانة من مثيلتها في

١) عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها.

٢) المصدر السابق - بتصرف -.

مانشستر بإنجلترا، وفي كاتنجا وزامبيا استمر تفضيل النحاس المحلي على المواد النحاسية المستوردة، والأمر نفسه ينطبق على الحديد المنتج في أماكن عديدة من القارة وبخاصة سيراليون، وكان في بنين وتمبكتو طوائف الصناع المنظمين.

فإفريقيا كانت في مرحلة متقدمة من التطور حين حطت قدما الأوروبي الأبيض على شواطئها الجميلة، وحين بدأ اختطاف أهاليها وتفريغها منهم، ويكفي أن نعرف أن بعض العشائر في السودان الغربي، مثل عشيرة كانتي، كانت تمد غيرها بالمصنوعات الحديدية، مع ما في ذلك من مقدرة على الاستخراج والطَّرْق والتشكيل، ومن المعروف أيضاً أن غانا كانت ذات شهرة واسعة في إنتاج الذهب وكذلك غينيا، وهو يعتمد على صناعة التعدين، وقد انبهر البرتغاليون حين وصلوا إلى نهر جامبيا ورأوا الطريقة التي كانت تجري بها تجارة الذهب في أعالي النهر بواسطة تجار ماندنجا؛ حيث كان لدى هؤلاء التجار موازين عالية الدقة مرصّعة بالفضة ومعلقة بخيوط من الحرير المجدول، ويتم وزن ترائب الذهب وسبائكه باستخدام أوزان من النحاس.

وعندما بعث «سيشل رودس» بعملائه لسرقة زيمبابوي ونهبها وقفوا في ذهول ومعهم أوروبيون آخرون أمام الأنقاض المتبقية لحضارة زيمبابوي، وافترضوا بشكل تلقائي أن الذين قاموا بتشييدها كانوا من البيض! ولا يزال هناك اتجاه ينظر حتى يومنا هذا إلى تلك المنجزات بشعور يتسم بالتعجب بدلاً من تقبلها بهدوء بوصفها نمواً منطقياً.

فإفريقيا لم تكن قارة متخلفة كما يزعم الأوروبيون البيض والمنصّرون الحاقدون، ولكنهم افترضوا هذه الفرضية لنشر ثقافتهم وحضارتهم الاستهلاكية؛ حتى يتم نهب خيرات القارة واستنزافها من خلال إيجاد حضارة الغرب وتأكيد قيمها في جانبها السلبي والإيجابي[1].

كل هذه المعطيات وما يخبئه الرجل الأبيض الصليبي لإفريقيا يجعلنا نخشى ما ستؤول إليه الأمور في المستقبل، فهو يقبض على زمام الأمور تقريباً ويوجه السفينة حيث يريد، ولا عاصم لهذه القارة من أنياب هذا السبع المفترس بعد الله عز وجل إلا زيادة الوعي الإفريقي لحقيقة هذا التكالب الغربي، والذي بدأت تظهر بوادره بزيادة حركات التحرر والدعوة إلى الخروج من تحت قبضة الهيمنة الغربية.

١) شبكة المعلومات الدولية.

المشهد الإفريقي

أخبار في أرقام

رسمت تقديرات الخبير الاقتصادي ممدوح الولي صورة للاقتصاد الإفريقي معالمها الأرقام الآتية:

- يُقدّر سكان دول القارة الإفريقية الثلاث والخمسين عام 2008م بنحو (15 %) من سكان العالم)، يبلغ نصيبهم من الناتج المحلي الإجمالي الدولي أقل من 3 % خلال العام نفسه، ومن التجارة السلعية الدولية ٣٪، ومن الاستثمار الأجنبي المباشر الوارد لدول العالم 0.5 %.
- عجز الميزان التجاري 38 دولة = الفائض 14 دولة، وعجز الموازنة الحكومية 29 دولة = الفائض 21 دولة.
- 19 دولة تتجاوز معدلات الفقر فيها أعلى من 50 % (86 % في ليبيريا، و 82 % بتنزانيا، و 81 % ببورندي، و 74 % برواندا، وملاوي)، ومع ذلك تنخفض المعونات الدولية الواردة للقارة من ٤١ مليار دولار عام 2006م إلى 36 مليار دولار عام 2007م.
- ضمن ميزانيته لعام 2010م قدّم البنك الإسلامي للتنمية قرضاً ميسراً لدولة أوغندا، بمبلغ 13.7 مليون دولار، و 9.5 مليون دولار لصالح مشروع كهربائي في السنغال.
- وفق أحد التقديرات فإن 72 % من سكان المدن في إفريقيا يعيشون في بيوت الصفيح، ففي نيروبي (3 ملايين نسمة) تبلغ النسبة 60%.
- يبلغ معدل سوء التغذية في إثيوبيا ونيجيريا ٤٠٪ من الأطفال في كل المناطق الريفية والمدنية، وكذلك فإن النسبة التي يغطيها التلقيح تبلغ فقط 35% في الأحياء الفقيرة في نيجيريا؛ مقارنة مع 86% في المناطق المدنية غير الفقيرة.
- نيروبي، حيث يعيش 60% من السكان في مناطق أحياء فقيرة، يبلغ معدل وفيات الأطفال ضعفين ونصف من معدلها في المناطق الأخرى في المدينة.
- قالت الأمم المتحدة إن نحو 20 طناً من الكوكايين القادم من دول أمريكا الجنوبية مرت من خلال غرب إفريقيا في عام 2008م، وتصل قيمتها إلى مليار دولار.
- أعلنت الشركة المصرية الخاصة «سيتادل» أنها اشترت 49% من حصة شركة «شيلتام» للسكك الحديدية، وهي شركة تشغيل شبكة السكك الحديدية المشتركة بين أوغندا وكينيا، وسوف تستثمر «سيتادل» 150 مليون دولار على مدار السنوات الخمس المقبلة في سكك حديد أوغندا - كينيا.
- تقدر وزارة الخارجية ومعهد الصادرات الإسرائيليين أن هناك ما لا يقل عن مليار دولار من فرص الأعمال في إفريقيا، بالإضافة إلى 3 مليارات دولار فعلية كصادرات بضائع وخدمات تقدمها الشركات الإسرائيلية في القارة.
- 107 مليارات دولار هو حجم التبادل التجاري بين إفريقيا والصين في 2008م.
- تصدّر الدول الإفريقية مليون برميل من النفط يومياً إلى الصين، وهو ما يعادل 25% من إمدادات الطاقة الخارجية للصين.
- زادت اكتشافات بترولية جديدة في كل من غانا وسيراليون وأوغندا من احتمال تحقيق زيادة أخرى على مستوى القارة حتى عام 2015م، قد ترفع حصة إفريقيا في السوق العالمية من النسبة الحالية البالغة 12% إلى 15%.
- تعاني 30 دولة إفريقية انقطاع التيار الكهربي بصفة دورية، وارتفاع أسعار إمدادات كهرباء الطوارئ.
- يتراوح عدد اللاجئين والنازحين في إفريقيا حالياً ما بين 17 و 23 مليون لاجئ ونازح.

كشـــفت صحيفة هآرتس عن جانب غير معلن لجولـــة (ليبرمان) الإفريقية نهاية الصيف الماضي، يتمثل في العمل على تطوير علاقات اســـتخباراتية وإقامة تعاون ضد ما وصفته بالعناصر الجهادية العالمية ومواجهة النشـــاط الإيراني في هذه الدول، وكان (ليبرمان) قد وقّع في (أبوجا) اتفاقاً للتعاون في مجال الأمن الغذائي والمـــوارد المائية النظيفة مـــع تكتل دول غرب إفريقيا (إكـــواس)؛ بهدف تعزيز العلاقات مع ١٥ دولة في هذا التجمع الاقتصادي، وقد شـــملت الجولة خمس دول إفريقية هي أثيوبيا وأوغندا وكينيا وغانا ونيجيريا.

هآرتس - ٩ سبتمبر ٢٠٠٩م

كشـــفت القنصلية العامة لجمهورية السودان في دبي؛ أن الخرطوم تلقت معلومات مؤكدة بأن مؤسسة دنماركية تعمل على تصوير فيلم مفبرك في كينيا حول دارفور بعنوان «الانتقام»، استعانت في تصويره بقبيلة «النوبة» الكينية ومجموعة من الكينيين من أصل صومالي، والتقطت مشاهده في منطقة «قلقت» وســـط كينيا في معســـكر للنازحين الكينيين الفارين من أعمال عنف أعقبت الانتخابات الماضية، وأوضحت القنصلية أن الممثلين الدنماركيين (تراين دارايهولم) (والترســـن تومســـون) شـــاركا في الفيلم المفبرك الذي تخرجه مواطنتهما سوزان ليبر. وقالت إن كل ممثل إفريقي حصل على ما بين ٢٠٠٠-٥٠٠٠ شلن كيني لقاء دوره، وأنه تم التركيز على تصوير النساء والحوامل كضحايا للحرب، وهي محاولات لإفشال الاتفاق الموقع لإنهاء أزمة دارفور.

صحيفة الخليج الإماراتية - ٢٥ فبراير ٢٠١٠م

بعـــد ثلاثة عقود من القمة الأولى أعلن الاتحاد الإفريقي عن عقد القمة (العربية - الإفريقية) الثانية؛ بهدف محاربة ما وصفه الاتجاهات المسلحة المتصاعدة للاتجاهات الإسلامية في المنطقة العربيـــة وإفريقيا، وبخاصة في القرن الإفريقي، وقد عُـقدت القمـــة الماضية بين منظمة الوحدة الإفريقية التي حل محلها الاتحاد الإفريقي وجامعة الدول العربية في القاهرة بمصر عام ١٩٧٧م.

الاتحاد الإماراتية - ٣٠ يناير ٢٠١٠م

يُقـــدّر برنامج البيئة التابع لمنظمة الأمم المتحدة أن ٢٠٪ فقط من أراضي إفريقيا صالحة للزراعـــة، أما الباقي (صحار وغابات ومســـتنقعات) فلا يمكن زراعتـــه، وعلاوة على ذلك فإن الأراضي التي يمكن زراعتها يتم ابتلاعها بسرعة من قبل بلدان مثل الصين والهند، وهي بلدان يفوق عدد سكانها قدراتها الزراعية، فمنذ ٢٠٠٤م خصصت خمس حكومات إفريقية ٢،٥ مليون فدان من الأراضي لإنتاج الغذاء، وهي عملية تتم غالباً دون الاعتراف بالمزارعين الذين يقولون بأحقيتهم في تلك الأراضي أو تعويضهم تعويضاً منصفاً. ومما يزيد الطين بلة أن عدد ســـكان إفريقيا آخذ في الارتفاع، حيث من المتوقع أن يتضاعف إلى ملياري نســـمة تقريباً في غضون ٤٠ عاماً، وفي هذا الســـياق يحذّر الخبراء من أنه إذا كان ذلك العدد من الأشخاص سيطالبون بحقوق في هذه الأراضي لإطعام أنفسهم وإيوائها؛ فإن القارة قد تجد نفسها مرة أخرى فريسة حروب لا تبقي ولا تذر.

الاتحاد الإماراتية - ٢ فبراير ٢٠١٠م

بنك المعلومات الإفريقية

تنبكتو قلعة العلم:

تنبكتو (بئر «بكتو») تلك العجوز التي اشتهرت بحفظ الأمانات، فحملت المدينة اسمها على مدار تسعة قرون هي عمر المدينة التي أنجبت العديد من الفقهاء والعلماء، فكانت منارة علمية وعاصمة ثقافية للمنطقة التي عُرفت بالسودان الغربي.

تقع تنبكتو وسط مالي على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، وعلى مقربة من نهر النيجر الذي يبعد عن المدينة ١٢ كيلو متر تقريباً، وترتبط بالنيجر عن طريق قناة صغيرة، كانت سوقاً رائجة للعلم وملتقى لقوافل التجار من الشرق والغرب.

شكواها اليوم من الفقر المادي لم يمح غناها بالمكتبات الجامعة لمؤلفات حُملت إليها من كل مكان، إضافة إلى مؤلفات أبنائها، وهي اليوم تحتفظ بثلاثمائة ألف مخطوطة، تكشف لنا جانباً من مكانة تنبكتو.

أما جامع سنكوري الذي بنته إحدى المُحسنات فظل جامعة علمية عريقة لعدة قرون حتى أغلقه الاستعمار، ثم أعيد فتحه فيما بعد ليكون جامعاً فقط، لكنه مع ذلك شاهد على عراقة تاريخ هذه المنطقة.

وأما السلطان كنكن موسى صاحب مالي (ت: ١٣٣٧م) الذي اشتهر بالعلم والورع والبذل؛ فهو صاحب أشهر رحلة حج عرفتها إفريقيا؛ إذ حمل معه ١٢ طناً من الذهب تصدّق بها جميعاً في طريق رحلته حتى اضطر للاستدانة للعودة، وقد أنشأ أثناء سفره إلى الحج مسجداً في كل مدينة مر بها، وبعد عودته إلى تنبكتو بنى جامعاً كبيراً يعد نموذجاً للتمازج الفني العربي الإفريقي، وله السبق في تشجيع الحركة العلمية في الغرب، وقد كان ذلك سنّة حسنة سار عليها التجار، فتبارزوا في إنشاء دور العلم حتى وصل عدد المدارس في تنبكتو إلى ١٨٠ مدرسة، تضم أكثر من ٢٥٠٠٠ طالب فيما قبل؛ بما جعل من تنبكتو منارة علم تضاهي قرطبة وتلمسان والقاهرة عواصم العلم الإسلامية.

منظمة نصف إفريقية:

يبلغ عدد الدول الإفريقية الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي ٢٨ دولة، بالإضافة إلى إفريقيا الوسطى بصفة مراقب، وهذا يعني أن نصف الدول الأعضاء دول إفريقية من أصل ٥٧ عضواً بالمنظمة، وهذه الدول هي: إريتريا، أوغندا، بنين، بوركينا فاسو، تشاد، توغو، تونس، الجزائر، جزر القمر، جيبوتي، ساحل العاج، السنغال، السودان، سيراليون، الصومال، الغابون، غامبيا، غينيا، غينيا بيساو، الكاميرون، ليبيا، مالي، مصر، المغرب، موريتانيا، موزمبيق، النيجر، نيجيريا.

شبه استقلال:

بحلول عام ١٩٧٩م كانت كل دول إفريقيا تقريباً قد حصلت على استقلالها، فالممتلكات البرتغالية (أنجولا، الرأس الأخضر، غينيا بيساو، موزمبيق) حصلت على استقلالها في ١٩٧٤م -١٩٧٥م، وتخلت فرنسا عن جزر القمر في ١٩٧٥م، وحصل الصومال الفرنسي (إقليم العفر والعيسى) على الاستقلال وأصبح اسمه جيبوتي في ١٩٧٧م.

■ أهم الأحداث :

عام ٢٠١٠م - ١٤٣١هـ

٢٨ يناير: انتهت مهلة خبراء المياه في حوض وادي النيل بلا حلول للخلافات؛ بسبب عدم وصول لجان التفاوض إلى نقاط التقاء في الاتفاقية الإطارية لمبادرة حوض النيل.

٩ فبراير: غودلاك جوناثان نائب الرئيس النيجيري عمر يارادوا يصبح قائماً بأعمال الرئيس بدعم علني من الولايات المتحدة وبريطانيا.

١٧ فبراير: أصدرت زيمبابوي «قانون التوطين والتمكين الاقتصادي»، والذي يلزم الشركات المملوكة للبيض بضمان امتلاك السود لحصة مسيطرة لا تقل عن ٥١٪ من رأس مال هذه الشركات خلال خمس سنوات.

١٧ فبراير: أثيوبيا تضطر لتشغيل توربينات إثر توقف أحدث سدودها عن الإنتاج.

٢٢ فبراير: عيّن المجلس العسكري الحاكم في النيجر محمد داندا رئيساً للوزراء، وذلك بعد أربعة أيام من إطاحة المجلس بحكومة الرئيس محمد تانجا في انقلاب عسكري قاده الرائد سالو دجيبو.

٢٣ فبراير: أزمة سياسية وأمنية بين موريتانيا ومالي بعد إطلاق مالي سراح مطلوب لدى السلطات الموريتانية.

٢٣ فبراير: توقيع اتفاق الدوحة الإطاري بشأن إنهاء الحرب في دارفور.

٢٤ فبراير: أعلن الرئيس السوداني عمر البشير عن انتهاء الحرب في دارفور عقب توقيع اتفاق الدوحة الإطاري.

٢٤ فبراير: الإعلان عن اتفاق تعاون لمكافحة القرصنة البحرية بين ألمانيا وجيبوتي، وعن افتتاح سفارة لألمانيا في جيبوتي.

٢٥ - ٢٦ فبراير: جولة إفريقية للرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي في الغابون ورواندا، سبقتها بشهر زيارة وزير الخارجية الفرنسي كوشنير إلى رواندا.

٢٦ فبراير: أعلنت المعارضة في ساحل العاج موافقتها على الانضمام للحكومة الجديدة بعد إعادة تشكيل اللجنة الانتخابية.

٢٦ فبراير: قالت مسؤولة جنوبية بارزة إن شريكي الحكم في السودان اتفقا على رفع تمثيل الجنوبيين في البرلمان القومي بأربعين مقعداً؛ حلاً لخلافهما على التعداد السكاني الذي أجري العام الماضي.

٢٧ فبراير: أعلنت بورصة السلع الأثيوبية عن تدشين بورصة للسلع بالعاصمة أديس أبابا بمشاركة ١٣ بورصة إفريقية.

٢٨ فبراير: مطابع السودان للعملة تستعد لطباعة عملة دولة الصومال؛ بعد فوزها بعطاء تنافست عليه شركات عالمية.

١ مارس: إعلان مجموعة الشرق الأوسط للتنمية السعودية في جيبوتي عن بدء إنشاء جسر معلق بطول ٢٨،٥ كيلو متر، يربط بين قارتي آسيا وإفريقيا عبر البحر الأحمر.

٢ مارس: عُقد في جوبا أعمال مؤتمر مسلمي جنوب السودان لبحث أوضاعهم؛ بعد الاستفتاء على تقرير المصير المقرر إجراؤه العام المقبل.

الصراع على أفريقيا

آراء ورؤى :

إيران ودورها الفاعل في المنطقة، يمكّنها من استغلال ما تتمتع به الدول الإفريقية من ثروات اقتصادية ضخمة بوصف إيران عضواً مراقباً في الاتحاد الإفريقي، لتكون بذلك بمثابة شريك استراتيجي، وهو دور لا ينفصل عن رؤية إيران التي تدافع عن حقوق تلك الدول الفقيرة خاصة الإسلامية منها، لا سيما بعدما تحقق من إنجاز لإيران في الشرق الأوسط في لبنان والعراق وأفغانستان، ومن المؤكد أن إيران ستنجح في استكمال دورها المطلوب على الصعيد الإفريقي، لكن هذا الدور يستوجب من الحكومة العاشرة أن تضع تلك المنطقة من العالم على قائمة أولوياتها.

نبي الله رشنو تابناك

عن مختارات إيرانية (العدد: ١٠٩)

يشير المفكر الكيني علي مزروعي إلى أن للحركات الإسلامية من حيث تطورها في إفريقيا نموذجين رئيسين؛ أولهما النموذج الإحيائي الإصلاحي، والثاني هو النموذج التبشيري الدعوي، فالأول يحصر نشاطه وحركته في إطار جماعته المسلمة المحلية، في حين يسعى الثاني إلى نشر رسالة الإسلام والتبشير بها بما يمكّنه من اكتساب أرض جديدة، وعليه فإن النموذج الثاني يتجاوز إطار المحلية بغية تحقيق الوظيفة الجهادية من خلال نشر الدعوة على أيدي الحركة الإسلامية، بيد أن السياق الاجتماعي والفكري الحاكم لبعض الحركات الإسلامية في إفريقيا قد دفع إلى وجود نمط ثالث يجمع بين الإحياء والتبشير.

ويلاحظ أن العلاقة بين هذه الأنماط الحركية ليست علاقة تصادم وتنافر، وإنما هي في واقع الأمر علاقة تكامل وترابط، وقضية الفصل والتمييز هنا ليست قاطعة، وإنما هي لأغراض الفهم والتحليل.

موقع إسلام أون لاين

إفريقيا والتنمية:

جاءت ثماني عواصم إفريقية ضمن أسوأ عشر عواصم في العالم؛ وفق تصنيف تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٩م الذي أصدره البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، وهي: (الخرطوم: السودان، برازفيل: الكونغو، بانغي: إفريقيا الوسطى، لواندا: الكاميرون، وجادجوا: بوركينا فاسو، كنشاسا: الكونغو الديمقراطية، باماكو: مالي، ونيامي: النيجر).

صحيفة الراكوبة السودانية

٢ فبراير ٢٠١٠م

الهجرة البيئية أزمة متجددة في القارة السمراء، فاقمها الازدياد المستمر في النازحين بفعل التغيرات المناخية المتفاقمة، ويبلغ عددهم حالياً ٢٠ مليوناً، لتصل إلى ٥٠ مليوناً خلال عام ٢٠١٠م، و ٢٠٠ مليون بحلول عام ٢٠٥٠م.

الأخبار اللبنانية

٢ أكتوبر ٢٠٠٩م

من المنتظر أن تصبح غانا التي تقع في غرب إفريقيا مُنتجاً رئيساً للنفط والغاز بحلول نهاية العام؛ عندما يبدأ الإنتاج في حقل اليوبيل البحري الضخم، وغانا هي ثاني أكبر منتج للكاكاو في العالم، وثاني أكبر مستخرج للذهب في القارة، لكن البترول سيجعل منها دولة غنية ضمن الدول الصاعدة اقتصادياً في غرب إفريقيا.

موقع أفريكان مانيجر

٣ مارس ٢٠١٠م

فعـــاليات

احتفلت جامعة إفريقيا العالمية بتخريج ٢٤٠٠ من طلابها من حملة الدكتوراه والماجستير والدبلـــوم العالي والبكالوريوس، وذلك برعاية الدكتور مصطفي عثمان إســـماعيل مستشـــار الرئيس السوداني رئيس مجلس أمناء جامعة إفريقيا العالمية.

شبكة الشاهد الألكترونية - ١٩ فبراير ٢٠١٠م

أطلق مسلمو نيجيريا «مجموعة» على الموقع الاجتماعي العالمي «فيس بوك» تحت عنوان (مســـلمو نيجيريا بأي ذنب قتلوا؟!)، تدعو إلـــى التحرك نحو فضح ما يُرتكب من جرائم بحق مســـلمي نيجيريا، ووثّقوا بالصور حالات القتل التي طالت قرابة ٦٠٠ مسلم يوم ٢٦ من يناير الماضي، وبينوا الأســـباب الحقيقية لهذه المذابـــح نفياً لما طيرته وكالات أنباء من مغالطات، وأعربوا عن حالة الاســـتياء من الموقف الســـلبي لكلٍّ من منظمة المؤتمر الإسلامي والاتحاد الإفريقي ووســـائل إعلام الدول الإســـلامية تجاه ما يتعرض له المسلمون في نيجيريا، والتي تُعَدّ من أكبر الدول الإســـلامية في إفريقيا، وكشفوا عن جانب من التهميش والاستهداف الذي يمارس ضدهم من قبل المؤسسات الحكومية وغير الحكومية بسبب سيطرة النصارى على هذه المؤسســـات، كما حذَّروا من استغلال إيران لفقر عدد كبير من المسلمين النيجيريين وجهلهم حتى تقوم بتشييعهم.

شبكة الدفاع عن السنّة، وأخبار البشير - ٣ فبراير ٢٠١٠م

شـــاركت ١٣ دولة إفريقية في ندوة بالمغرب عن تشييد السدود الصغيرة والتلّية، والدور الذي قامت به هذه الســـدود في حجز أكبر كمية من المياه تحقيقاً للاســـتفادة القصوى منها، برعاية البنك الإسلامي للتنمية.

صحيفة البلاد السعودية - ٣ فبراير ٢٠١٠م

شـــيدت الندوة العالمية للشـــباب الإســـلامي مؤخراً معهدين تقنيين للبنيـــن والبنات في جمهورية مالي، لتعليم المحاســـبة والكمبيوتر والرسم الإنشـــائي والكهرباء والتدبير المنزلي والخياطة، وتوفر الندوة لهذين المعهدين كل المستلزمات التعليمية مثل أجهزة الكمبيوتر.

موقع الندوة العالمية - ٩ فبراير ٢٠١٠م

اقامت الندوة العالمية للشـــباب الإسلامي في مقرها بمدينة الرياض ملتقى خيرياً تحدثت فيـــه عن العمل الخيري والدعوي بقارة أفريقيا، وأبـــرز ثمراته، وما يمكن القيام به لمراجعته وتطويـــره، والندوة صاحبة جهود رائدة في هذا المجال وغيره من المجالات المهمة في عالمنا الإســـلامي ، وقد كان لمجلة قراءات أفريقية حضور واضح للتعريف بالمجلة والاســـتفادة من الحاضرين في مختلف تخصصاتهم واهتماماتهم في العمل بافريقيا من طلاب ودكاترة ودعاة، وتفاعل الجميع معها.

معاً لكأس العالم

أسباب اختيار الندوة ضمن فعاليات كأس العالم ٢٠١٠؟

درجت لجنة الفيفا المنظمة لكأس العالم القيام بتنظيم فعاليات ثقافية وفكرية وفنية مصاحبة لمباريات كأس العالم لكرة القدم وقد وقع اختيار اللجنة الرسمية المنظمة لفعاليات كأس العالم على الندوة العالمية للشباب الإسلامي ضمن عدد من الجهات الدولية لتقديم خدمات ثقافية باعتبارها عضو المنظمات غير الحكومية في هيئة الأمم المتحدة وعاملة في حقل الشباب وتثميناً لدورها الرائد ومشروعاتها وبرامجها النوعية الموجهة للشباب

التعريف بالبرنامج :

البرنامج عبارة عن مواد دعوية هادفة ستقوم بتوزيعها الندوة العالمية للشباب الإسلامي عبر مكتبها في جنوب إفريقيا والدعاة المتعاونين معها من نفس البلد ، في قوالب مختلفة مطبوعة ومسموعة ومصورة وأقراص مدمجة، بالإضافة إلى البرامج الثقافية والفنية المعدة من اللجنة المشرفة على المشروع للتعريف بالإسلام وقيمه السمحة وعدالته وشموليته .

أهداف البرنامج :

- يهدف المشروع إلى التعريف بالإسلام في فعاليات كأس العالم ٢٠١٠م المقامة في جنوب إفريقيا .
- مد جسور التواصل مع الشباب الزائر والمقيم من جنسيات مختلفة من خلال المواقع المخصصة للندوة بالقرب من ملاعب المباريات .
- إبراز الجانب المشرق للإسلام وأن فيه مساحة للهو والترويح المباح .
- التعريف بالدور المنوط بمنظمات المجتمع المدني الإسلامية وطليعتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي تجاه الشباب وقضاياه المتعددة .

اللغة العربية في إفريقيا..
الواقع والتطلعات

الدكتور أبو بكر عبد الله شعيب(*)

■ أهمية اللغة العربية:

اللغة العربية تُسمى لغة الضاد، ولغة الإعجاز، واللغة الفصحى، واللغة الخالدة، وهي لغة العرب وإليهم نُسبت؛ لأنها لغتهم التي فتقت عليها أسماعهم، ودارت عليها رحى بيانهم في التعبير عن أغراضهم(١).

تُعد اللغة العربية أقدم اللغات(٢) الحية على وجه الأرض، ومع اختلاف الباحثين حول عمر هذه اللغة؛ فإننا لا نجد شكاً في أن العربية التي نستخدمها اليوم أمضت ما يزيد على ألف وستمائة سنة، وقد تكفّل الله – سبحانه وتعالى– بحفظ هذه اللغة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لأنها لغة القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩]، ومذ عصور الإسلام الأولى انتشرت العربية في معظم أرجاء المعمورة، وبلغت ما بلغه الإسلام، وارتبطت بحياة المسلمين، فأصبحت لغة العلم والأدب والسياسة والحضارة، فضلاً عن كونها لغة الدين والعبادة.

لقد استطاعت اللغة العربية أن تستوعب الحضارات المختلفة المعاصرة لها في ذلك الوقت: العربية والفارسية واليونانية والهندية، وأن تجعل منها حضارة واحدة عالمية، وذلك لأول مرّة في التاريخ، ففي ظل القرآن الكريم أصبحت اللغة العربية لغة عالمية، واللغة الأم لبلاد كثيرة.

إن أهمية اللغة العربية تنبع من نواح عدّة، أهمها ارتباطها الوثيق بالدين الإسلامي والقرآن الكريم؛ فقد اصطفى الله هذه اللغة من بين لغات العالم لتكون لغة كتابه العظيم ولتنزل بها الرسالة الخاتمة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف : ٢].

كما تتجلى أهمية العربية في أنها المفتاح إلى الثقافة الإسلامية والعربية؛ ذلك أنها تتيح لمتعلميها الاطلاع على كمّ حضاري وفكري لأمّة تربّعت على عرش الدنيا عدّة قرون، وخلّفت إرثاً حضارياً ضخماً في مختلف الفنون وشتى العلوم، وهي تُعد من أقوى الروابط والصلات بين المسلمين؛ ذلك أن اللغة من أهم مقوّمات الوحدة بين المجتمعات.

*) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

١) د. بدر الدين أبو صالح: المدخل إلى اللغة العربية. لبنان. دار الشرق العربي. ط ٢. ص ١٥.

٢) اللغة العربية أقدم اللغات. فعمرها يقارب ٨٠٠٠ سنة. وقد وجدت أقدم مخطوطة في العالم في منجم في صحراء سيناء. عمرها يقارب ٤٠٠٠ سنة. وكتبت بالعربية. انظر: http://www.saaid.net/Minute/33.htm

حرصت الأمة منذ القدم على نشر لغتها وتعليمها للراغبين فيها على اختلاف أجناسهم وألوانهم وما زالت، فالعربية لم تعد لغة خاصة بالعرب وحدهم، بل أضحت لغة عالمية يطلبها ملايين المسلمين في العالم اليوم لارتباطها بدينهم وثقافتهم الإسلامية، كما أننا نشهد رغبة في تعلم اللغة من غير المسلمين للتواصل مع أهل اللغة من جانب، وللتواصل مع التراث العربي والإسلامي من جهة أخرى[١].

■ مكانة اللغة العربية في إفريقيا:

أظهر أحدث تقارير الأمم المتحدة فيما يخص اللغات في العالم أن ٥٠٪ من سكان الأرض يتحدثون ثماني لغات فقط من أصل ستة آلاف لغة تُستخدم اليوم في المعمورة، وأورد هذا التقرير أن اللغة العربية من بين هذه اللغات الثماني، وقد جاءت متفوقة على اللغة الفرنسية واللغة البرتغالية من حيث عدد المتحدثين بها؛ فلا عجب أن صارت اللغة الرسمية السادسة في الأمم المتحدة في عام ١٩٧٤م[٢].

وفي الوطن العربي تُعد اللغة العربية اللغة الأصلية «Primary» لأكثر من ٢٠ قطراً، تبدأ من المغرب وتنتهي بالخليج العربي، كما تُعد اللغة الأولى لأكثر من ١٩٥ مليون نسمة، ويتحدث بها على الأقل ٣٥ مليون نسمة كلغة ثانية[٣].

أما إفريقيا فاللغة العربية هي اللغة الرسمية لتسع أمم (دول) إفريقية، هي: مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والسودان وتشاد وجيبوتي، ويُتحدث بها بصورة واسعة في بعض دول وسط إفريقيا وشرقها، مثل: الصومال وإثيوبيا وإريتريا وجمهورية إفريقيا الوسطى وتنزانيا (زنجبار)، كما تُعد لغة شعائر دينية لأكثر من ٤٣٠ مليون مسلم في قارة إفريقيا، وتُستخدم اللغة الفصحى (من العربية) في الكتب والصحف وبرامج التلفزيون والراديو، وللأغراض الرسمية وفي الأعمال والسياسية، كما أن معظم الأدب يُكتب بها[٤].

تحتل اللغة العربية مكانة عالمية في معظم الدول الإفريقية، وذلك من أجل اختيار لغة مشتركة لإفريقيا تدرس في البلدان الإفريقية كافة، لتكون أداة مشتركة بين شعوبها وعنواناً لاستقلالها وعاملاً لتعميق وحدتها وجمع شملها، فلا توجد لغة إفريقية تستطيع القيام بهذه المهمة سوى اللغة العربية.

■ ويدل على ذلك ببعض الحقائق:

- من الناحية السكانية:

نجد أن نسبة السكان الذين ينطقون باللغة العربية ثلث سكان قارة إفريقيا تقريباً، حيث يبلغ إجمالي عدد سكان القارة بحسب إحصاءات الأمم المتحدة قرابة المليار نسمة قبل نهاية عام ٢٠٠٩م، موزعين في ٥٣ دولة.

كما يُقدر عدد المسلمين في إفريقيا بأكثر من ٥٠ ٪، يعيش أكثر من ٧٦٪ منهم تقريباً في الأقطار الإسلامية، أما الباقي، أي ما نسبته ٢٤٪ من مجموع المسلمين، فيعيشون في أقطار غير إسلامية[٥].

- من الناحية الجغرافية:

تشكل الأرض العربية أكثر من ثلث مساحة إفريقيا؛ إذ يبلغ مجموع مساحة الأقطار العربية الإفريقية (٤،٦٨٠،٩٥١) ميلاً مربعاً من مساحة إفريقيا البالغة (١١،٦٩٠،٠٠٠) ميلاً مربعاً.

١) موقع العربية للجميع: http://www. Arabicforall.net
٢) موقع كيكا: http:// www.Kikah .com/Index arabic.asp
٣) موقع العالم العربي: http://arabworld.nitle.org/introduction.php? module. id=1
٤) موقع ويكيبديا: http://en.wiKipedia. org/wiki /Arabic language
٥) موقع زهلول: إفريقيا http://www.zuhlool.org/wiki

- من الناحية السياسية:

يبلغ عدد الدول العربية الإفريقية تسع دول عربية تقريباً، أي سدس عدد الدول الإفريقية البالغ ثلاث وخمسين دولة، ويتمتع معظمها بأهمية سياسية عالمية وإفريقية، ويؤدي ممثلوها دوراً مهماً في المؤتمرات العالمية والإفريقية.

- من الناحية الدينية:

من المعروف أن اللغة العربية هي لغة الدين الإسلامي الذي تدين به غالبية الشعوب الإفريقية.

- من الناحية التاريخية:

إن أكثر الممالك التي ازدهرت في إفريقيا في السنوات الألف الأخيرة استخدمت اللغة العربية لغة للإدارة والتعليم، كما كان الحال في مملكة مالي ومملكة غانا.

■ تاريخ اللغة العربية في إفريقيا:

قامت في إفريقيا خلال فترة العصور الوسطى (القرن الثامن الهجري / القرن السادس عشر الميلادي) ممالك إفريقية إسلامية سادت ردحاً من الزمن في شرقي القارة وغربيها، وقد أسهمت هذه الممالك إسهاماً إيجابياً في نقل الحضارة والفكر الإسلامي والعربي إلى تلك المناطق، كما ساعدت على نشر التراث الإسلامي، هذا بالإضافة إلى الدور الذي قامت به في تاريخ المنطقة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً.

لقد استمر دفع الحضارة الإسلامية في إفريقيا في الانتشار والازدهار، حتى بلغ أقصى مداه وانتشاره في أيام الخلافة الصكتية في القرن التاسع عشر[1].

وقد ارتبط انتشار اللغة العربية بالدعوة الإسلامية في بلاد السودان الأوسط والغربي – كما في غيرها من المناطق –، وسار الإسلام واللغة العربية جنباً إلى جنب مع الجهاد في سبيل نشر الدين وتوسيع رقعة البلاد الإسلامية، فضلاً عن تنشيط الحركة التجارية، وقدّر المسلم في بلاد غربي إفريقية اللغة العربية تقديراً يقرب من التقديس؛ لأنها لغة القرآن، بها يؤدي صلاته، وبها يتلو قرآنه، ويقرأ علوم الدين. والدعوة الإسلامية تشجع التعليم وتجعله جزءاً لا يتجزأ من الدين، كما أن المجتمع المسلم يقدّر العلم ويجعل للعلماء منزلة جدّ عظيمة.

لقرون طويلة والقلم العربي هو القلم المعروف في إفريقيا دون غيره، فقد كانت هناك علاقة تجارية قديمة بين البلاد التي كان العرب يطلقون عليها اسم «المغرب» وبين البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، وكان ذلك قبل القرن السابع الميلادي؛ أي قبل دخول الإسلام في القارة الإفريقية.

اشتهرت عدة طرق للقوافل، كانت تبدأ من مراكش وتلمسان وتونس وطرابلس ومصر؛ متجهة إلى الجنوب لتجتاز الصحراء الكبرى وتصل إلى المراكز التجارية الرئيسة في غربي إفريقيا، مثل غانا القديمة، وإلى تمكبتو وولايات الهوسا وكانم وبرنو وغيرها.

ذكر بعض المؤرخين أن التجارة ظلت لعدة قرون بأيدي الإغريق والرومان قبل دخول العرب والإسلام إلى المغرب، ثم تولاها العرب بعد فتح شمال إفريقيا ودخول الإسلام إليها، فأصبح العرب بعد ذلك يجتازون الصحراء الكبرى ويتوغلون في إفريقيا التماساً للرزق، وكانوا يتاجرون في البضائع التي كان يتاجر فيها من قبلهم التجار الذين كانوا يُحضرون معهم إلى غربي إفريقية تلك البضائع المطلوبة، كالحرير

١) محمد بلو بن فودي: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور. دار مطابع الشعب - القاهرة - ١٩٦٤م. ص ٥٤ - ٥٦.

والسروج والسيوف والنحاس والملح والأدوات وأنواع شتى من المنسوجات، فيبيعونها ويشترون الذهب والجلود والعاج والعبيد وغير ذلك[1].

إن العلاقات التجارية بين العرب وغربي إفريقيا، والتي بدأت في القرن السابع الميلادي وازدهرت بعد القرن الحادي عشر الميلادي، كانت هي المقدمات الأولى لانتشار اللغة العربية في إفريقيا، ولقد نمت هذه العلاقات بطريقة سلمية طبيعية منذ ذلك التاريخ إلى أن بلغت أوجها بانتشار الإسلام في القارة الإفريقية، فالتجارة بطبيعة الحال تلزمها لغة التخاطب بين البائع والمشتري كما تولد الصلة بينهما، وبما أن اللغة العربية كانت أرقى من اللغات المحلية؛ فمن الطبيعي أيضاً أن يلتقطها التجار والأهالي من العرب وينشرونها فيما بينهم.

هذه العلاقة التجارية إذن هي التي وضعت حجر الأساس للعربية في إفريقيا، وبدأ أولئك التجار يُدخلون كلمات وتعابير عربية في تلك المناطق، فانتشرت تلك الكلمات والتعابير تدريجياً حتى توغلت في ربوع إفريقيا واندمج بعضها في اللغات المحلية وخصوصاً بعد انتشار الإسلام، ومما يؤكد هذا وجود كلمات عربية كثيرة في بعض اللغات الإفريقية مثل لغتي الهوسا والفلاني (الفولي)، وبخاصة أسماء تلك البضائع التي كانت تصدر إليها من المغرب في تلك القرون الغابرة، وهذا فضلاً عن الكلمات والتعابير الإسلامية التي دخلت مع دخول الإسلام، فنجد في لغة الهوسا مثلاً أن أسماء هذه البضائع عربية، فكلمة السرج والحرير والزعفران واللجام والقلم والدواة وأمثالها كلها وافدة على لغة الهوسا وتُنطق بتحريف بسيط.

١) دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٢ / ص ٢٣٨ .

لذلك يمكن القول إن اللغة العربية قد تركت آثارها في عدد من اللغات المحلية لدرجة كبيرة، وظهر هذا الأثر واضحاً في لغة الهوسا وصنغي والفلاني، ويوجد في هذه اللغات الكثير من الكلمات ذات الأصول العربية، بل إن الحروف العربية استُخدمت في كتابة لغة الهوسا منذ زمن مبكر، كما استُخدمت في اللغة الفلانية[2].

لقد ساعد على انتشار اللغة العربية والتمسك بها - فضلاً عن الجانب الديني المرتبط بها - أن الكثير من الشعوب الإفريقية في السودان الأوسط والغربي قد ادعت الأصول الشرقية، فقد ادعي ملوك مالي والتكرور وصنغي وبرنو والهوسا والفلانيين وغيرهم؛ أنهم انحدروا أصلاً عن العرب، وأن أسلافهم الأوائل جاؤوا من الشرق.

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية في إفريقيا الإسلامية هجرة القبائل إلى تلك البلاد واستقرارها فيها، وهذه الهجرات قديمة وسابقة على دخول الإسلام، وازدادت بانتشار الإسلام، ثم إن مصاهرة العرب والبربر مع القبائل الإفريقية ساعد على انتشار اللغة العربية بجانب الإسلام، مثل قبائل شوا والفلاني والماندنجو.

وظفر الإسلام واللغة العربية بنجاح كبير في هذه البلاد، فأدى ذلك إلى تقدمها وتطورها، فتطلعت إلى البلاد الإسلامية في الشمال والشمال الشرقي من أجل العقيدة والمدنية، ولم تحل وعورة الصحراء دون اجتيازها، ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم العربية الإسلامية في غربي إفريقيا بعهود الإمبراطوريات الإفريقية الإسلامية الكبرى بغانا ومالي وصنغي ثم برنو فإمبراطوريات

٢) طرخان، إبراهيم علي: مقال الإسلام واللغة العربية في السودان الأوسط والغربي، مجلة جامعة أم درمان الإسلامية، ص ٣٦ - العدد الثاني ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

الهوسا والتكارنة والفلانيين، فقد كانت اللغة العربية اللغة الرسمية السائدة فيها، واستُخدمت في شتى الأغراض وأوفت بها، استُخدمت في مجال الحكم والإدارة والقضاء، واستُخدمت في المكاتبات الرسمية بين هذه الدول وبين العالم الإسلامي الخارجي، ووجدت في الدواوين المصرية زمن المماليك صيغاً عربية خاصة لمخاطبة ملوك تلك البلاد، لتصدير المكاتبات بها.

يتضح من هذا العرض السريع أن اللغة العربية كانت اللغة العالمية في العصور الوسطى في جميع البلاد الإسلامية، واستمرت كذلك حتى قيام الخلافة السوكونية التي أسسها الشيخ عثمان فودي في أول القرن التاسع عشر، وعاشت حتى مطلع القرن العشرين، فكانت اللغة العربية طيلة هذه القرون هي لغة الدين والثقافة والتجارة، ثم هي لغة الحكومة والإدارة والقضاء، كما أصبحت لغة تخاطب في كثير من البلاد مع وجود اللغات المحلية كلغة الهوسا والفلاني والبرنو وغيرها، ثم هي من بعد لغة المراسلات الدولية والوثائق والمعاهدات، بمعنى آخر: كانت اللغة العربية هي اللغة السائدة (Lingua Franca)[1]، وكانت كتاباتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة، وقد ورد إلى السلطان الناصر كتاب من موسى (سلطان مالي) بالخط المغربي[2].

أما في الشرق الإفريقي فيرجع مؤرخو العرب الأوائل، ومنهم المسعودي، سكان القرن الإفريقي عامة إلى «كوش بن حام»، ويقول محمود محمد الحويري: إن سكان كل من بلاد الصومال وإريتريا والحبشة يرجعون إلى أصل حامي قديم دخل شرق إفريقيا من جزيرة العرب.

وهناك إشارات وآراء تذهب إلى أن الحاميين انتشروا في كل من الشمال الإفريقي والشرق الإفريقي.

■ وقد انقسموا إلى فرعين رئيسيين، هما:

١ - الحاميون الشماليون: (وهؤلاء لن نقف عندهم لبعدهم عن موضوع البحث).

٢ - الحاميون الشرقيون: ويشملون كلا من المصريين القدامى منهم والمحدثين، مع ملاحظة الامتزاج بالدم الأجنبي في الطبقات العليا في حالة المصريين المعاصرين، إلى جانب البجا والنوبيين أو البرابرة والقالا والصوماليين والدناكل ومعظم الأحباش على الرغم من اختلاطهم بالساميين والزنوج[3].

ولعل شدة التشابه العرقي واللغوي بين الشعوب الإفريقية من منطقة القرن الإفريقي الناطقة باللغات الحامية أو الكوشية، والشعوب الناطقة باللغات السامية كالعرب والأحباش؛ جعلت بعض الباحثين يرجّحون أن هاتين المجموعتين قد عاشتا في موضع واحد ردحاً من الزمن.

وقد استقرت جموع العرب في الساحل، فنشأت مدن تجارية عربية مثل كلوة ومقديشو ومصوع وممبسا وباضع وسواكن ودار السلام، بل إن العلاقة التجارية في هذا الجزء من إفريقيا مع العرب كانت قديمة، حيث كانوا على صلة بالساحل الشرقي منذ أكثر من ألف سنة[4].

١) د. السر سيد أحمد العراقي: انتشار اللغة العربية في بلاد غربي إفريقية عبر التاريخ. مجلة دراسات إفريقية - مركز الدراسات الإفريقية - جامعة إفريقيا العالمية بالسودان. العدد الأول - رجب ١٤٠٥هـ. ص ١٠١ - ١٠٣.

٢) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي. ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا. المؤسسة المصرية العامة - القاهرة - ١٩٦٣م. الجزء الخامس / ص ٢٩٨.

٣) دائرة المعارف الإسلامية. ج ١٢ / ص ٨٧.

٤) موقع مبارك: http://www.mubarak-inst.org/stud.../

■ المشكلات التي تواجه اللغة العربية في إفريقيا:

١ – نظرة المجتمع إلى اللغة العربية بوصفها لغة غير منتجة؛ بمعنى أن صاحبها ربما يكون في كثير من الأحيان عاطلاً عن العمل إن لم يجد جمعية أو مؤسسة إسلامية تستوعبه.

٢ – عدم اهتمام الحكومات والمؤسسات التعليمية والتجارية والمنظمات الدولية والمراكز الثقافية باللغة العربية، باستثناء الجانب الديني، وهو ما أدى إلى عدم الاعتزاز بها بوصفها لغة علم وحضارة وثقافة في المحافل الدولية.

٣ – المناهج: معظم المناهج – إن لم نقل كلها – لم تُعدّ للأفارقة لتتناسب وبيئاتهم، فأغلبها معد للناطقين بالعربية ولأعمار متفاوتة، فهي لا تناسب البيئة والأهداف والأعمار وغيرها، أي لا توجد مراعاة لجوانب المنهج الأربعة المتمثلة في: الجانب النفسي، الجانب الثقافي، الجانب التربوي، والجانب اللغوي.

٤ – الافتقار إلى الوسائل التعليمية المناسبة، فمعظم المدارس والمعاهد التي تدرّس العربية تفتقر إلى الوسائل التعليمية الحديثة، مثل مختبرات اللغة وغيرها.

٥ – قلة عدد المتخصصين من الأفارقة في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

٦ – قلة المعاهد المتخصصة في إعداد معلمي اللغة العربية للناطقين بغيرها وتطويرهم، فمع وجود معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ومعهد تدريب معلمي اللغة العربية أثناء الخدمة في مدينة كنو بنيجيريا، ووجود معاهد للغة العربية وأقسام في بعض الكليات، وكليات لتعليم اللغة العربية في مالي وغانا وكينيا؛ مع ذلك فهي لا تفي بالغرض ولا تعوّض النقص.

٧ – ضعف العائد المادي لمعلمي اللغة العربية، وهذا ما جعل المتميزين منهم يبحثون عن عمل إضافي إن لم يتركوا المهنة أصلاً، هذا من جانب، ومن جانب آخر جعل هذا الضعف المادي مهنة تدريس العربية مهنة من لا مهنة له؛ أي يأتي إليها غير المتخصصين.

٨ – قلة أقسام اللغة العربية في كثير من الجامعات الإفريقية، إن لم نقل انعدامها في كثير من الدول.

٩ – معظم المؤسسات التي ترعى تعليم اللغة العربية ونشرها مؤسسات أهلية خارجية، وقلة منها داخلية، ولا يخفى ما تواجهه هذه المؤسسات من صعوبات شتى، بينما تقل هذه الصعوبات بصورة كبيرة لدى المنظمات الإقليمية والدولية.

١٠ – إن اللغة العربية لا تُستعمل لغة للتخاطب والتحدث بها بين المتعلمين أنفسهم فضلاً عن بقية المجتمع، بل ربما يضطر المعلم إلى أن يشرح الكتاب العربي باللهجات المحلية لتلاميذه!

■ التحديات التي تواجه اللغة العربية في إفريقيا:

أولاً: منافسة اللغات الأوروبية:

وضعت القوى الاستعمارية لغاتها في مكانة سامية، لمعرفتهم بأن اللغة وسيلة لأهداف متعددة، أهمها ربط المستعمرات بالدولة المستعمرة حاضراً ومستقبلاً ربطاً لغوياً، ومن ثم ربطها ثقافياً وفكرياً، وكذلك سياسياً واقتصادياً، وهذا واضح الآن حتى بعد الخروج

العسكري وحصول هذه المستعمرات على استقلالها، فقد أصبحت لغة الدولة المستعمرة هي اللغة الرسمية، ولغة التعامل في الدواوين، ولغة التعامل مع العالم الخارجي، كما صارت لغة الثقافة.

وحين نأتي إلى موضوع اللغة في المستعمرات الإفريقية تأتي فرنسا في المقدمة، حيث استماتت وتستميت في سبيل نشر اللغة الفرنسية، فمنذ العام ١٨٣٠م لم تعد اللغة العربية لغة كتابة إلا إضماراً، ولم تعد تصدر بها كتب أو جرائد، بل في العام ١٩٣٨م صدر قرار رسمي بمنع اللغة العربية في القطر الجزائري، نصّ على أن «اللغة العربية تعد لغة أجنبية»،

وبعد الاستقلال أسست فرنسا المنظمة الفرانكفونية (الصوت الفرنسي)، والتي هي في الحقيقة ليست منظمة ثقافية فحسب، بل سياسية أيضاً، فهي الكمنولث الفرنسي الذي قام عوضاً عن قوة الإمبراطورية الفرنسية، فالسلاح هنا هو اللغة والثقافة الفرنسية[١].

والأمر ينطبق على اللغة الإنجليزية، حيث صارت لغة التعامل الرسمي ولغة التعليم ولغة الإعلام والصحافة ولغة المثقفين في كثير من الدول الإفريقية، وتنزانيا وكينيا وأوغندا أنموذج لذلك في شرق إفريقيا، ونيجيريا وغانا أنموذج في غرب إفريقيا.

وإذا ضربنا مثلاً بالسياسة الإنجليزية في جنوب السودان، والتي عرفت باسم السياسة الجنوبية، فقد كان رأي رجال بعض الإرساليات التنصيرية أن تكون العربية هي لغة التعليم، لأنه يمكن استخدامها في التعليم دون تجشم مصاعب إيجاد لغة عامة جديدة، ولأن التعليم بالعربية سيضمن إقبال الجنوبيين على مدارسهم، غير أن هذه الاعتبارات المنطقية التي وضعها المبشرون في حسبانهم كانت دون الاعتبارات السياسية التي وضعتها حكومة السودان في خطتها، ومدفوعاً بهذه الاعتبارات الأخيرة يجيء موقف حاكم عام السودان السير «وينجت» ضد رغبة المنصّرين، حيث كتب إلى حاكم مديرية بحر الغزال في أواخر عام ١٩١٠م يطلب منه أن تكون الإنجليزية لا العربية هي لغة التعليم في مدارس الإرساليات في الجنوب.

ثانياً: إثارة نعرة اللغات المحلية:

ومن الوسائل التي استخدمتها فرنسا أيضاً للقضاء على اللغة العربية تشجيع نعرة اللغات المحلية، حتى المندثرة منها، كما هو الحال بالنسبة للأمازيغية في المغرب العربي، حيث أنشأت لها أكاديمية في فرنسا عام ١٩٦٧م، هذا على الرغم من أن اللغة البربرية التي يتكلم بها بعض سكان شمالي إفريقيا، وبخاصة في الجزائر والمغرب، هي في حقيقتها ليست لغة واحدة لكل القبائل البربرية، وإنما هي عدة لهجات يصل عددها إلى ١٢٠٠ لهجة[٢].

ثالثاً: تشجيع العامية:

وإذ وجدت القوى الاستعمارية أن العربية كاسحة ولا بد منها؛ شجعت العامية Colloquial وحاربت الفصحى؛ لأن العامية تتعدد لهجاتها فتفرّق أما الفصحى فتوحّد.

ولعل التاريخ يعيد نفسه، فالدعوة إلى العامية بدلاً من الفصحى بدأت في كل من مصر وسوريا وبلاد المغرب على يد كل من: ولكوكس[٣]، وعبد العزيز فهمي، وسلامة موسى،

١) أحمد نصيف الجنابي: ملامح من تاريخ اللغة العربية. ١٩٨١م. دار الرشيد للنشر. وزارة الثقافة والإعلام- العراق. ص ٢٦٧.

٢) عثمان سعدي: الأمازيغ البربر عرب عاربة. وعروبة الشمال الإفريقي عبر التاريخ. مجلة العربي - ع ٤٨٤. مارس ١٩٩٩م.

٣) هو مهندس الري الإنجليزي «وليام ولكوكس» (١٨٥٢م - ١٩٣٢م) مصمم خزان أسوان. كان يعيش في أسوان في البيت الذي تحول فيما بعد إلى متحف أسوان. وكان يدعو إلى الاستغناء عن العربيّة الفصحى. وقام بترجمة الإنجيل إلى

وأنيس فريحة وغيرهم، وتصدى لهم نفر من ذوى الغيرة على العربية، وأوردوا الحجج التي تُبطل هذه الدعوة.

وفي جنوب السودان قامت السياسة البريطانية على محورين؛ الأول: محاربة اللغة العربية وتشجيع استخدام اللغة الإنجليزية بدلاً منها؛ لتستعمل في حالة صعوبة استعمال اللهجات المحلية، والثاني: تشجيع الموظفين في المديريات الجنوبية (جنوب السودان) على تعلم اللهجات المحلية، وبذل كل جهد في هذا الشأن بنشر بعض المجموعات اللغوية المحلية لتيسير اللغة.

وكان هناك ضغط على الموظفين والحكام البريطانيين العاملين في جنوب السودان لبذل كل الجهود لتعلم لغات أهالي المناطق التي يعملون بها وعاداتهم، وكان هذا، كما سبقت الإشارة، يمثل جانباً من المخطط العام الذي يستهدف إحلال لغات بديلة عن العربية كالإنجليزية واللغات المحلية[1].

رابعاً: كتابة اللغات الإفريقية بالحرف اللاتيني:

وذلك بعد أن كانت تُكتب بالحرف العربي، كما حصل مع لغة الهوسا والسواحلية وغيرها، ولمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسسكو) مجهودات جيدة في سبيل كتابة لغات الشعوب الإسلامية بالحرف العربي[2].

ومن فضل الله تعالى أن اللغة العربية بقيت لغة مهمة في شتى أنحاء إفريقيا على الرغم مما بذله الاستعمار من جهود كثيرة، ومع أن الإرساليات والطوائف التنصيرية قامت بتسهيل نشر الدين النصراني والثقافة الغربية؛ فإنها أدركت الأثر البارز للغة العربية في نفوس هذه الشعوب الإفريقية[3].

■ وسائل تطوير اللغة العربية في إفريقيا:

١ - تبني الدول العربية والإسلامية سياسة واضحة في تعليم اللغة العربية ونشرها في إفريقيا.

٢ - إنشاء معاهد لإعداد متخصصين في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها على غرار معهد الخرطوم الدولي للغة العربية.

٣ - الاهتمام ببناء مناهج للغة العربية تلائم البيئة الإفريقية، وتراعي جوانب المنهج المختلفة، وهذا يتطلب الاستعانة بالمتخصصين في المناهج وطرق التدريس وعلماء اللغة العربية واللسانيات والتقنيات التعليمية وغيرهم ممن يُحتاج إليهم.

٤ - ابتعاث عدد أكبر من الطلاب لدراسة الماجستير والدكتوراه في تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، وأيضاً في مناهج وطرائق تدريس اللغة العربية في البلدان العربية، على نفقة الدول العربية والمنظمات العربية والإسلامية الإقليمية.

٥ - الاهتمام بالوسائل التعليمية المهمة في تدريس اللغات الأجنبية، مثل: معامل اللغات، الوسائل الإيضاحية، الحاسوب وبرامجه المفيدة في تدريس اللغات.

٦ - إنشاء مكتبات خاصة بكتب تعليم اللغة العربية، ومنهجيته ووسائله المعينة.

٧ - إنشاء وتأسيس أقسام للغة العربية في الجامعات الإفريقية، وهذا يقع على

العامية المصرية. كما اقترح عبد العزيز فهمي عام ١٩٤٤م بكتابة اللغة العربية بحروف لاتينية اقتداء بما فعله أتاتورك في تركيا.

١) موقع مبارك: http://www.mubarakinst.org/stud_reas/research_view.php?id=١٣

٢) (١٩) د. عبد العزيز بن عثمان التويجري: مستقبل اللغة العربية. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) - ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤م. ص ٤٦.

٣) (٢٠) د. محمد عبده يماني: إفريقيا لماذا. دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٩١م. ص ٧٤.

عاتق الحكومات العربية والإسلامية، وإن كانت هناك بوادر عمل من بعض المؤسسات التطوعية غير الحكومية.

٨ - إنشاء وتأسيس كراسٍ بحثية للغة العربية في الجامعات الإفريقية.

٩ - تشجيع الكتاب العربي بكل الوسائل، وتشجيع تكوين الجمعيات الأهلية لحماية اللغة العربية والدفاع عنها.

١٠ - إيجاد برنامج تدريبي ثابت لمعلمي اللغة العربية، ترعاه وتموله المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسسكو).

١١ - إيجاد الوضع المناسب لمعلم اللغة العربية حتى يؤدي دوره على أكمل وجه.

١٢ - وضع خطة لتعليم اللغة العربية عن طريق المذياع والتلفاز والحاسوب، ودعم أقسام اللغة العربية في الجامعات الموجودة في دول إفريقيا.

١٣ - تدعيم الروابط الأكاديمية بين الجامعات الإفريقية والجامعات العربية، وتقديم المنح للدارسين الراغبين في القيام بأبحاث في اللغة العربية تتطلب وجودهم في الجامعات العربية.

نشاط إيران في شرق إفريقيا

بوابة الشرق الأوسط والقارة الإفريقية

مركز المعلومات حول الاستخبارات والإرهاب(*)

ترجمة: المجلة

■ نظرة عامة:

١ – إفريقيا هدف مهم للسياسة الخارجية الطموحة للرئيس الإيراني أحمدي نجاد؛ ففي الشهور الأخيرة أبدت إيران اهتماماً متزايداً بإفريقيا، حيث زار أحمدي نجاد في فبراير ٢٠٠٩م العديد من دول شرق إفريقيا (منها جزر القمر وجيبوتي وكينيا)، وخلال زياراته أكَّدَ إرادة إيران مساعدة الدول الإفريقية على تقوية استقلالها وتكوين جبهة متحدة ضد النفوذ الغربي. العديد من الرموز الإيرانية تكلمت مراراً عن مستقبل علاقات إيران السياسية بالدول، وعن الفرص الاقتصادية والسياسية التي قد تنتج عن هذه العلاقات.

٢ – تهتم إيران أساساً بتكوين علاقات بدول شرق إفريقيا، وبخاصة الدول الموجودة في القرن الإفريقي على طول ساحل البحر الأحمر وخصوصاً السودان، تنظر إيران لشرق إفريقيا بوصفه تربة خصبة لنشاطاتها السياسية والعسكرية والاقتصادية، شرق إفريقيا جزء من الاستراتيجية الشاملة لإيران الذي يخضع لسيطرة قوى رئيسة ونفوذها في الشرق الأوسط.

في الواقع؛ فإن استراتيجية إيران في شرق إفريقيا والقرن الإفريقي والدول المجاورة والتي تقع على البحر الأحمر؛ تسعى إلى تحقيق الأهداف الآتية:

أ) ترسيخ نفوذها السياسي كجزء من المحور المعادي للغرب الذي تسعى إلى إنشائه في دول العالم الثالث، فهي تحاول أن تنمو لتقلل من النفوذ الغربي – وبخاصة الأمريكي.

ب) تحقيق مصالحها الاقتصادية في ضوء العقوبات التي تضر إيران في القارات الأخرى.

*) «مركز المعلومات حول الاستخبارات والإرهاب»: هذا الموقع تمَّ تخصيصه بناء على العرض المقدم من الآباء المؤسسين للجمهورية (الولايات المتحدة الأمريكية). وهم ينتقدون العلاقات الرسمية المستمرة بين الحكومة الأمريكية والحكومات الدكتاتورية والمستبدة حول العالم.
الهدف الاستراتيجي - كما يزعمون -: هو عمل معهد عالمي على وعي باللعبة السياسية.
أبرز العاملين بهذا المركز: توماس جيفرسون، جيمس ماديسون، ويندل فليبس، فيدور ديستوفيكسي، روبرت ستيبل.
http://www.phibetaiota.net/?p=19380

ج) تصدير الثورة الإسلامية من خلال المؤسسات الإيرانية أو المراكز الثقافية التي تنشر الفكر الشيعي، وتعزيز نفوذها من خلال نشر جهودها في البلاد الإسلامية والمجتمعات الإسلامية التي تعيش في شرق إفريقيا.

د) تأسيس وجود إيراني مادي على الأرض وفي البحر، في البلدان والموانئ التي قد تهدد ممرات البحر الحيوية خلال الأزمات، وبخاصة عند مدخل البحر الأحمر.

ه) صنع ممرات بحرية وبرية تقود إلى الميادين التنافسية ذات طابع المواجهة لإيران في الشرق الأوسط، والتي قد تستخدم لتهريب الأسلحة والعمليات الإرهابية، والدولة المهمة لإيران هي السودان خصوصاً، والتي قد تستخدم كوسيط لنقل المعدات العسكرية خلال مصر إلى حركة حماس في غزة «المحاصرة».

٣ - الأدوات المهمة لإيران لتحقيق تأثير سياسي هي توسيع العلاقات الاقتصادية ودبلوماسية النفط، حيث تحاول إيران عمل علاقات اقتصادية بشرق إفريقيا (وإفريقيا عموماً)، وتعرض مشاريع متنوعة في مجالي الزراعة والطاقة؛ وبناء السدود والطرق والإسكان ... إلخ.

٤ - البحر عنصر مهم في سياسة إيران؛ فمن ناحية المدخل الجنوبي للبحر الأحمر - الذي هو المهم من الناحية الاستراتيجية لإيران- تسعى لتقوية علاقاتها البحرية باليمن، ففي يونيو ٢٠٠٩م عقدت اتفاقية تسمح للأساطيل الإيرانية أن ترسو في ميناء عدن كجزء من مهمة إيران في محاربة القراصنة الصوماليين، ومن المتوقع أن تنضم للبوارج الحربية الست الإيرانية المستقرة في المياه الصومالية لحماية السفن التجارية الإيرانية.

وتجتهد طهران أيضاً في تقوية علاقاتها بالدول الإفريقية التي تطل على البحر الأحمر، من بينها السودان وإريتريا وجيبوتي (انظر: الخريطة الآتية)، لتعينها على تأسيس وجود بحري فعَّال في البحر الأحمر يقود لخليج «إيلات» وقناة السويس.

٥ - تحتوي هذه الدراسة على العناصر الآتية:

أولاً: وصف عام لسياسة أحمدي نجاد الإفريقية.

ثانياً: السودان.

ثالثاً: كينيا.

رابعاً: إريتريا.

خامساً: الصومال.

سادساً: جزر القمر، جيبوتي، وتنزانيا.

■ أولاً: وصف عام لسياسة أحمدي نجاد الإفريقية:

٦ - كان من المقترح للرئيس الإيراني أحمدي نجاد، الذي تم انتخابه في ١٢ يونيو لفترة رئاسية ثانية في انتخابات تحوم حولها الشكوك، أن يحضر مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية الذي عقد مؤخراً في ليبيا، وكان متوقعاً أن يكونَ هذا أوَّل ظهور له في مؤتمر سياسي خارج إيران (باستثناء زيارة قصيرة له لروسيا بعد الانتخابات، تم التخطيط لها قبل ذلك)، لكن تم إلغاؤه في النهاية.

وكان سيطرح أمام أعضاء المنظمة قناعاته السياسية، وذلك فيما يتعلق بضرورة انضمام الدول الإفريقية كافة إلى الجبهة الموحدة بقيادة إيران ضد «الإمبريالية العالمية»، والتي

ما زالت تستنزف موارد إفريقيا الطبيعية، وأن يُقحِم إفريقيا في سياسته الخارجية الطموحة التي تهدف إلى صنع بديل إسلامي للغرب.

٧ - استخدم أحمدي نجاد سياسته الخارجية التي تتعدى أهدافها الشرق الأوسط في حملته الانتخابية الأخيرة، وشكلت إحدى العناصر الأساسية في أجندته السياسية، وقد انتقده خصومه بسبب توسعه في السياسة الخارجية، كما انتقدوا طريقته المستفزة في ممارستها على حساب الشعب الإيراني.

وعلى الجانب الآخر بعد الانتخابات مباشرةً؛ ذكر نجاد أنَّه في دورته الرئاسية ستكون سياسته الخارجية أكثر حزماً فيما يتعلق بدعوته إلى تشكيل جبهة مضادة للإمبريالية، ففي منتصف يوليو ٢٠٠٩م ألقى خطاباً في مدينة (مشهد) مستخدماً مصطلحاته الدينية العاطفية عند الحديث عن سياسته الخارجية قائلاً إنَّ «هذا هو موعد ظهور المهدي مرة أخرى (الإمام الثاني عشر في اعتقاد الشيعة).. يجب أن نعمل جنباً إلى جنب لبناء إيران، ولإنجاز مهمتنا الثورية العالمية.. خلال التدخل القوي في الشؤون العالمية».

٨ - بالإضافة للتوجهات الأيديولوجية السياسية الأمنية؛ فإيران لها أيضاً اهتمامات اقتصادية في شرق إفريقيا وفي إفريقيا عامةً، فقد طلب نائب وزير الخارجية الإيراني للشؤون الإفريقية محمد رضا باقري من القطاع الخاص في إيران زيادة التعاون مع إفريقيا قائلاً إنَّ هذا سيكون مميزاً للشركات الإيرانية، «إيران لها خطط شاملة سياسية واقتصادية وثقافية مكثفة في إفريقيا ... وهذا أيضاً سبب بقاء القوى العظمى طامعة في هذه القارة»[١]، وفي منحى مشابه ذكر وزير الخارجية الإيراني أنَّ إفريقيا في قمة أولويات السياسة الخارجية الإيرانية. وأطلق الرئيس الإيراني على إفريقيا (أغنى قارة في العالم)، ولذلك كما يقول.. يجب على إيران أن تزيد تعاونها معها[٢].

٩ - وفي ندوة «تعاون إيران - إفريقيا» التي تم عقدها خلال شهر مايو ٢٠٠٩م ذكر حسين حسيني - مدير منظمة تنمية التجارة مع العرب والدول الإفريقية - أنَّ إيران صاغت برنامجاً من ٤٨ مشروعاً لتوسيع علاقاتها بالدول الإفريقية، وبين المشروعات خطوط جوية ونقل وتأسيس بنوك مشتركة، وبخاصة كينيا التي تعدها إيران بوابة للدول الإفريقية الأخرى[٣]، كما عقدت إيران في ١٢ نوفمبر ٢٠٠٧م مؤتمراً مماثلاً للبحث في العلاقات التجارية الإيرانية الإفريقية الممكنة، وشارك فيها ممثلون عن كينيا والسودان أيضاً.

■ ثانياً: السودان:

١٠ - ترى إيران للسودان أهمية خاصة بسبب موقعها الجيو استراتيجي، فهي قريبة من العالم العربي وبخاصة مصر، ويمكن أن تكون البوابة الخلفية لإفريقيا السوداء وشمال إفريقيا ...

معالم العلاقات المتبادلة:

١١ - صارت هناك روابط سياسية وأمنية بين إيران والسودان منذ استيلاء عمر البشير على السلطة في ١٩٨٩م، حيث استلم السلطة عن طريق جزء من ثورة

١) وكالة أخبار فارس، ١٧ مايو ٢٠٠٩م.
٢) وكالة أخبار الجمهورية الإسلامية، إيران، ١٢ نوفمبر ٢٠٠٧م.
٣) وكالة الأنباء إيسنا، ٢٩ مايو ٢٠٠٩م.

إســـلامية متأثرة بالثورة في إيـــران قبلها بعشر ســـنوات، وكان خلف الثورة السودانية حسن الترابي الذي أراد أولاً أن يؤسس في الســـودان ثم في شرق إفريقيا نموذجاً سنيّاً للثورة الشـــيعية الراديكالية في إيران، وأن يمارس دور الخميني الإقليمي، وكان الترابي المحـــرك الروحي وراء تأســـيس العلاقات السودانية الإيرانية.

كادت إيـــران أن تســـتعيد عافيتها في هذا الوقت بســـبب ثماني ســـنوات من الحرب ضد العـــراق، وحاولت أن تبحث عن حليف عربي لم يؤيد صدّام حســـين في الحـــرب، فوجدته في الســـودان التي كانت ولم تزل إلى الآن تشارك إيـــران فـــي أيديولوجيتها المعاديـــة لأمريكا وإسرائيل.

وبقي هـــذا التحالف الذي بدأ منذ ١٩٨٠م بين البلدين؛ على الرغم من الانشقاق بين سلطة البشير وحسن الترابي في نهاية عام ١٩٩٠م.

١٢ – وكبادرة حســـن نية زار أكبر هاشمي رافسنجاني الرئيس الإيراني في عام ١٩٩١م في هذا الوقت الســـودان مع وفد يتكون من أكثر من ١٥٠ عضواً، وعقدت الدولتان عدداً من الاتفاقيات.

١٣ – في أكتوبر ٢٠٠٤م قام محمد خاتمي الرئيس الإيرانـــي في هذا الوقـــت بزيارة السودان.

١٤ – وانتقـــدت إيـــران في عـــام ٢٠٠٩م المذكـــرة الدولية التـــي أصدرتها محكمة الجرائـــم الدوليـــة للقبض علـــى الرئيس السوداني عمر البشير ووصفتها بأنها «ظلم، وتحركها اعتبارات سياسية»[١]، وفي المقابل دعـــم الرئيس الســـوداني حـــق إيران في امتلاك الطاقة النووية، وفي مارس ٢٠٠٩م وبعد وقت قصير مـــن دفاع إيران عن عمر البشير؛ قام رئيس مجلس الشورى الإيراني «علي لاريجانـــي» بزيارة الســـودان والتقى البشير، وأدهش بزيارته الجميع حتى أعضاء لجنة السياسة الخارجية والأمن الوطني في المجلس الإيراني[٢].

١٥ – فـــي ينايـــر ٢٠٠٧م زار وزير الدفاع الســـوداني إيران، وفي سبتمبر ٢٠٠٧م قال إنَّ إيـــران كانت من المزودين الرئيســـيين للســـودان بالســـلاح، وفي ٥ مارس ٢٠٠٨م رأس وزيـــر الدفـــاع الإيراني وفـــداً عالي المســـتوى إلى الخرطـــوم، وقابـــل الوزير السوداني الذي وصف علاقات إيران ببلاده بأنها مثالية. وعنـــد لقائه برئيس البرلمان الســـوداني قال وزير الدفـــاع الإيراني بأنه راضٍ جـــداً عن الأشـــكال المتنوعة للتعاون العسكري المتبادل بين إيران والســـودان ســـواء كانت إقليميـــة أو دوليـــة، وأنه في العقد الأخير عمل التعاون العســـكري بين الدولتين علـــى تقوية الروابـــط بينهما[٣]. وانتقد الفساد والمواقف المتغطرسة للقوى العظمى (الغرب والولايـــات المتحدة) التي تنشر الاضطراب والفوضى في جميع أنحاء العالـــم[٤]، وخلال زيارته عقـــدت الدولتان معاهدة تعاون عسكري.

١٦ – أصبحت الســـودان على مر السنين جاذبةً للمنظمات الإسلامية الراديكالية، من مصر ومن دول أخرى في شـــمال إفريقيا، التي وصلت إلى السودان للاجتماع مع جهات استخبارية إيرانية ومع الحرس الثوري.

١٧ – كما يوجد هناك فرع للمركز الثقافي الإيراني يعمل في الخرطوم، يُستخدم مقراً

١) وكالة إبرنا، ٩ مارس ٢٠٠٩م.

٢) اعتمادي - ملي، ٣٠ مارس ٢٠٠٩م.

٣) وكالة إبرنا، ٥ مارس ٢٠٠٨م.

٤) وكالة الأنباء إبرنا، ٨ مارس ٢٠٠٨م.

لاجتماع الشبكات الإسلامية، ومركزاً لنشر ثقافة إيران والأدب الشيعي...

■ ثالثاً: كينيا:

العلاقات المتبادلة:

١٨ – منذ انتخاب أحمدي نجاد حدث تقارب واضح بين إيران وكينيا، حيث زار رئيس الوزراء الكيني «رايلا أودينجا» طهران في ٢٠٠٨م، وأعلن في الزيارة أنَّ كينيا تستطيع أن تستفيد من خبرة إيران في الطاقة النووية، وأنَّ كينيا كانت تبحث عن مصادر بديلة للطاقة لمواجهة حاجة البلد إلى الكهرباء.

١٩ – زيارة أحمدي نجاد لكينيا من ٢٤ – ٢٥ فبراير ٢٠٠٩م عندما كان يرأس وفداً من مائة شخص هي مثال آخر للعلاقات المتزايدة والمتقاربة بين البلدين، كانت الزيارة الأولى لرئيس إيراني إلى كينيا منذ ١٩٩٦م، التقى أحمدي نجاد في الزيارة الرئيس الكيني «موواي كيباكي» ورئيس الوزراء، وتم توقيع عدد من مذكرات التفاهم. واستغل أحمدي نجاد الفرصة ليدعو البلاد الإفريقية إلى تجاهل الانتقادات الموجهة لإيران على الساحة الدولية، وإلى العمل على تحسين علاقاتهم بها.

٢٠ – استغل نجاد الزيارة أيضاً ليُشهِّر بالغرب، فقال في مومباسا: «يجب على الحكومات الإفريقية ألا تسمح للقوى العظمى الظالمة أن تسرق ثرواتها مرة أخرى»[١]، كما أضاف أنَّ «هناك دولاً تدَّعي أنها أمم عظمى! وعلى مرِّ السنين تظلم وتستغل الدول النامية وتنهب ثرواتها الطبيعية وتسلبها حريتها، لقد حان الوقت للدول النامية في آسيا وإفريقيا أن تنهض وترفض الديكتاتورية»[٢]، على الرغم من ذلك أعلنت كينيا أن علاقاتها بإيران ليست على حساب علاقاتها بالولايات المتحدة.

٢١ – وافقت إيران وكينيا على تأسيس خطوط بحرية بين بندر عباس ومومباسا، وبناء مركز تجاري إيراني في نيروبي. وعقب خطاب الرئيس الكيني أذاع الإعلام الكيني أن إيران ربما تساعد كينيا على بناء مفاعل نووي لتوليد الكهرباء، وقال «جوشوا ميوسييمي» الذي يرأس مشروع تنمية الطاقة في وزارة التخطيط الكينية إنَّ كينيا كانت تبحث عن شريك لإمدادها بالخبرة الضرورية لتنمية الطاقة النووية.

في الوقت الحالي شاركت إيران في مشاريع طاقة عديدة في كينيا، وقامت الحكومة الكينية من قبل بالاستعانة بشركة إيرانية لبناء مفاعل طاقة هيدروكهربائية شمال نيروبي، ومحطة لتوليد الطاقة يدار بالغاز بالقرب من مومباسا.

٢٢ – كما ستقوم إيران أيضاً بإمداد كينيا بـ ٤ ملايين طن من البترول الخام (تقريباً ٨٠ ألف برميل يومياً).

٢٣ – قال مسؤول في وزارة الخارجية الكينية إنَّ «إيران تريد إرسال شركاتها إلى كينيا لبناء طرق وسدود ولتنمية الصناعات الدوائية». كان الوفد الإيراني الذي رافق أحمدي نجاد يضم أيضاً رجال أعمال من القطاع الخاص، وطبقاً للاتفاقيات التي وقعت خلال زيارة أحمدي نجاد أقرضت إيران كينيا ١٠ ملايين دولار[٣].

٢٤ – في مايو ٢٠٠٩م قام رئيس الوزراء الكيني «رايلا أودينجا» بزيارة لإيران، وأخبر

١) وكالة أنباء مِهر الإيرانية، ٢٦ فبراير ٢٠٠٩م.

٢) التلفزيون الكيني ٢٥ فبراير ٢٠٠٩م.

٣) وكالة أنباء فارس الإيرانية، ٦ مارس ٢٠٠٩م.

أحمدي نجاد أنَّ مذكرة التفاهم التي تم توقيعها عندما كان أحمدي نجاد في كينيا تمَّ التصديق عليها، وأنها ستضع كينيا على الطريق السريع للتنمية والصناعة، وأضاف أنَّ كلا البلدين وافق على زيادة التعاون في التعليم والمجال البحثي ومجال الاقتصاد والصحة، بالإضافة إلى ذلك عُقدت اتفاقيات عديدة ستسمح للشركات الإيرانية ببناء إسكان رخيص. كما اتفقت الدولتان على تكوين فرق عمل لتنفيذ الاتفاقيات التي أُبرمت بينهما في مجال الاقتصاد والتجارة والأعمال المصرفية والزراعة والتعليم والطاقة والبترول والصناعة، وأيضاً اتفاقيات التعاون السياسية والثقافية وفي مجال الصحة والإسكان.

٢٥ – في الشهر نفسه زار نائب الرئيس الإيراني كينيا، وقال إنَّ أهم قضية في أجندة إيران هي بناء علاقات دبلوماسية بالدول الإفريقية وبخاصة كينيا.. كما أن إيران مستعدة أن تمد نشاطها في كينيا بطريقة تتماشى مع مصالح البلدين، كما أنها مستعدة لدعم كينيا في مجال الزراعة والبترول والإسكان وبناء محطات توليد الكهرباء.

■ النشاط الثقافي والديني:

٢٦ – إيران لها مكتب ثقافي كبير في كينيا يعمل إلى جانب سفارتها، وهو مسؤول عن النشاط الثقافي والديني، وأيضاً عن تحديث المعلومات عن الأحداث في إيران. وهناك فرع لـ «منظمة العلاقات والثقافة الإسلامية» في كينيا، وهو واحد من بين كثير من المراكز في كينيا.

في نهاية يونيو ٢٠٠٩م نظّمت «رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية» الإيرانية «ICRO» أسبوعاً للصداقة الإيرانية الكينية، وبدأ في يونيو أيضاً أسبوع الصداقة بين أطفال إيران وكينيا، وتم إحضار ٢١١ من كتب الأطفال لنيروبي وأفلام وبرامج حاسوب وصور، كما أن موقع الـ «ICRO» على الشبكة العنكبوتية أعلن دعوات لمسابقات عديدة لحفظ القرآن الكريم ونشاطات ثقافية أخرى؛ تهدف إلى زيادة جاذبية المذهب الشيعي لدى المسلمين الكينيين.

■ رابعاً: إريتريا:

٢٧ – تهتم إيران بتوثيق العلاقات بإريتريا، في نطاق الأهمية التي توليها للبلاد الإسلامية المطلة على البحر الأحمر، ومثلت زيارة الرئيس الإريتري أسياس أفورقي لإيران في مايو ٢٠٠٨م ولقاؤه بأحمدي نجاد أحد معالم العلاقات بين البلدين.

٢٨ – وفي زيارته عُقدت اتفاقيات لتقوية التعاون بين البلدين في مجالات التجارة والاستثمار، ووقَّعَها وزير الخارجية الإيراني «منوشهر متكي» ووزيرا الاقتصاد والزراعة في إريتريا، وشارك في الزيارة أيضاً عدد من رجال الأعمال الإيرانيين[١].

٢٩ – وقال الرئيس الإيراني إنَّ «(بلدينا) يملكان خططاً للنهوض سريعاً، ومقاومة الغطرسة الغربية»، كما أنَّ إيران عرضت مساعدة إريتريا في مجال الطاقة والصناعة والزراعة[٢].

٣٠ – في أثناء زيارة الرئيس الإريتري إلى إيران حضر أيضاً رئيس البرلمان السنغالي ووزير الخارجية الغاني في إيران. ومتابعةً لحضورهم قامت صحيفة «سياستى روز»

١) موقع وزارة الخارجية الإريترية على الشبكة العنكبوتية. في مايو ٢٠٠٨م.

٢) موقع تلفزيون برس على الشبكة العنكبوتية. في ٢٠ مايو ٢٠٠٩م.

ذات الاتجاه المحافظ بنشر مقال عن هذا الاهتمام الإيراني بالدول الإفريقية، وقالت إنَّ زيارات شخصيات إفريقية رفيعة المستوى لإيران تشير إلى الأهمية الكبرى التي توليها إيران لتقوية علاقاتها بالدول الإفريقية؛ لأن هناك العديد من البلاد الإسلامية في إفريقيا ذات إمكانيات اقتصادية كبيرة تجاهلتها القوى الغربية.

ذكرت الصحيفة أيضاً أنَّ «منظمة الاتحاد الإفريقي» بواسطة بعض أعضائها؛ يمكن أن تكون مفيدة بوصفها حليفاً لإيران في ميدان التنافس الدولي.

٣١ – صور أخرى لتطور العلاقات الإيرانية الإريترية كانت: توقيع وزيرا مالية الدولتين مذكرة تفاهم لتشجيع الاستثمارات الأجنبية[١]، وقال الوزير الإيراني إنَّ إيران مستعدة للسماح لإريتريا بالاستفادة من خبرتها وإنجازاتها في مجال الزراعة والتعدين. كما منح «البنك الإيراني لتنمية الصادرات» إريتريا مبلغ ٣٥ مليون دولار سلفة للعمل على تقوية العلاقات التجارية بين البلدين.

٣٢ – وقد أعرب وزير الخارجية الإريتري عن تأييده لبرنامج إيران النووي عند لقائه سفير إيران في الأمم المتحدة[٢]، وقد أشار الحزب الديمقراطي الإريتري المعارض إلى أن الرئيس يلعب بالنار في تعاملاته مع إيران، وربما يؤدي هذا إلى «عواقب دولية وخيمة».

٣٣ – وفي الشهور الأخيرة سُلطت الأضواء على علاقات إيران – إريتريا، وذلك في أعقاب تقارير غير مؤكدة من مصادر المعارضة في إريتريا؛ حول وصول بوارج وغواصات إيرانية إلى مدينة «أشعب» ذات الموقع الاستراتيجي على البحر الأحمر، واستناداً إلى تلك المصادر نصبت إيران في ذلك المكان جنوداً وصواريخ بعيدة المدى من أجل الدفاع عن منشأة لتقطير النفط، وقد نفت السلطات الإريترية هذه التقارير.

■ خامساً: الصومال:

٣٤ – تعد الصومال نقطة اتصال أخرى لإيران، تدعم التأثير والوجود الإيراني في القرن الإفريقي عند مدخل البحر الأحمر.

٣٥ – انضمت إيران أيضاً لقائمة الدول المهددة في حركتها البحرية من القراصنة الذين يعملون عند الساحل الشمالي، في ٢١ أغسطس ٢٠٠٨م استولى القراصنة على سفينة شحن إيرانية في طريقها من الصين إلى هولندا، كانت محملة بـ ٤٠٠ ألف طن من الحديد[٣]، حدثت عملية السطو في أوج الاتصالات بين إيران والصومال، ومع تعيين سفير صومالي جديد في إيران؛ قال نجاد في هذه المناسبة إنَّ إيران تعرف الشعب الصومالي، ولن تتخلى عن دورها في الدفاع عن الشعب الصومالي المظلوم[٤].

٣٦ – في ضوء قضية تهديد القراصنة؛ أرسل السفير الإيراني في الأمم المتحدة رسالة إلى السكرتير العام للأمم المتحدة «بان كي مون»، تذكر أنَّ إيران سترسل سفينتين حربيتين إيرانيتين لحماية الساحل الصومالي وخليج عدن لمدة خمسة أشهر، وذلك لمحاربة القراصنة الذين يعملون في المنطقة ولحماية سفن الشحن الإيرانية[٥].

١) طهران تايمز، ١٦ سبتمبر ٢٠٠٨م.
٢) موقع الشبكة العنكبوتية لإيران مانيا، ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٨م.
٣) وكالة أنباء فارس، إيران، ٢٢ أغسطس ٢٠٠٨م.
٤) وكالة إيرنا الإيرانية ٣١ يوليو ٢٠٠٨م.
٥) وكالة إيرنا الإيرانية ١٤ مايو ٢٠٠٩م.

وجود الأسطول البحري الإيراني بالقرب من الصومال سيجعل إيران قادرة على تحقيق حرية تنقل أوسع في المنطقة، وليس على حماية سفنها فقط.

٣٧ – أخبر وزير الخارجية الإيراني مثيله الصومالي أنَّ موقع الصومال الاستراتيجي ومواردها الطبيعية الكثيرة ما زالت مستغلة من «القوى العظمى المتغطرسة»، وأنَّ تدخلاتهم هي المسؤولة عن أزمات الصومال وعدم استقرارها، قال الوزير أيضاً إنَّ إيران مستعدة لتقديم كل العون الضروري لحل الأزمة الصومالية.

ومع ذلك يبدو أنَّ الحركة الأصولية السنّية التي يقودها «شباب المجاهدين» ستكون عائقاً في تقدم العلاقات بين الصومال وإيران الشيعية.

■ سادساً: جزر القمر، جيبوتي، وتنزانيا:

١ – جزر القمر:

٣٨ – في يونيو ٢٠٠٨م التقى الرئيس أحمدي نجاد السفير الجديد لجزر القمر في طهران أحمد نجم المرزوقي، واستغل نجاد الفرصة للدعوة إلى عمل علاقات مكثفة بين البلدين[١].

٣٩ – وكانت جزر القمر المحطة الأولى لأحمدي نجاد في زيارته الإفريقية عام ٢٠٠٩م، وقد استغل الفرصة لعقد وثيقة تفاهم لتوسيع الروابط السياسية، وإسراع التنمية ومشاريع التطوير في الجزر، وقابل شخصيات رفيعة المستوى، ووعد بالمساعدة لعمل مشاريع متنوعة.

ومن جزر القمر ذهب إلى جيبوتي في أول زيارة لرئيس إيراني لهذا البلد.

٢ – جيبوتي:

٤٠ – جيبوتي مهمة لإيران بسبب موقعها الاستراتيجي في القرن الإفريقي، والعلاقات باليمن وجيبوتي أعطت إيران وجوداً استراتيجياً في كلا جانبي مدخل البحر الأحمر وممراته البحرية التجارية.

٤١ – في سبتمبر ٢٠٠٦م قام إسماعيل عمر جيلة رئيس جيبوتي بزيارة إلى إيران، وفي مؤتمر صحافي عُقِدَ أثناء الزيارة قال أحمدي نجاد إنَّ العلاقات بين البلدين ما زالت في أولها؛ لأنهما «ليس لديهما تاريخ مشترك»، ومع ذلك قال إنهما وقَّعا اتفاقيات للاستثمار المشترك في مشاريع عديدة وتعاون في مجال الطاقة[٢].

٤٢ – زار أحمدي نجاد جيبوتي في جولة في شرق إفريقيا في فبراير ٢٠٠٩م، واقترح الوفد الإيراني الذي رافقه تقديم معونة في المجال العلمي والصناعي والهندسي لجيبوتي؛ للعمل على تطوير مشاريع مختلفة. وإضافة إلى ذلك منحت إيران جيبوتي قرضاً وساعدتها على تأسيس مركز للتدريب المهني.

٣ – تنزانيا:

٤٣ – سعت إيران أيضاً إلى تقوية علاقتها بتنزانيا لكونها بلداً شرق إفريقي ومهماً من الناحية الاستراتيجية، في أكتوبر ٢٠٠٨م زار وزير الخارجية التنزاني طهران والتقى وزير الخارجية الإيراني «منوشهر متكي». عقدت الدولتان خلال الزيارة وثيقة تفاهم هدفها تقوية الروابط بينهما. وأبدت إيران استعدادها لمساعدة تنزانيا وبخاصةً في مجالي الاقتصاد والزراعة[٣]، وقال أحمدي

١) طهران تايمز. ١١ يونيو ٢٠٠٩م.

٢) وكالة أنباء فارس. إيران. ٥ سبتمبر ٢٠٠٩م.

٣) الجارديان. ٢١ أكتوبر ٢٠٠٨م.

نجـــاد إنَّ إيران وتنزانيـــا تربطهما علاقات تاريخيـــة، وأنَّه يرحّبَ بتقوية إيران لعلاقتها بإفريقيا[1].

٤٤ – فـــي يناير ٢٠٠٩م وقَّـــعَ وزير الدفاع الإيراني ونظيره التنزانـــي اتفاقية للتعاون المشترك في المجالات الأمنية، وأكَّدَ وزير الدفاع الإيراني اســـتعداد إيران للمشاركة بالخبرة الأمنية مع تنزانيا[2].

٤٥ – وزار نائب الرئيـــس الإيراني «برويز داودي» فـــي مايـــو ٢٠٠٩م تنزانيا، والتقى الرئيس التنزاني «جاكايا مريشـــو»، وتباحثا في سبل تقوية العلاقات بين البلدين، وخلال زيارته تم عقد اتفاقيات في مجالي التجارة والزراعة والعلاقـــات الثنائية بينهما. وقال داودي إن إيـــران وتنزانيا ســـبق أن حققتا إنجـــازات عظيمـــة في توســـيع العلاقات بينهما، وبخاصةً المجال الاقتصادي[3].

١) إيران تايمز. ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٨م.
٢) وكالة أنباء فارس. ٢٠ يناير ٢٠٠٩م.
٣) وكالة أنباء إرنا. ١٢ مايو ٢٠٠٩م.